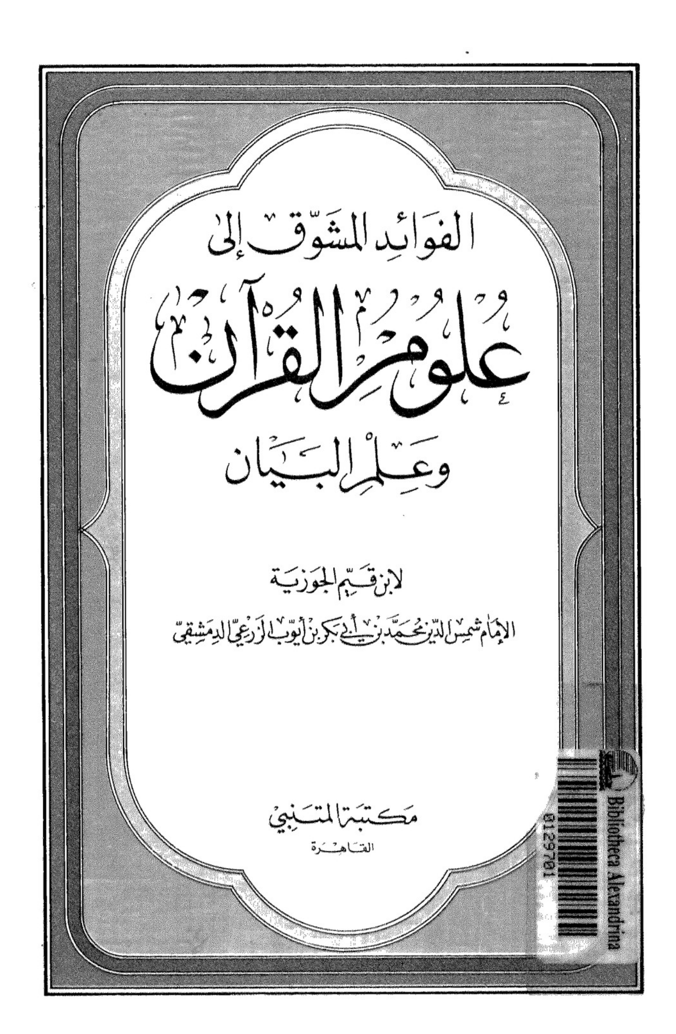


الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان

لابن قيم الجوزية

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي

مكتبة المتنبي
القاهرة

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان


بسم الله الرحمن الرحيم

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان

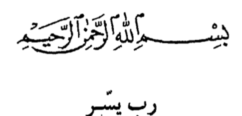
لابن قيم الجوزية

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي

المتوفى سنة ٧٥١

مكتبة المتنبي

القاهرة



رب يسّر

قال الشيخ الإمام العالم العلامة. الحبر البحر الفهامة. سيد الحفاظ. وفارس المعاني والألفاظ. مفسر القرآن. ذو الفنون البديعة الحسان. أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية رحم الله روحه، ونوّر ضريحه.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فهدى بنوره من الضلالة وبصر به من العمى. وأرشد به من الغيّ. وفتح به أعيناً عمياً. وآذاناً صماً. وقلوباً غلفاً. (وبعد) فإن الله تفضل على هذه الأمة أن جعلهم عدولاً خياراً، وجعلهم شهداء في أرضه شهداء على الناس يوم ترى الناس سكارى، وبعث إليهم أقربهم إليه محبة وإيثاراً، وأعظمهم لديه شرفاً ومقداراً، وأنزل عليه كتابه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وحَسْبُهُمْ بذلك علواً وفخاراً، وجعله نوراً وصراطاً مستقيماً، وحث على تعلمه وعلمه ليعم بإحسانه ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً، وأقامه حجة على من ضل ومحَجة لمن اهتدى، وأودعه حكمة وموعظة وهدى، ونصبه دليلاً على الحق لا يضعف ولا يهي، وسبيلاً يصدر عنه كل رشد وإليه ينتهي، وطريقاً تجلى بأسلاك نفائس الأعمال أهْل سلوكها، وبرهاناً واضحاً يزجرهم عن خلل انحلال عقائدهم وشكوكها، وأودعه من الإعجاز ما لا يحصر بحصر حاصر ولا بعدّ عاد،

من الأمر والنهي والوعد والوعيد والحكم والأمثال والمواعظ وقصص القرون السالفة كأصحاب الرسّ وقوم عاد، فكم في لفظه من إيجاز يسفّه حلم من يقول بلفظه، وكم في معناه مغنٍ للجادّ في حفظه، أبدعتْ في أنواع البديع كلماته، وأغربتْ في أجناس التجنيس سوره وآياته، ورمتْ أرباب الفصاحة بالجمود والعِي فصاحته وجزالته، وأخرستْ ألسنتهم الذربة فأعيتهم معارضته وإزالته، فأقروا له بعد تسفيه أحلامهم وتقريعهم وتعجيزهم بالحلاوة والطلاوة، وعلموا أنه ليس من كلام البشر ولكن غلبت عليهم الشقاوة، هذا مع أنهم لم يتدبروا أكثر معانيه، بل قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، طلبوا الغلَبَ وظنوا أنهم غالبون، وأوسعوا الطلب فولوا وهم خائبون، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون، أنزله بلسان العرب ليكون حجة عليهم، ونسخ به جميع الكتب فكان إنزاله أشد نازلة لديهم، وجعل أعظم معجزاته، دوام آياته، متلوا بالألسنة، باقياً مع بقاء الأزمنة، محفوظة في الصدور متنقلة في الصحائف والمصاحف من لدن الرسول، محروسة من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان والذهول، قرآناً لا يسأم منه تاليه، مع تكراره وتواليه، ولا يملُّه واعيه، بل تتوفر على توقيره دواعيه، في كل حين تظهر فيه من قضايا التنزيل، وخفايا التأويل، من نتائج أفكار الخلف، غير ما جادت به فطن السلف، كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمة، وكل كلمة تمطر منها سحائب الرضوان والرحمة، وكل آية تحتوي على بحار من الاعجاز زواخر، وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر، لم نجد له في الكتب السالفة نظيراً ولم تمدّ إليه كف معارض منازلاً كان أو مُغيراً، قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، فما رام أحد معارضته إلا عرضت له عوارض العي واللكن، ولا قصد مباراته إلا رمي بهُجْر القول وإن كان من أرباب اللسن، وعوض من كلامه الفصيح باللفظ الركيك والمعنى القبيح، قام إعجازه بتعجيزهم، وتحققوا أنه ليس من تسجيعهم ولا ترجيزهم، وصرفهم الإباء عن ترك دين آبائهم إلى الدنية، وصرفتهم الحمية حمية الجاهلية، عجزوا عن الإتيان بسورة أو آية، وانتهوا من عنادهم في التكذيب به إلى غايه، فأعقبهم

نفاقاً في قلوبهم وجعلهم لمن بعدهم آية، فهو الصراط المستقيم والذكر العظيم والكتاب الحكيم والنور المبين. والحبل المتين. والعروة الوثقى والآية العظمى وكلمات الله والذكرى والدرجة العليا، وهو شفاء الغليل، ودواء العليل، والبرهان والدليل والبشير والنذير والبصائر والمثاني والقصص والتذكرة، والأنباء والآيات المبصرة، والحكم والبلاغ والتبصرة، والبيان والتبيان، والرحمة والبشرى والأمان، والروح والحديث والتنزيل والميزان، وحق اليقين والنبأ العظيم والمحفوظ والكتاب الكريم والقول الفصل والهادي والناطق والحق والغيب والمكنون والقول الثقيل والحسرة والعجب والصحف المطهرة والكتب القيمة والخير والكتاب العزيز والكتاب لا ريب فيه والمحكم والمتشابه والعصمة والامام والأنس عند الوحشة والفزع، والأمن عند الخوف والجزع، والضياء يوم القتر والظلمة والكشف يوم الكرب والغمة، غن حكم به عدَل ومن عدل عنه هوت قدمه فزل ومن استعصم به عُصِمَ ومن استمطر منه الرحمة رحم.

ولما كان جامعاً لهذه المعاني المتفرقة، محتوياً على بدائع المباني المشيدة والفنون المتأنقة، وضروب من المقاصد الخفية والجلية، وأنواع من خفايا أسرار العوالم العلوية والسفلية، أنزله على خير رسول قلبه منبع الحكم وسمعه مقر صريف القلم وعقله قد استوى على سوقه واستتم، ولسانه عن الذلل والخطأ في منعة وعِصَمْ، وبصره وبصيرته عنهما ما اختفى هدي ولا اكتتم، فبلَّغه مِنَ التبليغ مرامه، وبين حلاله وحرامه، وعيّن فيه مراد الله من خلقه وأحكامه، وعرّف فصه ونصه، وأظهر عامّه وما خصه، وأبدى ناسخه ومنسوخه ومحكمه، وفهّم متشابهه ومبهمه، وجلا غوامضه وخفاياه، وأوضح قصصه وقضاياه، وأظهر عن أمثاله التي ليست لها أمثال، وأعلم بخفي إشاراته التي هي أدقّ من السحر الحلال وأرق من العذب الزلال، وأنبأ بكنايته التي هي أجمل من التصريح، وصرح بحقيقته التي تسبق إليها الأذهان من غير تعريض ولا تلويح، وأوجز مجازه الذي بغير تدبر لا تجيزه العقول ولو شاء لجعله هو والحقيقة سيان إلى غير ذلك من العلوم الظاهرة والفنون الباهرة خلا ما تضمنه من العلوم

الباطنة، والمعاني التي هي إلى الآن في كمائمها كامنة، التي لم يُطلع الله عليها من خلقه أحداً، والخفايا التي لم يُظهر عليها إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، فجزاه الله أحسن جزاء عنا، وبلغه أفضل سلام منا وصلى الله عليه وعلى آله ما طلع نجم وبدا، وما اخضَلّ نجم برذاذ ونداً، ورضي الله أن أصحابه ليوث غابه، وغيوث سحابه.

فكتاب الله تعالى أشرف ما صُرفت إليه الهمم، وأعظم ما جال فيه فكر ومد به قلم، لأنه منبع كل علم وحكمة، ومربع كل هدًى ورحمة، وهو أجلّ ما تنسك به المتنسكون، وأقوى ما تمسك به المتمسكون، من استمسك به فقد علقت يده بحبل متين، ومن سلك سبيله فقد سار على طريق قويم، وهدى إلى صراط مستقيم.

وقد أودع الله سبحانه ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة وأنواع الجزالة وفنون البيان، وغوامض اللسان، وحسن الترتيب والتركيب، وعجيب السرد وغريب الأسلوب وعذوبة المساغ، وحسن البلاغ، وبهجة الرونق وطلاوة المنطق، ما أذهل عقول العقلاء، وأخرس ألسنة الفضلاء، وألغى بلاغة البلغاء من العذب، وطاشت به حلومهم، وتلاشت دونه علومهم، وكلت ألسنتهم الذوبة، وأقصرت خطبهم المسهبة، وقصائدهم المغربة، وأراجيزهم المعربة، وأسجاعهم المطربة، فعلموا أن معارضته مما ليس في مقدورهم ولا وُسعهم ولا داخلاً في تقصيدهم ولا سجعهم، وأن ذلك مسلوب ومصروف عن مفردهم وجمعهم، وتركوا الطعن فيه عند تقصيد رماحهم، وأذعنوا للاستماع له والعجز عنه بعد تأبيهم وجماحهم، مع قدحه في أربابهم، وفدحه لألبابهم، وتسفيهه لأحلامهم، وتبطيله لأنصابهم وأزلامهم، فأمسك ذووا الأحلام منهم عن اللغو فيه والاعتداء، وأقبلوا على تدبره فهدى الله به من هدى، ولم يقم على الطعن فيه، وترك التدبر لمعانيه، إلا من غلبت عليه الشقاوة، وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فانتدبوا

لمعارضته ومباراته، ومماثلته ومجاراته، فأوقعه غيّه في عيّه ولكنه، وسقط في سقطات لسانه بعد بلاغته ولسنه، وصار بعد أن كان فارس الفصاحة والبيان، ومالك قصبات السبق في الرهان، ضحك من لفظه من سمعه، ويحط من قدره من رفعه، وذهبتْ من لفظه تلك الجزالة، وأعظم الله من ضروب الجزاء والخذية الجزاء له، كل ذلك ليظهر لنا عظم قدر كلامه العظيم، وأي رونق وبهجة للمُحْدَثِ إذا قُرن بالقديم، فمن جحد منهم إنما فعل ذلك عناداً وحسداً لإبائه أن يقدم عليه أحداً.

روي أن أبا جهل بن هشام هو والأخنس بن قيس والوليد بن المغيرة اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلي به في بيته إلى أن أصبحوا، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا: إنه رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به. فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا. فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة. قلنا: نعم. قالوا: فينا السِّدانة. قلنا: نعم. قالوا: فينا السِّقاية. قلنا: نعم. يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي والله لا آمنت به أبداً.

وروي أن الوليد بن المغيرة سمع من النبي ﷺ **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾** الآية. فقال: والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمعذق وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر.

وقال أيضاً: لما اجتمعت قريش عندحضور الموسم أن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً. فقالوا: نقول كاهن؟ قال: والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته. قالوا: فيقول شاعر. فقال: ما هو شاعر قد عرفنا الشعر كله

رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر ولا نفْثِه ولا عقده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول إنه ساحر وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ الآيات.

وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها، فعلم منها تلوينَ الخطاب ومعدوله وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع ومحاسن الحكم والأمثال، فإذا علم ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان فقد أوتي فيه العجب العجاب والقول الفصل اللباب والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب وتغلق دونها الأبواب فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم وكلّت عن النطق بمثله السنة بلغائهم وبرز في رونق الجمال والجلال في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال، ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الرّوعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع وتميل اليه بالحنين الطباع سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة عالمةً بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أو مؤمنة. . وسنورد في كتابنا هذا أصولاً مؤصلة وفوائد مفصلة من علم البيان وما ورد نظيره في القرآن ما تقف عليه ويعجبك عند النظر اليه.

قال المصنف رضي الله عنه: وهذه الجملة التي تأصلت وتحصلت والفوائد التي بعد إجمالها فصلت نقلتها من كتب ذوي الأتقان علماء علم البيان التي وقفت عليها وترقت همة اطلاعي إليها من كتب المتقدمين والمتأخرين، وهي كتاب البديع لابن المعتز. وكتاب الحالي والعاطل للحاتمي. وكتاب

المحاضرة له. وكتاب الصناعتين للعسكري. وكتاب اللمع للعجمي. وكتاب المثل السائر لابن الأثير. وكتاب الجامع الكبير لابن الأثير أيضاً. وكتاب البديع لأسامة بن منقذ. وكتاب العمدة للزنجاني. وكتاب نظم القرآن له أيضاً. وكتاب نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري. وكتاب التفريع في علم البديع لزكي الدين عبد العظيم بن أبي الأصبع. وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتى مع ما أضفت إليها من فوائد مستعذبة وفرائد حسنة المساق مستغربة نقلتها عن الأمة الأعلام الأكابر ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر وما أضفت إلى ذلك مما تفضل الله به ومنح من مهمل أبنته ومجمل فصلته وشارد قيدته وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ويأتي على نهاية من حسن الوصف وبديع الجمع وإحياء لعلم البيان المطلع على نكت نظم القرآن الذي قد عفت آثاره وقلت أنصاره وتقاعدت الهمم عن تحصيله وضعفت العزائم عن معرفة فروعه فضلاً عن أصوله، فما علم من علوم الإسلامية رمى بالهجر والنسيان ما رمى به علم البيان، ولو أداموا النظر فيه والتلمح لمعانيه لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب، ومن لم يعرف هذا العلم كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بمعزل ولم يقم ببعض حقوق المنزَل والمنزِل ومن وقف على هذه الأصول التي أصلتها والفصول التي فصلتها ظهر له مصداق هذه الدعوى وأخذ من التوصل إلى معرفة هذا العلم بالسبب الأقوى وحسن عنده موقعه وعظم في نفسه محله وموضعه وخالطت قلبه بشاشة رونقه وجليت في عينه نضارة نظائره وحسن مونقه.

وكلام العرب في خطبها وأشعارها ونثرها ونظامها منقسم إلى ثلاثة أقسام ورد منها في الكتاب العزيز قسمان وقسم لم يرد منه فيه شيء وسأبين ذلك إن شاء الله تعالى.

القسم الأول

وهو ينقسم إلى أربعة وثمانين قسماً:

القسم الأول

في الكلام على الفصاحة والبلاغة

والكلام عليهما من وجوه الأول في حدهما. الثاني في اشتقاقهما. الثالث في التفرقة بينهما.

أما الأول في حدهما: فقد قال علماء هذا الشأن إنّ حدّ البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في نفسه مع الاحتراز من الإيجاز المخل والتطويل الممل.. وقال قوم البلاغة اتصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.. وقيل البلاغة الإيجاز مع الافهام والتصرف من غير إضجار.. قال خالد بن صفوان أبلغ الكلام ما قلّت ألفاظه وكثرّت معانيه وخير الكلام ما شوّق أوله إلى سماع آخره.. وقال غيره إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سابق لفظُه معناه إلى قلبك.

وأما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد.

الثاني في اشتقاقهما: قال علماء هذا الشأن إن اشتقاق البلاغة من البلوغ إلى الشيء وهو الوصول إليه. ويجوز عندي أن يكون الكلام البليغ الذي بلغ من جودة الألفاظ وعذوبة المعاني إلى غاية لا يبلغ إلى مثلها إلا مثله.

وأما الفصاحة فقالوا اشتقاقها من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت منه

الرغوة وذهب لباؤه يقال فصح الرجل إذا صار كذلك وأفصحت الشاة إذا فَصُحَ لبنها.

الثالث في الفرق بينهما: قال قوم من أرباب علم البيان الفصاحة والبلاغة متعاقبان على معنى واحد.. وقال قوم البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ. يقال معنًى بليغ ولفظ فصيح. وليست الفصاحة والبلاغة مختصين بالألفاظ العربية وإنما يطلقان عى كل ما لفظه غريب وفهمه قريب. وإذا تقرر هذا فقد احتوى الكتاب العزيز على جمل من ذلك أفرغت في قالب الجمال، وأترعت لها كؤوس الإحسان والإجمال وأتتْ على معظمها وأجلِّها، واستوفت نصاب ملكها، لازمةً علم البيان وأدلّها، وأنا أذكرها نوعاً نوعاً، وقِسماً قسماً، محلًّا ببراهينه وشواهده، سافراً عن نضارة وجوه نظائره وفوائده بعد استيفاء الكلام على الحقيقة والمجاز، إذ الكلام لا يخلو عنهما أو عن أحدهما.

فنبدأ بالكلام على الحقيقة. والكلام فيها من ثلاثة أوجه. الأول اشتقاقها. الثاني حدها. الثالث أقسامها.

أما الأول: فالحقيقة فعيلةٌ بمعنى مفعولة وفي اشتقاقها قولان أحدهما: أنها مشتقة من حقَّق الشيء يحققه إذا أثبته، والآخر أنها من حققت الشيء أحقه ذا كنت منه على يقين.

وأما الثاني: فلها حدان. **الأول** في المفردات. والثاني في الحمل.. فأما حدها في المفردات فهي كل كلمة أريد بها ما وقعت به في وضع واضع وقوعاً لا يُسند فيه إلى غيره كالأسد للحيوان المخصوص المعروف.. **الثاني** حدها في الجمل فهو كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه' مثاله خلق الله العالم وأنشأ العالم ـ فأنشأ ـ واقعة موقع ـ خلق ـ.

وأما الثالث: فأقسامها ثلاثة. حقيقةٌ لغوية. وحقيقة ؛ عية. وحقيقة

عرفية . . وهي على قسمين عامة وخاصة. فالعامة كاستعمال لفظ الدابة في الحمار وخاصة نحو استعمال لفظ الجوهر في المتحيز الذي لا ينقسم.

وأما المجاز: فالكلام عليه أيضاً من خمسة أوجه. الأول في المعنى الذي استعملت العرب المجاز من أجله. الثاني في حدّه. الثالث في اشتقاقه. الرابع في علة النقل. الخامس في أقسامه.

أما الأول: فإن المعنى الذي استعملت العرب المجاز من أجله ميلهم إلى الاتساع في الكلام وكثرة معاني الألفاظ ليكثر الالتذاذ بها، فإن كل معنًى للنفس به لذة ولها إلى فهمه ارتياح وصبوَة وكلما دقَّ المعنى رقَّ مشروبه عندها وراق في الكلام انخراطه ولذ للقلب ارتشافه وعظم به اغتباطه، ولهذا كان المجاز عندهم منهلاً مورداً عذْبَ الارتشاف وسبيلاً مسلوكاً لهم على سلوكه انعكاف، ولذلك كثر في كلامهم حتى صار أكثر استعمالاً من الحقائق وخالط بشاشة قلوبهم حتى أتوا منه بكل معنًى رائق ولفظ فائق، واشتدّ باعهم في إصابة أغراضه فأتوا فيه بالخوارق وزينوا به خطبهم وأشعارهم حتى صارت الحقائق دثارهم، وصار شعارَهْم.

وأما الثاني: فحدّه على قسمين. حدٌّ في المفردات. وحدٌّ في الجمل. . أما حده في المفردات فهو كل كلمة أريد بها غير ما وُضعت له في وضع واضعها. . وقيل حده استعمال اللفظ الحقيقي فيما وضع له دالاً عليه ثانياً لتسويته علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز.

وأما حده في الجمل فهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه بضرب من التأويل.

وأما الثالث: فاشتقاقه من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه وعدل عنه. فاللفظ إذا عدل به عما يوجبه أصل الوضع فهو مجاز على معنى أنهم جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاوز هو مكانه الذي وضع فيه أوّلاً.

وأما الرابع: فالمعنى الذي وقع به النقل شيئان. أحدهما: أن يكون

المنقول عن معنى وضع اللفظ بإزائه أولاً من غير مناسبة ولا علاقة كالاعلام المنقولة وبهذا يتميز عن المشترك. الثاني: أن يكون ذلك النقل لمناسبة بينهما أو علاقة ولأجل ذلك لا توصف به الأعلام المنقولة لأنها مجازات مثلُ تسمية الرجل بالحجر، فإنه ليس هذا النقل لتعلق بين حقيقة الحجر وبين ذلك الشخص. وأما إذا تحقق الشرطان فإنه يسمى مجازاً وذلك مثل تسمية النعمة أو القوة باليد لما بينهما من التعلق، فإن النعمة إنما تعطى باليد والقوة إنما تظهر بكمالها في اليد.

ومن ذلك أيضاً تسمية المزادة بالراوية وهي اسم للبعير الذي يحمل عليه في الأصل ومثل ما بين النبت والغيث والسماء والمطر حيث قالوا رعينا الغيث يريدون النبت الذي الغيث سبب نشوء عادة وقالوا أصابتنا السماء يريدون أصابنا المطر.

وقال قوم: المجاز لا يصح إلا بنسبة مع علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز وتلك النسبة متنوعة فإذا قوي التعلق بين محلي الحقيقة والمجاز فهو الظاهر الواضح، وإذا ضعف التعلق إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظير له في المجاز فهو مجاز التعقيد ولا يحمل عليه شيء في الكتاب والسنة ولا يوجد مثله في كلام فصيح. وقد تقع علاقة بين الضعيفة والقوية فمن العلماء من يتجوز بها لقربها بالنسبة إلى العلاقة الضعيفة ومنهم من لا يتجوز بها لانحطاطها عن العلاقة القوية وهذا مذكور في الكتب المختصة بأصول الفقه.

الخامس: أقسامه وهي كثيرة. الأول مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق وأقسامه كثيرة.. وقد انتهت عدة ما احتوى عليه الكتاب العزيز إلى أربعة وعشرين قسماً.

الأول: التجوز بلفظ العلم عن المعلوم كقوله تعالى: **﴿ولا يُحيطون بشيء من علمه﴾** أراد بشيء من معلومه. وكقوله تعالى: **﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾** أي من المعلوم. وكذلك قوله تعالى: **﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾** أي المعلوم.

الثاني: التجوز بلفظ المعلوم عن العلم وسيأتي بيانه وأمثلته.

الثالث: التجوز بلفظ المقدور عن القدرة مثل قولهم: رأينا قدرة الله أي مقدور الله. ومنه قوله تعالى: **﴿صُنْع الله الذي أتقن كل شيء﴾** أي مصنوعه.

الرابع: التجوز بلفظ الإرادة عن المراد كقوله تعالى: **﴿يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾** والمعنى ويفرقون بين الله ورسله بدليل أنه قوبل بقولهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يقل ويريدون أن يفرقوا بين أحد منهم.

الخامس: التجوز بلفظ المراد عن الإرادة كقوله تعالى: **﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط)** معناه وإن أردت الحكم فاحكم بينهم بالعدل وفيه مجاز من وجهين. أحدهما: التعبير بالحكم عن إرادته. والآخر: التعبير بالماضي عن المستقبل.

السادس: إطلاق اسم الفعل على الجزء الأول منه وعلى الجزء الأخير منه ومثاله قوله تعالى: **﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى﴾** أراد بالرمي المنفي آخر أجزاء الرمي التي وصل التراب به إلى أعينهم، وبالرمي المثبت شروعه في الرمي وأخذه فيه فيكون المعنى: وما أوصلت التراب إلى أعينهم إذ شرعت في الرمي وأخذت فيه. ومنه قوله ﷺ: «صلى بي جبريل عليه السلام الظهر حين زالت الشمس» أي شرع في الصلاة وأخذ فيها «وصلى بي الظهر في اليوم الثاني حين صار ظل الشيء مثله» أراد بذلك آخر أجزاءالصلاة وهو السلام.. وهذا من مجاز التعبير بلفظ الكل عن البعض وكذلك نظائره ويصحح هذا ما بين الإرادة والمراد من النسبة والتعلق، ويجوز أن يكون المصحح كون المراد مسبباً عن الإرادة فيكون تجوزاً باسم المسبب عن السبب بخلاف التعبير بالمعلوم عن العلم فإنه ليس مسبباً عنه ولا مؤثراً فيه.

السابع: التجوز بلفظ الأمل عن المأمول وذلك في قوله تعالى: **﴿والباقيات الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾** أي وخير مأمولاً.

الثامن: التجوز بلفظ الوعد والوعيد عن الموعود من ثواب وعقاب وهو في

القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعداً حَسناً فهو لاقيه﴾ ومثله ﴿إنهُ كان وَعدُهُ مأتِيًّا﴾ أي موعوده.

التاسع: إطلاق العهد والعقد على الملزَم منهما وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود﴾ وقوله تعالى: ﴿وأوْفوا بالعهد﴾ وقوله تعالى: ﴿وأوْفوْا بعهدي﴾ عبّر بهذه العهود كلها عن موجبها ومقتضاها وهو الذي التزم بها.

العاشر: إطلاق اسم البشرى على المبشر به وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿بُشْرَاكم اليوم جناتٌ﴾ وقال أبو علي: التقدير بشراكم اليوم دخولُ جنات أو خلود جنات لأن البشرى مصدر والجنات جرم فلا يخبر بالجرم عن المعنى. وقالَ الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام: لا حاجة إلى هذا التعسف لأن البشرى ليست عين الدخول ولا عين الخلود كما أنها ليست عين الجنات ولا بد من تأويله على كلا القولين بما ذكرناه وإلا كان خلفاً لأن البشرى قول ولا يجوز أن يخبر عن القول بأنه جرم ولا بأنه دخول ولا خلود.

الحادي عشر: إطلاق اسم القول على المقول فيه وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهةٌ كما تقولون﴾ ومنه قوله: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً﴾ أي عن مدلول قولهم. ومنه قوله تعالى: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ معناه وجب عليهم العذاب المقول فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾ أي من مقولهم وهو الأدرة.

الثاني عشر: إطلاق اسم النبأ عن المنبأ عنه وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ وإن أريد به القرآن فهو من باب إطلاق اسم البعض على الكل لأن القرآن كله ليس هو نبأ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنّ نبأه بعدَ حين﴾.

الثالث عشر: إطلاق الاسم على المسمى وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿ما تعبُدون من دونهِ إلا أسماءً سَميتموها﴾ معناه ما تعبدون من

دونه إلا مسميات. ومنه قوله تعالى: ﴿سبّح اسمَ ربك الأعلى﴾ أي سبح ربك الأعلى ولذلك نُقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا قرأوها قالوا سبحان ربي الأعلى. وقال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في سجودكم. ومنه قوله ﷺ: «بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء». ومن جعل الاسم هو المسمى في قوله: ﴿بسم الله الرحمنِ الرحيمِ﴾ كان التقدير فيه أقرأ بالله أي بمعونته وبتوفيقه ومن جعله التسمية كان التقدير أتبرك بذكر اسم الله وبهذا يُرَد على من قدَّر ابتدائي أو بدأتُ باسم الله إذ لا وجه للتبريك على بعض الفعل دون سائره ولا لنسبة ابتداء الفعل إلى التوفيق دون سائره لأن الحاجة داعيةٌ إلى التبرُّك والتوفيق في جميع الفعل دون انتهائه وابتدائه.

الرابع عشر: إطلاق اسم الكلمة على المتكلم به ومنه في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى: ﴿ولا مبدل لكمات الله﴾ أي لا مبدل لعذاب الله أو لا مبدل لمقتضى عذاب الله ومنه قوله تعالى: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمهُ المسيح عيسى ابن مريم﴾ تجوز بالكلمة عن المسيح لكونه تكوَّن بها من غير أب بدليل قوله تعالى: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ ولا تتصفُ الكلمةُ بذلك، وأما قوله اسمهُ المسيح فإنّ الضمير فيه عايدٌ إلى مدلول الكلمة والمرادُ بالاسم المسمى فالمعنى المسمى المبشر به المسيح بن مريم.

الخامس عشر: إطلاق اسم اليمين على المحلوف وهو في القرآن في موضعين أحدهما قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم﴾ أي ولا تجعلوا قسم الله أو يمين الله مانعاً لما تحلفون عليه من البر والتقوى بالصلاح بين الناس[1]..

السادس عشر: إطلاق اسم الحكم على المحكوم به وذلك قوله تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي بما يحكم به لكل واحد منهم من ثواب

(١) سقط من الأصل ذكر الموضع الثاني.

وعقاب فتجوز بالحكم عن متعلقه وهو المحكوم به وكذلك التعبير بلفظ القضاء عن المقضي به في قوله ﷺ: «أعوذ بك من سوء القضاء» أي من سوء ما قضيت به إذ لا تصح الاستعاذة من قضا الله لأنه صفة قديمة له لا يمكن تبديلها ولا تغييرها ومثله «فاصبر لحكم ربك» أي فاصبر لما حكم به عليك وكذلك قول الداعي. اللهم رضني بقضائك أي بما قضيته لي أو عليّ من غير معصية، فإن المعاصي مقضية أيضاً وقد أمرنا الله تعالى بكراهتها فنمتثل أمر الله تعالى في كراهتها وإن وقعت.

السابع عشر: التجوز بلفظ العزم على المعزوم عليه وهو كثير في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ أي إن ذلك الصبر والغفر مما يعزم عليه من الأمور ومنه قوله تعالى: ﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح**﴾ تجوز بالعزم عن المعزوم عليه لتعلقه به ومعناه ولا تعقدوا عقدة النكاح أو يكون التقدير ولا تعزموا على تنجيز عقدة النكاح.

الثامن عشر: التجوز بلفظ الهوى عن المهوى وهو في القرآن العظيم في موضعين أحدهما قوله تعالى: ﴿**ونهي النفس عن الهوى**﴾ معناه ونهي النفس عما تهواه من المعاصي ولا يصح نهيها عن هواها وهو ميلها لأنه تكليف ما لا يطاق، إلا أن تقدر حذف مضاف معناه ونهي النفس عن اتباع الهوى فيكون من مجاز الحذف. ومنه قوله تعالى: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهَهُ هواه**﴾ يحتمل أن يريد به بهواهُ لأنهم كانوا يعبدون الصنمَ فإن استحسنوا غيره عبدوه وتركوا الأول ويحتمل أن يكون المراد به مجاز التشبيه فإن الإنسان إذا طاوع هواه فيما يأتيه ويتركه فقد نزل الهوى منزلة المعبود المطاع.

التاسع عشر: إطلاق اسم الخشية على المخشيّ وهو في القرآن العزيز في قوله تعالى: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾ معناه هم من عقوبة ربهم خائفون.

العشرون: إطلاق اسم الحب على المحبوب وذلك قوله تعالى: ﴿**إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي**﴾ معناه أحببت محبوب الخير عن ذكر ربي.

الحادي والعشرون: إطلاق اسم الظن على المظنون وهو في القرآن العظيم في موضعين. أحدهما قوله تعالى: **﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾** معناه أي شيء مظنونهم أهو الهلاك أو النجاةُ. الثاني قوله تعالى: **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾** معناه ذلك الخلق الباطل مظنون الذين كفروا. وأما قوله تعالى: **﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ﴾** فيجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره اجتنبوا كثيراً من اتباع الظن إن أتباع الظن ذنبٌ ويجوز أن يكون تجوز بالظن عن المظنون وهو أمرُه باجتناب فعل وقع منهم.

الثاني والعشرون: إطلاق اسم اليقين على المتيقن وهو في القرآن العظيم في موضعين. أحدهما قوله تعالى: **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾** معناه واعبد ربك حتى يأتيك الموت المتيقن لكل أحد. ومنه قوله تعالى: **﴿وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾** معناه حتى أتانا الموت المتيقن لكل أحد.

الثالث والعشرون: اطلاق اسم الشهوة على المشتهي وهو في القرآن العظيم في موضعين. أحدهما قوله تعالى: **﴿زين للناس حب الشهوات﴾** أي حب المشتهيات بدليل أنه قال: **﴿من النساء والبنين﴾** الثاني قوله: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾** معناه أن الذين يشتهون الفاحشة في أعراض الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ولذلك أوجب عليهم في الدنيا الحد وفي الآخرة العذاب ولا يتعلق الحد بمجرد حب الإشاعة.

الرابع والعشرون: إطلاق اسم الحاجة على المحتاج إليه وهو في القرآن العظيم كثير فمن ذلك قوله تعالى: **﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾** معناه ما كان دخولهم يدفع عنهم من قضاء الله وقدره شيئاً ولكن طلب حاجة في نفس يعقوب قضاها ويحتمل ولكن حاجة في نفس يعقوب قضى متعلقها لأن الحاجة الحقيقية التي هي الافتقاد لا تقضى وإنما يقضي متعلقها الذي هو المحتاج إليه. ومنه: **﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾** معناه ولا يجدون في قلوبهم تمني

شيء يحتاجون إليه مما أعطيه المهاجرون. . وهذه الأقسام كلها من مجاز التعبير بلفظ المتعلق عن المتعلق به أو من مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق ومصحح المجاز فيه ما بينهما من النسبة.

القسم الثاني

إطلاق اسم السبب على المسبب

وهو أربعة أقسام:

القسم الأول: قوله تعالى: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** سمى عقوبة الاعتداء اعتداء لأنه المسبب عن الاعتداء. ومنه قوله تعالى: **﴿وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها﴾** تجوز بلفظ الجناية عن القصاص فإنه مسبب عنها والتقدير جزاء جناية قبيحة عقوبة قبيحة مثلها في القبح وإن عبرت بالمسيئة عما ساء أي أحزن لم يكن من هذا الباب لأن الإساءة تحزن في الحقيقة كالجناية ومنه قوله تعالى: **﴿ومكروا ومكر الله﴾** تجوز بلفظ المكر عن عقوبته لأنه سبب لها. . ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقياً لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم خفية وهذا متحقق من الله تعالى لاستدراجه إياهم بما أجرى عليهم من نعمه مع ما أعد لهم من نقمه.

الثاني: إطلاق إسم الكتابة على الحفظ فإن الكتابة سبب لحفظ المكتوب وهو في القرآن العظيم في موضعين. أحدهما قوله تعالى: **﴿سنكتبُ مَا قالوا﴾** أي سنحفظه ولا ننساه حتى نجازيهم به. والآخر قوله تعالى: **﴿سنكتبُ ما قالوا وقتلهمُ الأنبياء﴾** أي نحفظه عليهم فإن الملائكة قد كتبوا ذلك لما قالوا وقتلوا الأنبياء فاستعمل اللفظ المستقبل في حفظه دون كتابته.

وأما قوله تعالى: **﴿أولئك كتبَ في قلوبهمُ الإيمانَ﴾** فإنه تجوّز بالكتابة عن الثبوت والدوام فإن الكتابة مستمرّة باقية في العادة.

وأما قوله تعالى: **﴿إنّ المنافقين يُخادعون الله وهو خادِعهم﴾** ففيه

مذهبان. أحدهما: أنه من مجاز الحذف تقديره إن المنافقين يخادعون رسول الله والله خادعهم فيكون خداعهم رسول الله ﷺ حقيقياً. وأما خدع الله إياهم فيجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ويجوز أن يكون من مجاز التشبيه معناه أنه عاملهم معاملة المخادع بما أخفاه عنهم من إرادة إضرارهم وإهلاكهم ويجوز أن يكون حقيقة بما ذكرناه في المكر ويتأتى أن يكون مخادعتهم لله من مجاز التشبيه بمعنى أنهم يعاملونه معاملة المخادع ويكون خدعهم من مجاز المعاملة ويجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب فيكون من مجاز المجاز فإن مخادعتهم مجازية تجوّز بها عن شبهها وكان إطلاق اللفظ من مجاز التشبيه.

الثالث: إطلاق اسم السمع على القبول وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**ما كانوا يستطيعون السمعَ**﴾ معناه ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به لأن قبول الشيء مرتب على استماعه ومسبب عنه ويجوز أن يكون نفي السمع لانتفاء فائدته فيصير كقولهم أنهم لا إيمان لهم أي لا وفاء إيمان لهم.. ومنه قول الشاعر:

وإن حَلَفتْ لا ينقضُ النأي عهدَها فليس لمخضوبِ البَنانِ يمين

معناه ليس لمخضوب البنان وفاء يمين.

الرابع: إطلاق اسم الإيمان على ما نشأ عنه من الطاعة وهو في القرآن كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وما كان اللهُ لِيضيعَ إيمانَكم**﴾معناه ما كان الله ليضيع أجر صلاتكم إلى الصخرة قبل النسخ. ومنه قوله تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعضِ الكتابِ وتكفُرون ببعضٍ**﴾ معناه أفتعملون ببعض التوراة وهو فداء الأسارى فتجوّز بالإيمان عن العمل بما يوافق الكتاب لأنه مسبب عن الإيمان وتتركون العمل ببعض وهو قتل إخوانكم وإخراجهم من ديارهم. ومنه قوله ﷺ الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شُعبةً أعلاها قولُ لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق. جعل القول وإماطة الأذى عن الطريق إيماناً لأنهما مسببان عن الإيمان.

القسم الثالث

إطلاق اسم المسبب على السبب

وهو ثمانية أقسام:

القسم الأول: إطلاق اسم العقوبة على الإساءة والجناية. ومنه قوله تعالى:

﴿وإن عاقبتمْ فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقبتم به﴾ معناه وإن أردتم معاقبة مسيء فعاقبوه بمثل ما بدأكم به من الإساءة فقوله **﴿وإن عاقبتم﴾** من مجاز التعبير بلفظ الفعل عن إرادته وقوله ـ بمثل ما عوقبتم به ـ من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن السبب وقوله ـ فعاقبوا ـ حقيقةٌ اكتنفها المجازان. وكذلك قوله: **﴿ذلك ومَن عاقَبَ بمثلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغي عليه لينصُرنَهُ اللهُ﴾** فعاقب حقيقةٌ وعوقب به من مجاز تسمية السبب باسم المسبب. ومن هذا النوع قول العرب كما تَدين تُدانُ معناه كما تفعل تجزى لأن الدين هو الجزاء فتجوّز به عن الجناية لأنه مسببٌ عنها. . وكذلك قول الشاعر:

ولم يَبْقَ سِوى العُدْوَا ... نِ دِنّاهم كما دانوا

معناه جزيناهم بما فعلوا فدناهم حقيقةٌ ودانوا مجاز.

القسم الثاني: إطلاق الأكل على الأخذ لما كان الأكل مسبباً عن الأخذ. ومنه قوله تعالى: **﴿ولا تأكلوا أموالَكم بينَكم بالباطل﴾** معناه لا تأخذوا أموالكم بالسبب الباطل كالقمار ونحوه.

القسم الثالث: إطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التي هي مسبّب عنها. ومنه قوله تعالى: **﴿إن يكنْ منكم عشرون صابرون يَغلِبوا مِائتينِ﴾** عبر بلفظ الغلبة عن المقاتَلة لأن الغلبة مسببة عن المقاتلة.

الرابع: إطلاق اسم الرجز على عبادة الأصنام. ومنه قوله تعالى:

﴿والرِّجْزَ فاهجُر﴾ تجوّز بالرجز وهو العذاب الشديد عن عبادة الأصنام لأن العذاب مسبب عنها.

وأما قوله تعالى: ﴿ويُذْهبَ عنكم رِجزَ الشيطانِ﴾ فهو من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن سبب سببه لأن وساوس الشيطان سبب لمعصية الرحمن ومعصية الرحمن سبب لعذاب الديان فبان أن الوسوسة سبب للمعصية والمعصية سبب للعذاب، ويجوز أن تجعل الوسوسة نفسها رجزاً لمشقتها على أهل الإيمان وكلما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز. قال أبو عبيد: الرجز والرجس هما العذاب الشديد. وكذلك ما أشبهه.

الخامس: إطلاق اسم المغفرة على التوبة. ومنه قوله تعالى: ﴿واللهُ يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنِه﴾ تجوز باسم المغفرة عن التوبة.

السادس: إطلاق اسم الكبرياء على المُلك لأنها مسببةٌ عن الملك. ومنه قوله تعالى: ﴿وتكونَ لكما الكبرياءُ في الأرض﴾.

السابع: إطلاق اسم القوة على السلاح لأن القوّة على القتال تكون عنها. ومنه قوله تعالى: ﴿وأَعِدّوا لهمْ ما استطعتم مِن قوّةٍ﴾ لأن القوة على قتالهم مسببة عن الأسلحة فسماها باسم مسببها أو يكون ذلك من مجاز الحذف تقديره وأعدوا لهم ما استطعتم من أسباب قوة أو من أدوات قوة.

الثامن: إطلاق اسم الاعطاء والإيتاء على الالتزام فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا جُناحَ عليكمْ إذا سَلّمتُمْ ما آتيتمْ بالمعروف﴾ معناه إذا سلمتم ما التزمتموه بالمعروف لمّا كان التسليم مسبباً عن الالتزام عُبر به عنه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا جُناحَ عليكم أنْ تَنكِحوهنّ إذا آتيتُموهنّ أجورَهنّ﴾ أي إذا الزمتم لهن مهورهن.. ويحتمل أن يكون من مجاز الحذف تقديره إذا آتيتم أهلهن مهورهن ولا يدلّ قوله فانكحوهن بإذن أهلهن على صحة النكاح بغير وليّ لأنه لم يذكر المأذون له ويجوز أن يكون المراد الوكيل ويجوز ويحتمل أن تكون المرأة وحمله على الوكيل أولى لأن الغالب في الأنكحة أنه يتولى ذلك الرجال دون النساء

فيجب الحمل على الغالب لأن مباشرة المرأة النكاح في غاية الندور فلا يجوز حمل الكلام عليه إذ لا يوجد لمثل هذا نظير في كلام العرب من أنهم أرادوا بيان شيء والإرشاد إلى مصلحة فيبينوا أحواله مع الاستغناء عنه ويهملوا الأغلب مع مسيس الحاجة إليه.

القسم الرابع

إطلاق اسم الفعل على غير فاعله لمّا كان سبباً له

وهو أربعة أقسام:

الأول: نسبة الفعل إلى من كان سبباً له. من ذلك قوله تعالى: ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ وهو من عند الله على الحقيقة ولكنه نسب ما أصابهم من قتل أخوتهم إلى سببه. ومنه قوله تعالى: ﴿**فلأنفسهمْ يَمْهَدُون**﴾ والماهد هو الله على الحقيقة ولكنه نسب إليهم تمهيد المرقد لتسببهم إليه بالعمل الصالح.

الثاني: إطلاق نسبة الفعل على سبب سببه وهو في القرآن كثير. ومنه قوله تعالى: ﴿**ربّنا مَن قدَّم لنا هذا فزدْهُ عذاباً ضِعفاً في النار**﴾ نسبوا صُلّي النار إلى سبب سببه لأن الكبراء أمروهم وهم امتثلوه والمقدّم على الحقيقة هو الله تعالى وسبب كفرهم أمر رؤسائهم إياهم بالكفر. ومنه: ﴿**فأخرَجَهما مما كانا فيه**﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿**كما أخرَجَ أبويكم منَ الجنة**﴾ ومنه: ﴿**فلا يُخرِجنّكما منَ الجنةِ فتشقَى**﴾ المخرج والنازع على الحقيقة هو الله تعالى.

الثالث: نسبة الفعل إلى الآمر به وهو في القرآن كثير. منه قوله تعالى: ﴿**والسارق والسارقةُ فاقطَعوا أيدِيهما**﴾ ومنه: ﴿**الزانيةُ والزاني فاجلُدوا كلَّ واحدٍ منهما**﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿**فاجلدوهم ثمانين جَلدَةً**﴾ فإن كان هذا أمراً للوُلاة فهو أمرٌ بالأمر بإقامة الحدود وإن كان أمراً لمستوفى الحقوق أو مباشرها فهو حقيقة.

فأما قوله رَجمَ رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية. وقوله: لو أن فاطمة بنت

محمد سرَقتْ لقطعتُ يدها. فكل ذلك من باب نسبة الفعل إلى الآمر به. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ونادَى فِرْعونُ في قومه﴾ أي أمر من ينادي في قومه.

الرابع: نسبة الفعل إلى الآذن فيه وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**وأخذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ الآخذ على الحقيقة سو الوليّ والمرأة الآذنة فيه وهذا أخذ مجازى ونسبته إليهن مجازية أيضاً كما ذكرناه.. وقد اختلف في الميثاق فقيل إنه العقد وقيل أنه قول الوليّ زوّجتك على ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. ومنه قوله تعالى: ﴿**فلا تعضُلوهنَّ أن يَنكِحنَ أزواجَهنَّ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فإنْ طلَّقَها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكحَ زوْجاً غيرَهُ**﴾ نسب النكاح إليهن لأذنهن فيه وهذا على قول من قال أن المرأة العاقلة البالغة الثيب لا تنكح نفسها. وأما على قول من قال أنها تنكح نفسها فهو حقيقة فيهن مجاز فيما سواهن.

القسم الخامس

الأخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم وفي خطابهم بما يتعلق ببعضهم

وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**ثم اتخذتُم العجلَ من بعده وأنتم ظالمون**﴾ معناه ثم اتخذ العجل بعض أسلافكم فإن جميع الخلف والسلف لم يتخذوا العجل إلهاً وإنما وجد من بعضهم فصار هذا كقول امرىء القيس:

فإنْ تقتلونا نُقتّلكمُ وإنْ   تقصدُوا لِدمٍ نقصدِ

معناه فإن قتلتم بعضنا نقتّلكم إذ لا يتصوّر أن يقتلوهم بعد استيعاب جميعهم بالقتل وهذا الباب كله من مجاز الحذف وله قاعدة يتفرع عليها وهي إن كان البعض واحداً كان التقدير وإذ فعل أحدكم. ومثاله قوله تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفساً**﴾ وإن كان البعض أكثر من واحد كان التقدير وإذ فعل بعضكم. ومثاله قوله

تعالى: ﴿وإذْ قلتمْ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى اللهَ جَهرَةً﴾ وكـان القائلون لذلك سبعين ومن زعم أنه نسب الفعل إليهم لأنهم رضوا به لا يستقيم قوله لأنا نعلم أنهم لم يتفقوا على الرضى في قتل النفس ولا باتخاذ العجل ولا بقولهم - لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة - ولا بقولهم ﴿لن نصبرَ على طعامٍ واحـد﴾ وأيضاً فإن نسبة الفعل إلى الراضي به مجاز وإلى فاعله حقيقة فإذا حمل - على - عليهما كان حملاً على حقيقة غالبة ومجاز مغلوب وذلك لا يجوز.

القسم السادس

إطلاق اسم البعض على الكل

وهو سبعة عشر قسماً:

الأول: التعبير بالقيام عن الصلاة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قمِ الليلَ إلا قليلاً﴾ أي صلّ الليل إلا قليلاً. وقوله تعالى: ﴿لا تقُمْ فيه أبداً﴾ أي لا تصلّ فيه أبداً.

الثاني: التعبير بالركوع عن الصلاة وهو في قولـه تعالى: ﴿واركعي مـع الـراكعين﴾ أي صلي مع المصلين. وقـولـه تعـالى: ﴿وإذا قيـلَ لهمُ اركعـوا لا يَرْكَعون﴾ أي وإذا قيل لهم صلوا لا يصلون.

الثـالـث: التعبير عنهـا بالسجـود. وذلك في قـوله تعـالى: ﴿ومن الليـل فـاسجد لـه﴾ أي فصلّ لـه. ومنه قـوله تعـالى: ﴿فإذا سَجـدُوا فليكـونـوا مِن وَرائكم﴾ أي فإذا صلوا فليكونوا من ورائكم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَتلون آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وهمْ يسجدون﴾ أي وهم يصلون لأن التلاوة منهيٌّ عنها في السجود الحقيقي فلا يصح المدح فيما نهى عنه.

الرابع: التعبير عنها بالقراءة في قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ وفي قوله: ﴿فاقرَأوا ما تيسرَ من القرآن﴾.

الخامس: التعبير عنها بالتسبيح في قولـه: ﴿**وسبِّحْهُ ليـلاً طويـلاً**﴾ وفي قوله: ﴿**وسبِّحْ بحمد ربِّـكَ قبلَ طُلوعِ الشمسِ وقبـلَ الغرُوب**﴾ وفي قـوله: ﴿**وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلًا**﴾ وأمثاله في القرآن كثير.

السادس: التعبير عنها بالذكر في قوله: ﴿**واذكُرِ اسمَ ربك بُكرَةً وأصيلاً**﴾ وفي قوله: ﴿**فإذا أمِنتمْ فاذْكرُوا اللهَ كما علّمكمْ ما لم تكونوا تعلمون**﴾ معناه فإذا أمنتم فصلوا لله.

السابع: التعبير عنها بـالاستغفار في قـوله: ﴿**وهم يستغفـرون**﴾ وحمله بعضهم على الحقيقة.

الثامن: التعبير بـالذقن عن الـوجه في قـوله تعـالى: ﴿**يخرُّون لـلأذقان سُجداً**﴾ وفي قوله: ﴿**يخرُّون للأذقانِ يبكون**﴾ أي للوجوه.

التـاسع: التعبيـر بالأنف عن الـوجـه في قـولـه تعـالى: ﴿**سَنسِمُـهُ على الخرْطوم**﴾.

العاشر: التعبير بالرقبة عن الجملة في قوله تعالى: ﴿**فتحريرُ رقَبةٍ**﴾ وفي قوله: ﴿**وفي الرّقابِ**﴾ وفي قـوله: ﴿**فـظلَّتْ أعناقهم لهـا خاضعين**﴾ فـإن هذه الأفعال لا تختصّ بالرقاب بل تعمْ الأجساد وكذلك ما أشبهه.

الحادي عشر: التعبير باليدين عن الجملة وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**ذلك بما قدَّمت يَداك**﴾.

الثاني عشر: التعبير باليمين عن الجملة. ومنه قوله تعالى: ﴿**لأخذنا منـه باليمين**﴾.

الثالث عشر: التعبير بالعضد عن الجملة في قوله تعالى: ﴿**سنشُدُّ عضُدَك بأخيك**﴾.

الـرابع عشـر: التعبير بـالأصـابـع عن الكف والأرجـل كقـولـه تعـالى: ﴿**فاضربوا منهم فوقَ الأعناقِ واضربوا منهم كلَّ بَنان**﴾.

الخامس عشر: التعبير بالوجه عن الجسد. ومنه قوله عز وجل: ﴿**وُجوهٌ يوْمئذٍ ناضِرَةٌ إلى ربها ناظرة**﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿**وُجوهٌ يوْمئذٍ عاملةٌ ناصبةٌ تَصلى ناراً حاميةً**﴾ عبر بالوجوه عن الأجساد لأن العمل والنصب صفتان للأجساد.

السادس عشر: التعبير بالمسجد الحرام عن الحرم كله في قوله تعالى: ﴿**إنما المشركون نجسٌ**﴾ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره فلا يقربوا حرم المسجد الحرام.

السابع عشر: التعبير بمكة عن الحرم كله في قوله عليه الصلاة والسلام أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض لا يُنفَّرُ صيدها ولا يعضد شجرها. ومعلوم أن البلد نفسه لا صيد فيه مباح ولا شجر أيضاً.

وأما قوله تعالى: ﴿**ثم محلها**﴾ فإنه تجوَّز بالبيت العتيق عن الحرم كله إذ لا يجوز النحر فيما اتصل بالبيت من المسجد المحيط. ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره ثم محلها إلى حرم البيت العتيق.

القسم السابع

إطلاق اسم الكل على البعض

وهو أحد عشر قسماً:

الأول: قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيتهم تعبجك أجسامهم**﴾ ومعلومٌ أنه لم ير جملتهم وإنما دائر وجوههم وما يبدأ منهم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**فاجلدوهم ثمانين جلدةً**﴾.

الثالث: قوله تعالى: ﴿**فامسحوا برؤسكم**﴾ على قول من قال استيعاب مسح الرأس ليس بواجب.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾ وإنما جعلوا بعض أناملهم.

الخامس: قوله تعالى: ﴿**ادخلوا مِصر**﴾ ومعلومٌ أنهم لم يستوعبوها.

السادس: قولهم: ﴿**خرجت من المسجد**﴾ ومثله في القرآن كثيرٌ.

السابع: وصف البعض بوصف الكل وهو في قوله تعالى: ﴿**يعلم خائنة الأعين**﴾.

الثامن: قوله تعالى: ﴿**لنسْفَعَنْ بالنّاصية ناصية كاذبة خاطئة**﴾ الخطأ صفة للكل فوصفت به الناصية.

وأما قوله ـ كاذبة ـ فالكاذب على الحقيقة هو اللسان ونسبة الكذب إلى الانسان من مجاز وصفه بصفة بعضه وتجوز عن هذا المجاز بأن وصفت به الناصية فيكون مجازاً عن مجاز.

التاسع: نسبة الظن إلى الوجوه في قوله تعالى: ﴿**تظن أن يُفعل بها فاقرةً**﴾ فإن الظن وصفٌ للقلوب على الحقيقة ويضاف إلى الأجساد على التجوز فيكون مجازاً عن مجاز.

العاشر: وصف الوجوه بالخشوع فإن محل الخشوع القلوب ثم توصف به الجملة ثم توصف الوجوه بصفة الجملة.

الحادي عشر: وصفها بالرضى في قوله تعالى: ﴿**لسعيها راضيةٌ**﴾ وصف لها بصفة القلوب وهذا كله من مجاز القلوب.

القسم الثامن

في التجوز بوصف الكل بصفة البعض

وهو أربعة أقسام:

الأول: من ذلك قوله تعالى: ﴿**إنا منكم وجِلُون**﴾ والوجل الخوف ومحله

القلب ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿لو أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ والرعب أنما يملأ القلوب فنسب إلى الأجساد ووصف القلوب بالامتلاء مجازٌ أيضاً.

الثالث: قولك زيدٌ عالم وجاهلٌ وراغبٌ وخائفٌ وآمنٌ ومتفكرٌ وشاكٌ ومتذكرٌ وعاقلٌ ولينٌ وقاس وقانعٌ فهذه كلها من أوصاف القلوب وقد وصفت بها الجملة.

الرابع: قوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون بشيراً ونذيراً﴾ وصف القرآن بالبشارة والنذارة وكلاهما بعض من أبعاضه لاشتماله على الأمر والنهي والحدود والحلال والحرام وسائر الأحكام ونسبة البشارة والنذارة اليه مجازيةٌ أيضاً.

القسم التاسع
إطلاق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه

وهو قسمان.

الأول: قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف﴾ معناه وإذا طلقتم النساء فقاربن انقضاء عدَدهن وشارفنه فأمسكوهن بمعروف.

الثاني: قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ معناهُ والذين يقاربون الوفاة وتركَ الأزواج ويشارفونها. وكذلك ما أشبهه.

* * *

القسم العاشر

إطلاق اسم الشيء على ما كان عليه

وهو قسمان.

الأول: من ذلك قوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ معناه الذين كانوا يتامى إذ لا يُتمَ بعد البلوغ.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ولا تعضُلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ معناه الذين كانوا أزواجهن لأنها نزلت في معقِل بن يسار وأخته لما حلف أنه لا يزوجها من زوجها عبد الله بن رواحة.

* * *

القسم الحادي عشر

إطلاق اسم الشيء بما يؤول إليه

وهو قسمان.

الأول: من ذلك قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ أي فيمن يقتل من القتلى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ أي أعصر عنباً.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾.

القسم الثاني عشر

إطلاق اسم المتوهم على المحقق

وهو خمسة أقسام.

الأول: من ذلك قوله تعالى: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ أي في ظنكم حسبانكم.

والثاني: قوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ أي في ظن الناظر إليهم وحسبانه.

الثالث: قوله تعالى: ﴿**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم**﴾ ولم يصر كالعرجون القديم إلا في الحسبان والظن ورأي العين.. وكذلك تقديره منازل إنما هي منازل من رأي العين فإن القمر في الفلك الأول والمنازل في الفلك الثامن ولا يتصور نزوله في شيء منها وإنما يقع ذلك في نظر الناظرين وحسبان الظانين.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾ أي يسبحون في رأي العين فإن الناظر إلى الفلك يعتقده ساكناً والكواكب جارية فيه وليس كذلك.

الخامس: قوله تعالى: ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ أي كان قاب قوسين أو أدنى في ظن رائيه وحسبانه.

* * *

القسم الثالث عشر
إطلاق اسم الشيء على الشيء الذي يظنه المعتقد والأمر على خلافه

وهو ستة أقسام.

الأول: من ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً**﴾ ذكر ذلك بالنسبة إلى ظنهم وزعمهم إذ ليس له ضدٌ ولا ندٌ.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**أين شركائي**﴾ وليس هذا إثباتاً للشركاء بل هو يتنزل على قول الخصم معناه أين شركائي بزعمكم وقوله ﷺ حكاية عن ربه: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته لشريكي» معناه تركته لشريكي بزعمه.

الثالث: قوله تعالى: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ لم يقرّ فرعون برسالة موسى عليه السلام بل المعنى بزعمه أنه رسول.

الرابع: قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذّكرُ إنك لمجنون﴾ ليس هذا إقراراً بتنزيل الذكر وإنما المعنى يا أيها الذي نزل عليه الذكر بزعمه.

الخامسُ: قوله تعالى[1]:

* * *

القسم الرابع عشر
التضمين وهو أن يُضمن أنها معنى اسمٍ لإفادة معنى الاسمين فتعديه تعديته في بعض المواطن

وهو أربعة أقسام.

الأول: قوله تعالى: ﴿حقيقٌ عليّ أنْ لا أقولَ على اللهِ إلا الحقّ﴾ ضُمن حقيقاً معنى حريصٍ ليفيد أنه محقوق يقول الحق وحريص عليه.

الثاني: من التضمين أيضاً أن تُضمن فعلاً معنى فعلٍ آخر لإفادة معنى الفعلين وتعدّيه أيضاً تعديته في بعض المواطن وهو في القرآن كثير. منه قوله تعالى: ﴿لا تُشرِكْ بي شيئاً﴾ ضمن لا تشرك معنى لا تعدل ـ والعدل ـ التسوية أي لا تسوي بالله شيئاً في العبادة والمحبة فإنهم عبدوا الأصنام كعبادة الله وحبُّوها كحب الله ولذلك قال الذين في النار ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبينٍ إذْ نُسوّيكم بربِّ العالمين﴾ وما سوَّوْهم به إلا في العبادة والمحبة دون أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال.

الثالث: قوله عز وجل: ﴿إن كادَتْ لَتُبدِي به لولا أن رَبَطْنا على قلبها﴾

---

(١) سقط من الأصل ذكر الآية والقسم السادس.

ضمن لتبدي به معنى لتخبر به أو لتعلم ليفيد الاظهار معنى الاخبار لأن الخبر قد يقع سراً غير ظاهر.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**عيناً يَشرَبُ بها عبادُ اللهِ**﴾ ضمن يشرب معنى يروى أو معنى يلتذ ليفيد الشرب والريّ أو الشرب والالتذاذ جميعاً.

القسم الخامس عشر
في مجاز اللزوم

وهو ثمانية تحت كل قسم أقسام قد بيناها فيه.

الأول: التعبير بالاذن عن المشيئة لأن الغالب أن الإذن في الشيء لا يقع إلا بمشيئة الآذن واختياره الملازمة الغالبة مصححة للمجاز. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذن اللهِ**﴾ أي إلا بمشيئة الله.. ويجوز أن يراد في هذا بالاذن أمر التكوين والمعنى وما كان لنفس أن تموت إلا بقول الله موتي. ونظيره: ﴿**فقال لهم اللهُ موتوا ثم أحياهم**﴾ فحذف تقديره قال لهم الله موتوا فماتوا لدلالة قوله ـ ثم أحياهم ـ عليه. ومثله: ﴿**وما كان لِنفسٍ أن تؤمن إلا بإذنِ اللهِ**﴾ ومنه ﴿**وأبرىء الأكْمَهَ والأبْرَصَ وأحيي الموْتى بإذنِ اللهِ**﴾ أي بمشيئة الله أو بأمر التكوين فإن ملازمة المشيئة للأمر غالباً كملازمة مشيئة المريد غالباً.

الثاني: التعبير بالاذن عن التيسير والتهسيل وهو في قوله تعالى: ﴿**واللهُ يدْعو إلى الجنةِ والمغفرَةِ باذنِهِ**﴾ أي بتسهيله وتيسيره إذ لا يحسن أن يقابل دعوته بإذني ولا قمت وقعدت بإذني هذا قول الزمخشري.. ويجوز أن يراد بالاذن ههنا الأمر أي يدعوكم إلى الجنة والمغفرة بأمره.

الثالث: تسمية المسافر بابن السبيل. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾ لملازمته السبيل وهو الطريق كمايلازم الولد أمه. ومنه قيل للطير ابن الماء لملازمته للماء.

الرابع: نفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته للزومها عنه غالباً في مثل قوله تعالى: ﴿**كيف يكونُ للمشركين عهد**﴾ أي وفاء عهد وإتمامُ عهد فنفى العهد لانتفاء ثمرته وهو الوفاء والاتمامُ. ومنه قوله تعالى: ﴿**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم**﴾ نفي الايمان بعد إثباتها لانتفاء ثمرتها وفائدتها وهو البر والوفاء.. ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديرهُ أنهم لا وفاء أيمان لهم.

الخامس: إطلاق اسم الريب على الشك لملازمة الشك القلق والاضطراب فإن حقيقة الريب قلق النفس بدليل قوله: ﴿**نتربص بكم ريبَ المنون**﴾ أي مقلقات الدهور. وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الظبي الحاقف لا يريبه أحد وقوله ﷺ: «أن فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها».. ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمِنَ المنونِ ورَيْبِهَا تَتَوجّعُ

السادس: التعبير بالمسافحة عن الزنا لأن السفح صب المنيّ وهو ملازم للجما غالباً لكنه خص بالزناء إذ لا غرض فيه سوى صبٍّ المني بخلاف النكاح فإن مقصوده الولد والتعاضُدُ والتناصر بالأختان والأصهار والأولاد والأحفاد. ومثالُه قوله تعالى: ﴿**محصنين غير مسافحين**﴾ أي غير مزانين. وقوله تعالى: ﴿**محصنات غير مسافحات**﴾ أي غير مزانيات.

السابع: إطلاق اسم المحل على الحالّ فيه لما بينهمَا من الملازمة الغالبة كالتعبير باليد عن القدرة والاستيلاء وبالعين عن الادراك وبالصدر عن القلب وبالقلب عن العقل وبالأفواه عن الألسن وبالألسن عن اللغات وبالقرية عن قاطنيها وبالساحة عن نازليها وبالنادي والنديّ عن أهلها وبالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان لأنهم كانوا في الغالب يقضون الحاجة في الأماكن المنخفضة تستراً عن الناس.

أما التعبير باليد عن القدرة فهو في القرآن كثير من ذلك. قوله تعالى: ﴿**يا**

أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ وقوله تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ وأما التعبير بالعين عن الادراك فهو في قوله تعالى: ﴿أم لهم أعين يُبصرون بها﴾ أي يبصرون بإدراكها أو بنورها.

وأما التعبير بالصدر عن القلب فهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعال: ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي في قلبك. ومنه قوله تعالى: ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾.

وأما بالقلب عن العقل فهو في القرآن في موضعين. أحدهما قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ والثاني في قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي لهم عقولٌ لا يفقهون بها... ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره لهم قلوبٌ لا يفقهون بعقولها كما في قوله: ﴿ولهم آذانٌ لا يسمعون بها﴾ أي لا يسمعون بأسماعها أو بإدراكها.

وأما التعبير بالأفواه عن الألسن فهو في قوله تعالى: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي بألسنتهم لأن القول إنما يكون باللسان ومنه قوله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾.

وأما التعبير بالألسن عن اللغات فهو في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ أي بلغتك ومنه. قوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي بكلام عربي مبين.

وأما التعبير بالساحة عن نازليها ففي قوله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين﴾ معناه فإذا نزل بهم.

وأما التعبير بالقرية عن قاطنيها ففي قوله تعالى: ﴿واسئل القرية التي كنا فيها﴾.

وأما التعبيربالنادي عن أهله ففي قوله تعالى: ﴿فليدع ناديه﴾

وأما التعبير بالندى عن أهله ففي قوله: ﴿أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً﴾ أي أحسن أهل مجلس.

وأما التعبير بالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان ففي قوله تعالى: ﴿أو جاء أحدكم من الغائط﴾. . ومن مجاز الملازمة وهو التعبير بالارادة عن المقاربة لأن من أراد شيئاً قربت مواقعته إياهُ غالباً وهو في قوله تعالى: ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ أي قارب الانقضاض. ومنه قول الشاعر:

يُريدُا الرّمحُ صَدْرَ أبي رياحٍ ويَرغبُ عنْ دِماءِ بني عَقيْل

ومنه: التعبير بترك الكلام عن الغضب لأن الهجران وترك الكلام يلزمان الغضب غالباً وهو في القرآن العظيم في موضعين. أحدهما قوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم﴾ والآخر قوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة﴾.

ومنه التجوز بالاياس عن العلم لأن الاياس من نقيض المعلوم ملازم للعلم غير منقلب عنه من ذلك قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾.

ومنه التعبير بالدخول عن الوطء لأن الغالب من الرجل إذا دخل بامرأته أنه يطأها ليلة عرسها. ومثاله قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ ومنهُ وصف الزمان بصفة ما يشتمل عليه ويقع فيه وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى: ﴿فذلك يومئذ يومٌ عسيرٌ﴾ وصفه بالعسر والعسرُ صفةٌ للأهوال الواقعة في ذلك اليوم ومنه قوله تعالى: ﴿فيأخذكم عذابُ يوم عظيم﴾ وصف اليوم بالعظم وهو صفةٌ للعذاب الواقع فيه. . وأما قوله تعالى: ﴿فيأخذكم عذاب يوم عقيم﴾ فإنه مجاز تشبيه شبه اليوم في انقطاع خيره بانقطاع ولادة العقيم. ومنه قوله تعالى: ﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ وصفه بكونه عصيباً وهو صفةٌ للشر الذي يقع فيه.

القسم السادس عشر

التجوز بالمجاز عن المجاز

وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر فيتجوز بالمجاز الأول عن الثاني بعلاقة بينه وبين الثاني. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ولكن لا تواعدوهنّ سراً﴾ فإنه مجاز عن مجاز فإن الوطء تجوز عنه بالسر لأنه لا يقع غالباً إلا في السر فلما لازم السر في الغالب سمي سراً وتجوز بالسر عن العقد لأنه سببٌ فيه فالمصحح للمجاز الأول الملازمة والمصحح للمجاز الثاني التعبير باسم المسبب الذي هو السر عن العقد الذي هو سببٌ كما سمى عقد النكاح نكاحاً لكونه سبباً في النكاح وكذلك سمى العقد سراً لأنه سبب في السر الذي هو النكاح فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح فمعنى قوله ـ ولكن لا تواعدوهن سراً ـ لا تواعدوهن عقد نكاح وكذلك قوله: ﴿ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله﴾ قال مجاهدٌ ومن يكفر بلا إله إلا الله فقد حبط عمله فإن حمل قوله على ظاهره كان هذا من مجاز المجاز لأن قول لا إله إلا الله مجاز عن تصديق القلب بمدلول هذا اللفظ والتعبير بلا إله إلا الله عن الوحدانية من مجاز التعبير بالقول عن المقول فيه والأول من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب لأن توحيد اللسان مسبب عن توحيد الجنان.

القسم السابع عشر

التجوز في الأسماء

وهو على سبعة أقسام.

الأول: إطلاق اسم الأسد على الشجاع. **الثاني**: التجوز بالبحر عن الجواد. **الثالث**: إطلاق اسم الفوز والحياة على الايمان والعرفان. **الرابع**: إطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل والضلال. **الخامس**: إطلاق اسم السراج والنور على الهادي. **السادس**: إطلاق اسم الحطب على النميمة بإثارتها

نار الحقد والغضب. **السابع**: إطلاق اسم الانسان على تمثاله وكذلك الحيوان والبلدان وقد تقدم جميع أمثلة ذلك إلا الحطب المعبر به عن النميمة فإنه في قوله تعالى: ﴿**حمالة الحطب**﴾.

القسم الثامن عشر

التجوز في الأفعال

وهو على عشرة أقسام وتحت كل قسم منها أقسام.

الأول: التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهاً له في التحقيق والعرب تفعل ذلك لفائدة وهو أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المضارع الذي لم يوجد بعدُ كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم بياناً لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها. ومنه قوله تعالى: ﴿**ويوم ينفخ في الصور ففزعَ مَنْ في السموات ومَن في الأرض إلا ما شاءَ اللهُ وكلٌّ أتوهُ داخرين**﴾ فإنه إنما قال ـ ففزع ـ بلفظ الماضي بعد قوله ـ يُنفخ ـ وهو مستقبل للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل بكونه مقطوعاً به. ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿**وبَرَزُوا للهِ جميعاً**﴾ فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته فإنه قد كان ووجد. ومثل ذلك قوله عز اسمه: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ فأتى ها هنا بمعنى يأتي وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق إثبات الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه فصار يأتي بمنزلة أتى ومضى. وكذلك قوله تعالى: ﴿**ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارزة وحَشرناهم فلم نُغادِرْ منهمْ أحداً**﴾ فإنه إنما قال ـ وحشرناهم ـ ماضياً بعد ـ نُسيِّر. وترَى ـ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك وهو في القرآن العظيم كثير. قال الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام في كتابه المعروف بالمجاز أكثر ما يكون هذا في الشروط وأجوبتها وقد يجيء في

غيرها. مثاله في غير الشرط قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى بن مريَمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأُميَ إلهين مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ومنه: ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ ومنه ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ ومنه: ﴿ونادوا يا مالك﴾ ومنه: ﴿وقال قرينهُ هذا ما لدَيَّ عتيدٌ﴾ ومنه: ﴿وقالوا الجلودهم﴾. ومنه: ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً﴾. ومنه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ وأمثاله في القرآن كثيرٌ.

وأما مثاله في الشرط فقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ معناه وإن تكونوا في ريب. ومنه: ﴿وإن تبتم فهو خيرٌ لكم﴾ معناه وإن تتوبوا فهو خير لكم. ومنه: ﴿فإن كنت في شك مما نزلنا اليك﴾ معناه فإن تك في شك. ومنه: ﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ معناه إن تكونوا مؤمنين بالله فعليه توكلوا.

وأما في جواب الشرط فقوله تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة﴾. ومنه: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرًا لظلوا من بعده يكفرون﴾ قال الخليل معناه ليظلُّنّ. ومنه: ﴿وإن عدتم عُدنا﴾ معناه وإن تعودوا إلى قتال محمد عدنا إلى نصره والشرط لا يكون إلا مستقبلاً والمرتب على المستقبل مستقبلٌ لا محالة وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل في الحقيقة وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه.

الثاني: التعبير بالمستقبل عن الماضي وهو في القرآن العظيم كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾. ومنه: ﴿فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ معناه وفريقاً قتلتم.. ويجوز أن يكون القول في هاتين الآيتين حكاية حال ماضية مثله في قوله تعالى: ﴿تُريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿وكانوا يصرون على الحِنث العظيم﴾ ومنه: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾ ومنه: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ معناه وإذ قلت وهو في القرآن كثيرٌ.

وإنما قصدت العرب بالأخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل لأن الاخبار بالفعل المضارع إذا أتى به في حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي والفرق بينه وبين القسم الذي قبله هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع إذا كان الفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد والأمور المتعاظمة التي لم تحدث فتجعل عند ذلك فيما قد كان ووجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الماضي فإن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها.

الثالث: التجوز بلفظ الخبر عن الأمر وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى: ﴿**والوالداتُ يرضعنَ أولادهن حولين كاملين**﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهر وعشراً**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾ معناه آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ولذلك أجيب بالجزم في قوله: ﴿**يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ**﴾ ولا يصح أن يكون جواباً للاستفهام في قوله ـ هل أدلكم ـ لأن المغفرة وإدخال الجناتِ لا يترتب على مجرد الدلالة وهذا من مجاز التشبيه شبه الطلب في تأكيده بخبر الصادق الذي لا بد من وقوعه وإذا شبه بالخبر الماضي كان آكدَ وكذلك الدعاء والأمر والنهي بالخبر الماضي إذا أريد تأكيد ما عبر عنها بالخبر المستقبل فإن بالغت في التأكيد تجوزت عنها بالخبر الماضي.

الرابع: التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى: ﴿**لا تثريب عليكم اليومَ يغفر الله لكم**﴾ معناه اللهم أغفر لهم. ومن ذلك قوله ﷺ: «يرحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد». ومن ذلك تشميت العاطس يرحمك الله وفي إجابته يهديكم الله ويصلح بالكم.. المعنى اللهم ارحمه اللهم اهدهم.

الخامس: التجوز بلفظ الخبر عن النهي وهو في القرآن كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى: ﴿**وما تنفقون إلا ابتغاء وجهِ الله**﴾ معناه ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله. ومنه قوله تعالى: ﴿**لا تعبدون إلا الله**﴾ معناه لا تعبدوا إلا الله. ومنه قوله تعالى: ﴿**لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم**﴾ .

السادس: التجوز بلفظ الأمر عن الخبر توكيداً للخبر لأن الأمر للإيجاب فيشبه الخبر به في إيجابه وهو في القرآن في موضعين قوله تعالى: ﴿**قل مَن كانَ في الضلالة فليمددْ له الرحمن مداً**﴾ تقديره قل من كان في الضلالة يمدد له الرحمن مداً أو مد له الرحمن مداً. الثاني: ﴿**اتبعوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم**﴾ .

السابع: التَجَوز بجواب الشرط عن الأمر وهو في القرآن العظيم كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**إن يكن منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين**﴾ معناه عند الجمهور فليغلبوا مائتين. ومنه: ﴿**وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً**﴾ معناه فليغلبوا ألفاً ومنه: ﴿**فإن يكن منك مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين**﴾ معناه فليغلبوا مائتين ﴿**وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين**﴾ معناه فليغلبوا ألفين والمراد به التأكيد لأنه خبر تجوز به عن الطلب.

الثامن: التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادةً بالنهي وإنما المراد بها ما يقاربها أو يلازمها أو تكون مسببة عنه وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وذَرُوْا البَيْعَ**﴾ نهى عن البيع في اللفظ وهو مباحٌ وأراد ما يلزم عنه من ترك الواجب. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلا تموتَنّ إلاّ وأنتُم مُسلمُونَ**﴾ النهي عن الموت نفسه لا يصح لأنه ينافي التكليف لكنه تجوز به عما يقارنه من الكفر فكأنه قال ولا تكفروا عند موتكم. ومنه: ﴿**قولهم لا أرينّك ها هنا**﴾ معناه لا تحضرن فأراك فتجوز برؤيته عن سببها وهو الحضور. ومنه نهيه ﷺ عن البيع على بيع الأخ ليس النهي عن نفس البيع لأنه مجتمعٌ بشرائط الصحة إنما النهي عن أذية الأخ المقترنة بالبيع. ومنه النهي عن الخطبة على خطبة الأخ ليس النهي عن الخطبة نفسها وإنما النهي عما يلزمها من تأذي الخاطب.

التاسع: التجوز بالنهي لمن لا يصح نهيهُ والمراد به من يصح نهيه وهو في لقرآن كثير. فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ النهي في اللفظ لعينين والمراد بذلك ذُو العينين أي لا تنظر إلى غيرهم. ومنه: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ النهي في اللفظ للأموال والأولاد وفي المعنى لذوي الأموال والأولاد. ومنه: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ النهي في اللفظ للتقلب والمرادُ به النهي عن الاغترار بالتقلب. ومنه قوله: ﴿فَلَا تغُرَّنَكُم الحياةُ الدُّنيا﴾ النهي في اللفظ للحياة الدنيا والمراد به نهي المخاطبين عن الاغترار بها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تعجبُك أموالُهم ولا أولادُدهمْ﴾ النهي في اللفظ للأموال والأولاد وفي المعنى نهي المخاطبين عن الاعجاب بهما. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تأخُذْكُمْ بهمَا رأفةٌ في دين الله﴾ النهي للرأفة في اللفظ وللمخاطبين في المغنى. ومنه، قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذينَ ظلموا منكم خاصة﴾ النهي لضمير الفتنة في اللفظ وللمخاطبين في المعنى لا تتعرضنّ لإصابة الفتنة إياكم لسبب تقريرها وترك تكبرها والتقدير واتقُوا تقدير فتنة لا تصيبن عقوبتها أو شؤمها أو وبالها الذين ظلموا منكم خاصة.

العاشر: التجوز بنهي من يصح نهيه والمنهي في الحقيقة غيره وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. منه قوله تعالى: ﴿وَلَا يصدُّنك عن آيات الله﴾ معناه ولا تصدن عن آيات الله بسبب صدهم إياك. ومنه: ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها﴾ معناه فلا تصدن عنها. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ معناه ولا تخفن.

القسم التاسع عشر

التجوز بالحروف بعضها عن بعض

وهو عشرة أقسام.

الأول: - هل - يُتجوز بها عن الأمر والنفي والتقدير وهو في القرآن لعظيم كثير.. أما التجوز بها عن الأمر ففي مواضع. منها قوله تعالى: ﴿فهل

أنتم مسلمون﴾ معناه أسلموا. ومنه قوله تعالى: ﴿فهل أنتم مُنتهون﴾ معناه فانتهوا. . أما التجوز بها في النفي فهو في مواضع. منها قوله تعالى: ﴿فهل ترَى لهم من باقية﴾ وقوله تعالى: ﴿فهل يهلكُ إلا القومُ الفاسقون﴾ معناه فما ترى لهم من باقية فلا يهلك إلا القوم الفاسقون. وقوله تعالى: ﴿هل يَنظُرون إلاّ أن يأتيهمُ الله في ظُلَلٍ من الغَمام﴾ معناه ما ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل ومثل هذا في القرآن كثير. وأما قوله تعالى: ﴿هل من مزيد﴾ فقيل إنه نفي الاستزادة معناه لا مزيد فيّ وقيل إنه طلب لها معناه زدني. . وأما التجوز بها في التقرير فهو في القرآن العظيم في آيتين. إحداهما قوله تعالى: ﴿هل عندَكم من علم فتُخرِجوه لنا﴾ الثانية في قوله تعالى: ﴿ ﴿هل لكم مما مَلَكَتْ أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾.

الثاني: همزة الاستفهام ـ ويتجوّز بها عن النفي وعن الأمر والإيجاب والتقرير والتوبيخ. . أما التجوز بها عن النفي ففي القرآن العظيم منه كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾ معناه لست مكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وقوله تعالى: ﴿أفأنتَ تنقِذُ من في النارِ﴾ معناه لست منقذ من في النار. وقوله تعالى: ﴿أفأنت تُسمِعُ الصمَّ أو تَهدي العُمى﴾ معناه لست مسمع الأصمّ ولا هادي الأعمى ومثله في القرآن كثير. . وأما التجوز بها في الإيجاب هو في القرآن كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أليس اللهُ بكافٍ عبدَهُ﴾ معناه الوعد بكفاية العباد. وقوله: ﴿أليس اللهُ بعزيزٍ ذي انتقامٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحييَ الموتى﴾. . . ومنها قولُ جرير:

ألستُمْ خيرَ من ركبَ المطايا   وأندَى العالمينَ بُطونَ راحِ

وقول الآخر:

ألستُ أرَى النجمَ الذي هو طالعٌ   عليها وهذا للمحبين نافعُ

وأما التجوز بها في التقرير فهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأميَ إلهين من دونِ الله﴾ وقوله تعالى: ﴿أأنتَ

فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ وقوله تعالى: ﴿آلذَّكرَين حرَّمَ أمِ الأنثيينِ﴾.. وأما التجوز بها في التوبيخ فهو في القرآن كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أفغيرَ اللهِ تتقـونَ﴾ وقولـه تعالى؛ ﴿أتقـولـون على اللهِ مـا لا تعلمـون﴾ وقـولـه تعـالى: ﴿أتـأمُرون النـاسَ بالبـرّ وتنسوْن أنفسكم﴾ وقـوله تعـالى: ﴿أفتؤمنـون ببعض الكتاب وتَكفرون ببعض﴾.

الثالث: التجوز ـ بفي ـ وله حقيقة تتحقق في قسمين. أحـدهما احتـواء جرم على جرم كقوله تعالى: ﴿أفأنت تُنقذُ مَن في النار﴾ وقوله يعالى: ﴿وهم في الغرُفاتِ آمِنون﴾ الثاني احتواء جرم على معنى كقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرَضٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقولُ﴾ وكقوله: ﴿إنْ في صدُورِهم إلاّ كِبرٌ ما هم ببالغيه﴾ وأمثاله في القرآن كثير.. وأما التجوز بها فهو أنـواعٌ. الأول أن يجعـل المعنى ظرفـاً لتعلقه بمعنىً آخـر وذلك قـوله تعالى: ﴿وجاهِـدوا بأمـوالكم وأنفسكم في سبيلِ اللهِ﴾ وهـو طاعتـه واجتناب معصيته أو القتال في سبيله ظرفاً لتعلق الجهـاد والجهاد قـائم بالمجـاهد. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لا رَيبَ فيه﴾ ومن ذلك قولـه تعالى: ﴿وإن السـاعةَ لآتيـةٌ لا ريبَ فيها﴾ جعل الساعة والكتاب ظرفين لتعلق الريب لا لنفس الريب فـإن الريب حال في المرتاب. ومنه قوله تعالى: ﴿ويستفتونك في النسـاء﴾ أي في توريثهن جعل التوريث محلاً لتعلق الاستفتاء ثم قال ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ أي في توريثهن فجعل التوريث محلاً لتعلق بيان الفتيا وهو قول المفتي. ومنـه قوله تعالى: ﴿فهدَى اللهُ الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه﴾ جعل الحق محلاً لتعلق الاختلاف والاختلاف قـائم بالمختلفين. ومنـه قولـه تعالى: ﴿فـادَّارَأتم فيها﴾ أي فادّارأتم في قتلها فجعل القتل محلاً لتعلق الدرء. ومنه قوله تعالى: ﴿فذلِكُنّ الذي لُمْتُنّني فيه﴾ جعل حبـه أو مراودتـه ظرفـاً لتعلق لومهن لا لنفس اللوم فإن لومهن قائم بهن.. الثاني التجوز بها عن البـاء التي للسبب وهي في القرآن العظيم كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتم به﴾ أي بسبب ما أخطأتم. ومنه قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ أي بسبب

نصرة سبيل. وكذلك الحب في الله والبغض في الله أي بسبب تعظيم الله وله نظائر كثيرة ولما كان المسبب متعلقاً بالسبب جُعل السبب ظرفاً لتعلق المسبب. الثالث من التجوز به وهو أن يجعل الجرم محلاً لتعلق المعنى وهو في القرآن المجيد كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض**﴾ جعل الأجرام محلاً لتعلق الفكر لا لنفس الفكر فإن الفكر قائم بالمتفكر. ومنه قوله تعالى: ﴿**أوَ لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء**﴾ جعل السموات والأرض والمخلوقات كلها محلاً لتعلق النظر لا لنفس النظر فإن الناظر قائم بالنظر حالٌ فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿**أوَ لم يتفكروا في أنفسهم**﴾ .

الرابع: من التجوز به أن يجعل المعنى محلاً للجرم وهو عكس الأول فتجوز به عن كثرة ما جعل ظرفاً مجازاً لما كان الحاوي أعظم من المحوي شبه به ما توالى أو كثر من المعاني ومنه في القرآن شيء كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿**إنّا لنراكَ في ضلالٍ مبين**﴾ ومنه: ﴿**صُمٌّ بُكمٌ في الظلمات**﴾ أي صم وبكم في الضلالات. ومنه قوله تعالى: ﴿**فهم في رَيبهم يَتَرَدّدُون**﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿**ألا إنهم في مِريةٍ من لقاء ربهم**﴾ وأما قوله تعالى: ﴿**إنّ المتقين في جناتٍ ونعيمٍ. في جنات ونهرَ. في جناتٍ وعُيونٍ وفواكه**﴾ فمن جمع بين الحقيقة والمجاز جعل ـ في ـ بالنسبة إلى الجنان ظرفاً حقيقياً وبالنسبة إلى العيون والنهر والنعيم ظرفاً مجازياً ومن لم يجمع بينهما يقدر أن المتقين في جنات وفي نعيم وفي عيون وفي نهر فيكون في الثانية مجازاً محضاً مشعراً بكثرة النعيم والأنهار والعيون والفواكه ويدع الأولى على حقيقتها ولك أن تجعل الجميع مجازاً على حذف لذات تقديره أن المتقين في لذات جنات ونعيم وفي لذات جنات وعيون وفي لذات جنات ونهر وفي لذات وفواكه أو تقدر أن المتقين في نعيم جنات وعيون وفواكه أو ما أشبهه ولا تقدر مثل هذا في قوله ـ في جنات ونعيم ـ إذ يبقى التقدير وفي نعيم نعيم وهو سمج لا يقدر مثله في كتاب الله. وأما قوله تعالى: ﴿**ألم ترَ أنّ اللهَ يَسجدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ**

والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدّوابُّ﴾ فظاهره عند من جمع بين الحقيقة والمجاز لحكمه فيمن يعقل على السجود المعهود وفيما لا يعقل على الانقياد للقدرة والإرادة. وأما قوله تعالى: **﴿أفي اللهِ شك﴾** فالتقدير فيه أفي وحدانية الله شك فهو من جعل المعنى ظرفاً لتعلق المعنى. وأما قوله تعالى: **﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾** وقوله: **﴿كلَّ يومٍ هو في شأن﴾** فليس الظرف هنا متعلق بجوهر ولا عرض وإنما هذا من مجاز التشبيه عبر بكونه في السموات والأرض عن علمه بما فيهن لأن من حضر مكاناً لم يخف عليه ما فيه وأما قوله ـ كل يوم هو في شأن ـ فهو يشبه: **﴿إنْ أصحابَ الجنةِ اليومَ في شُغل فاكِهون﴾** وكقولهم أنا في شغلك وحاجتك ولا يخفى وجه التشبيه فيه.

الخامس: التجوز ـ بعلى ـ وحقيقتها استعلاء جرم على جرم كقوله تعالى: **﴿وعلى الأعرافِ رجال﴾** ومنه قوله تعالى: **﴿لتستوُوا على ظهوره﴾** وأما مجازها فعلى قسمين. أحدهما التجوز عن الثبوت والاستقرار كقوله تعالى: **﴿أولئك على هدًى من ربهم﴾** وقوله تعالى: **﴿قل إني على بَيِّنةٍ من ربي﴾** وقوله: **﴿وإنا وإيّاكم لَعلى هدىً﴾** ومنه قوله تعالى: **﴿وإنك لَعلى خُلُقٍ عظيم﴾** وهذا أيضاً من مجاز التشبيه شبه التمكن من الهدى والأخلاق العظيمة الشريفة والثبوت عليها لمن علا على دابة يصرّفها كيف شاء.. الثاني أن يجعل المعنى على الجرم تجوزاً كقوله تعالى: **﴿رحمةُ اللهِ وبركاته عليكم أهلَ البيتِ﴾** وكقوله: **﴿أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ﴾** والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة لأن ما علاك وجللك فقد أحاط بك.. وأما قوله تعالى: **﴿وأنزلنا عليكم المنّ والسلوَى﴾** فهو من نزول جرم على جرم ولا بد فيه من حذف تقديره وأنزلنا على أشجاركم أو على محلتكم. وأما قوله تعالى: **﴿فخرَجَ على قومهِ في زينتهِ﴾** معناه فخرج على نادي قومه أو على محل قومه. ومثله قوله تعالى: **﴿اخرُجْ عليهنَّ﴾** فمعناه اخرج على مجلسهن أو مكانهن. ومثله قوله تعالى: **﴿كلما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندَها رزقاً﴾** معناه كلما دخل مكانها أو محرابها.

السادس: ـ عن ـ وهي حقيقة في مجاوزة جرم عن جرم وتعديته عنه ثم يستعمل في المعاني على طريق التشبيه كقوله تعالى: ﴿ومَن أعرَضَ عن ذِكري فإنّ له معيشة ضنكاً﴾ شبه انصراف البصيرة عن تأمل ذكره بانصراف المجاوز عما يجاوزه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فاعرض عنهم﴾ إن حمل على ترك القتال كان المعنى فانصرف عن قالتهم وإن حمل على غيره فمعناه تجاوز عن أذيتهم وفي الحديث تجاوز عما تعلم المعنى ترك المؤاخذة لأن المتجاوز عن الشيء تاركٌ له وكذلك قوله ﷺ إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها.

السابع: حرف ـ من ـ وهي حقيقة في ابتداء غاية الأمكنة ويتجوز بها عن ابتداء الغاية في الأزمنة مثل قوله تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ فاستعملها غاية في الأزمنة لشبهها بالأماكن وكذلك تجوز بها عن التعليل في مثل قوله تعالى: ﴿مِمّا خَطاياهُم أغرقُوا﴾ أي من أجل خطاياهم أغرقوا لأن ابتداء غاية المعلول صادر عن علة فشبه ذلك بأبتداء الغاية بالمكان.

الثامن: حرف ـ ثم ـ ويستعمل حقيقة في تراخي الزمان والمكان ثم يتجوز بها في تراخي بعض الرتب عن بعض بالتباعد المعنوي فشبه التراخي المعنوي بالتراخي الزماني والمكان وهو في القرآن العظيم كثيرٌ. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ فجاء ـ بثم ـ للتراخي الذي بين الإيمان والعمل الصالح فإن الإيمان أفضل من جميع أعمال الانسان فهو متراخ في الفضل عن فك الرقاب وإطعام السغبان فهو مؤخر في اللفظ مقدمٌ في الفضيلة والرتبة على تباعد وتراخ يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ لما سئل أي الأعمال أفضل قال الايمان بالله قال ثم ماذا قال بر الوالدين قال ثم ماذا قال الجهاد في سبيل الله ويدل أن ـ ثمْ ـ ها هنا لتراخي الرتب لا لتراخي الزمان لأن الايمان شرط في اعتبار فك الرقاب وإطعام السغابي فلا يجوز أن يتقدم المشروط على شرط. . ومنه قال الشاعر:

إنّ مَنْ سَادَ ثم سَادَ أبُوهُ

جاء بثم لتراخ بين السؤددين من الفضل. ومنه قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾ على قول بعضهم قال جيء بثم لتفاوت ما بين نعمة التصوير ونعمة السجود لآدم قال فإن إسجاد الملائكة له أكمل إحسان وأتم إنعام من التصوير. وقدر بعضهم ولقد خلقنا طينتك ثم صورناكم في ظهر أبيكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وقال بعضهم نسبة الخلق والتصوير إلينا من مجاز نسبة ما يتعلق بالواحد إلى جماعة. ومثاله قوله عز وجل: ﴿**براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين**﴾ نسب المعاهدةَ إلى الجماعة والمرادُ بها معاهدةُ رسول الله ﷺ. ومثل قوله تعالى: ﴿**ألاّ تقاتلُونَ قوماً نكثوا أيمانهم**﴾ نسب النكث إلى الكل وإنما نكث بعضهم. ومثله قوله تعالى: ﴿**وقالتِ اليهود عزير بن الله و قالتِ النصارى المسيح ابن الله**﴾ ولم تقل اليهود كلها ذلك وكذلك النصارى لأن بعضهم قال ذلك وبعضهم قال هو الله وبعضهم قال هو ثالث ثلاثة وقال بعضهم هو عبد الله ورسوله فنسب إلى الفريقين ما وجد من بعضهم. ومثله قول امرىء القيس:

فإنْ تَقتلونَا نَقتلكُم

وأما من يقولُ إن ـ ثم ـ تستعمل في تراخي بعض الأخبار عن بعض فلا يستقيم في هذه الآية ولا في قول الشاعر:

إنَّ من سادَ ثم سادَ أبوهُ

لأنّا نعلم أن الله تعالى ما راخى بين الأخبار في قوله ـ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ـ وكذلك قول الشاعر ـ إن من سادَ ثم سادَ أبوه ـ يعلم أنه لم يقل ـ إن من ساد ثم ـ وقف زماناً طويلاً متراخياً ثم قال . سادَ أبوه ـ وإن استعمالها في تراخي الأخبار بعيدٌ في استعمال العرب لأن التراخي الموجود في كلامهم إنما يقع في مداولات الألفاظ لا بين أنفس الألفاظ وهذا إنما يصح استعماله في مقالاتٍ للأخبار فيها تعاقبٌ إن ثبت أنه قول من يعتمد على قوله في هذا الشأن.

التاسع: حرف ـ الباء ـ قال سيبويه هي للالصاق والاختلاط والالصاق أضرُب. أحدها حقيقيٌ وهو إلصاق جرم بجرم كقولك ألصقتُ القوس بالغِراء والخشبة بالجدار. والثاني مجاز إلصاق المعنى بجرم كقولك لطفت بزيد ورأفتُ بعمرو فكأنك ألصقت اللطف والرأفة به لتعلقهما به وكقولك مررت بزيد ولا بد فيه من حذف تقديره مررت بمكان زيد أو بمحل زيد وهو من مجازات التشبيه كأنك ألصقت المرور بالمكان. الثالث إلصاق المعنى بالمعنى كقوله تعالى: ﴿أنّ النفسَ بالنفس والعين بالعينِ﴾ أي النفس مقتولة بقتل النفس والعين مفقوءة بفقء العين أتى بالباء ليكون المسبب وهو القصاص منسوباً إلى الجناية نسبة التشبيه وهو جار في جميع الأسباب.

العاشر: حرفان وهما ـ لعل. وعسى ـ وهما مجاز تشبيه أو تسبب وحقيقتهما الترجي والتوقع فالله سبحانه تعالى وتنزه أن يوصف بحقيقتهما بل يصح حملهما على مجاز التشبيه والتسبب. أما مجاز التشبيه فلأن معاملته بالأمر والنهي والوعد والوعيد مشبه بمعاملة ملك عامل عبيده بذلك على رجاء إجابتهم فإن كل من سمع الملك يأمر وينهى ويعد ويوعد يرجو إجابة المأمول وإثابته لا سيما إذا كان ذلك الملك كريماً صدوقاً لا يخلف الميعاد. وأما مجاز التسبب فلأن رجاء الاجابة وما يترتب عليها من الفلاح مسبب عن لين الخطاب وحسن الترغيب والترهيب فكذلك أمر الرب ونهيه مع وعده وإيعاده يوجبان لكل من سمعهما خوفا ورجاء لا يوجد مثلهما في حق غيره. ويحقق ذلك أن الكلام المنفر لا يتوقع منه إجابة ولا إنابة والكلام اللين المرعب يتوقع كل من سمعه الاجابة والانابة فلذلك قيل لموسى وهرون عليهما السلام: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعلهُ يتذكرُ أو يخشى﴾ لما كان القول اللين سبباً للتذكر والخشية أمرهما به لتقوم عليه الحجة فهذا الرجاء المتعلق بكلامه. وأما الرجاء المتعلق بأفعاله فكما في قوله سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بُطونِ أمّهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ لما ذكر هذه النعم الجسام التي لا يتصور وجودها من غيره أردفها بقوله ـ لعلكم تشكرون ـ من جهة أن الشكر

مرجو من المنعم عليه متوقع منه ولا سيما عند هذه النعم لأنه عاملهم بهذه النعم معاملة الراجي كما عاملهم بالفتن معاملة الفاتن فوصفه نفسه بكونه راجياً كوصفه نفسه بكونه فاتناً وكذلك نظائره.

القسم العشرون
الاستعارة

من أقسام المجاز الاستعارة وهي على أربعة أقسام. وقيل على قسمين.

وقيل على سبعة أقسام. وقد بيناها في الوجه الثالث من الكلام عليها

إعلم وفقنا الله وإياك أن اللفظ إذا استعمل فيما وُضع له فهو حقيقة. وإن استعمل في غير ما وضع له فإن لم يكن لمناسبة بينه وبين ما وُضع له فهو الموكَل[1] وإن كان لمناسبة بينهما فإن حسن فيه أدات التشبيه فهو مجاز التشبيه وإن لم يحسن فيه إظهار أدات التشبيه فهو الاستعارة.. وإذا تقرر هذا فالكلام في الاستعارة على وجوه. الأول هل هي من أنواع المجاز أم لا.. الثاني في حدها.. الثالث في أقسامها.. الرابع في اشتقاقها.. الخامس فيما تتهيأ به الاستعارة وما لا تتهيأ.. السادس في الاستغارة التخييلية.. السابع في الاستعارة المجردة.. الثامن في الاستعارة المرشحة.. التاسع في الاستعارة الحسنة.. العاشر في الاستعارة القبيحة.. الحادي عشر في بيان ما يُظن أنه استعارة وليس باستعارة.. الثاني عشر في الاستعارة بالكناية.. الثالث عشر فيما تتنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة.

أما الأول: فقد اختار الإمام فخر الدين رحمه الله أن الاستعارة ليست من المجاز لعدم النقل وجمهور علماء هذا الشأن عدوها من المجاز لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له.

---

(١) كذا في الأصل وكتب بهامشه لعله المنقول ليحرر.

وأما الثاني: فقد اختلفت عبارات علماء هذا الشأن في حدها فقال علي بن عيسى: الاستعارة استعمال العبارة لغير ما وضعت له في أصل اللغة، وقد أبطل الإمام فخر الدين ما قاله ابن عيسى في حد الاستعارة من وجوه أربعة. الأول أنه يلزم أن يكون كل مجاز لغوي استعارة. الثاني يلزم أن تكون الأعلام المنقولة من باب المجاز. الثالث استعمال اللفظ في غير معناه للجهل بذلك. الرابع أنه يتناول الاستعارة التخييلية على ما سيأتي.. وقال قوم: الاستعارة جعل الشيء الشيء أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه. الأول كما تقول لقيتُ أسداً وتعني الشجاع فقد جعلت الشجاع أسداً فهذا جعلُ الشيءِ الشيءَ. والثاني كقول الشاعر:

إذ أصبحتْ بيدِ الشمال زمامها

وسيأتي.. وقال المتقدمون من أرباب هذه الصناعة الاستعارة الاستدلال بالشيء المحسوس على المعنى المعقول. وهذا هو أحد أنواع الاستعارة فإن الاستعارة على أقسام وسيأتي بيانه.. وقال قوم الاستعارة ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح المشبه.. وقال الإمام فخر الدين رحمه الله: الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه. فقوله ـ ذكر الشيء باسم غيره ـ احترازاً عما إذا صرَّح بذكر المشبه كقولك زيد أسد فإنك ما ذكرت زيداً باسم الأسد بل ذكرته باسمه الخاص فلا جرَمَ أن ذلك لم يكن استعارة. وأما قوله ـ وإثبات ما لغيره له ـ ذكره لتدخل فيه الاستعارة التخييلية. وقوله ـ لأجل المبالغة في التشبيه ـ ذكره لتتميز به عن المجاز.

وأما الثالث: فقد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة في أقسامها فقال قوم أقسامها أربعة. الأول أن يكون المستعار والمستعار منه محسوسين. الثاني أن يكونا معقولين. الثالث أن يكون السمتعار معقولاً والمستعار منه محسوساً. الرابع أن يكون على العكس.. أما استعارة المحسوس للمحسوس فهي على

قسمين: أحدهما أن يكون الاشتراك في الذات والاختلاف في الصفات. والثاني أن يكون العكس. فمثال الأول أن يكونا حقيقتان تتفاوت إحداهما في الفضيلة أو النقص والقوة والضعف فينقل اللفظ الموضوع للأكمل في ذلك النوع إلى الأنقص. مثاله استعارة الطيران للعدْو فإنهما يشتركان في الحقيقة وهي الحركة المكانية إلا أن الطيران أسرع من العدْو فلما تساويا في الحقيقة واختلفا في القوة والضعف في السرعة لا جرمَ نقلوا اسم الكامل في السرعة إلى الناقص فيها فسموا العدوَ طيراناً. وقد يقع في هذا الجنس ما يظن أنه مستعار ولا يكون كذلك وذلك إذا كانت جهة الاختلاف خارجة عن مفهوم الاسم كقول بعضهم:

وفي يدكَ السيفُ الذي امتنعتْ به صَفاةُ الهُدَى من أن تدِقّ فتُخرَقا

فالظاهر أن الخرق حقيقة في الثوب مجاز في الصفاة ولكن التحقيق يأباه لأن الشق يستعمل في الخرق فيقال شققت الثوب والشق عيب في الثوب وهذه الملاقاة على وجه الحقيقة فلما قام الشق مقام الخرق وجب ان يقوم الخرق مقام الشق ظاهراً وإلا لو كان للخرق مفهوم سوى مفهوم الشق لكان لفظ الخرق مشتركاً بينهما وهو خلاف الأصل فثبت أن الخرق والشق لفظان مترادفان ولما كان الشق حقيقة في الصفاة كان الخرق المرادف له حقيقة أيضاً فيه. نعم لو قلت خرق الحشمة لم يكن من الحقيقة في شيءٍ لأنه ليس هناك شق فبهذا الطريق عرفنا أن الخرق ليس اسماً للتفرق من حيث أنه لا شق هناك كما تقدم خلاف ما تقدم من حيث أن الشق حاصل في الثوب بل هذه الخصوصيةخارجة عن مفهوم لفظ الخرق ولما كانت لفظة الخصوصية التي بها تتميز تفرق أجزاء الحجر بعضها من بعض عن تفرق أجزاء الثوب غير داخلة في مفهوم الخرق كان استعمال الخرق في الموضعين حقيقة ولو قدرنا دخول تلك الخصوصية في الخرق كان استعماله في الحجر على طريق الاستعارة فهذا هو القانون في هذا الباب بعد أن لا تضايق في المثال هذا كله إذا كان الاشتراك في الحقيقة

والاختلاف في العوارض والصفات. . وأما إذا كان بالعكس وهو أن يكون الاشتراك في الصفات والاختلاف في الحقيقة فمثل قولهم رأيت شمساً ويريدون إنساناً يتهلل وجهه كالشمس فيشاركه في الوصف. . وأما القسم الثاني وهو استعارة اسم شيءٍ معقول لشيءٍ معقول وهذا أيضاً إنما يكون في أمرين يشتركان في وصف عدمي أو ثبوتي وأحدهما بذلك الوصف أولى وفيه أكمل فينزل الناقص منزلة الكامل ثم إن المشتركين إما أن يكونا متعاندين أو لا يكونا كذلك فإن تعاندا فإما أن يكون التعاند بالثبوت أو الانتفاء أو بالتضاد. مثال الأول استعارة اسم المعدوم للموجود أو الموجود للمعدوم. أما الأول فعندما لا يحصل من ذلك الموجود فائدة مطلوبة فيكون ذلك الموجود مشاركاً للمعدوم في عدم الفائدة لكن المعدوم بذلك أولى فيستعار لذلك الموجود اسم المعدوم. وأما الثاني فعندما تكون الآثار المطلوبة من الشيء باقية عند عدم الشيء فيكون عند ذلك المعدوم مشاركاً للموجود بتلك الفوائد لكن الموجود أولى بذلك فيستعار لذلك المعدوم اسم الموجود. وأما إذا كان التعاند بالتضاد حقيقة كان أو ظاهراً فمثاله تشبيه الجهال بالأموات لأن المقصود بالحياة الادراك والعقل فإذا عُدما فقد عُدمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتتنزل الحياة منزلته. ثم الضدان إذا كانا متقابلين الأشدُّ والأضعف ففي أحد الطرفين اسم الأزيَد وفي الطرف الآخر اسم الأنقص. فشرطُ مساوي التشبيه مثلاً كل من كان أقلَّ علماً وأضعف قوّة كان أولى أن يستعار له اسم الميت. ولما كان الإدراك أقدم من الفعل في كونه خاصية للانسان لا جرَم كان الأقل علماً أولى باسم الميت أو الجماد من الأقل قوّة باسم الحياة فالأشرف علماً أولى بذلك لقوله تعالى: ﴿أوَ مَن كان ميّتاً فأحييناه﴾ هذا إذا كانا متقابلين أما إذا لم يكونا كذلك وهو أن يكونا موجودين يشتركان في وصف معقول إلا أن ذلك الوصف لأحدهما أولى فيتنزل الناقص منزلة الكامل مثل قولهم فلان لقي الموت إذا كان لقي شيئاً من الشدائد لأنها مشاركة للموت في الكراهية لكن الموت أولى بها فتتنزل تلك الشدائد منزلة الموت لاشتراكها في

المكـروهية وعلى هـذا قولـه تعالى: ﴿ويـأتيه المـوتُ من كلّ مكـان ومـا هـو بميت﴾.

وأمـا الثالث: فهـو أن يستعار للمعقـول اسم المحسوس وهـو كاستعـارة الحجة للنور الـذي هو محسـوس بالبصـر واستعارة العـدل للقسطاس المـدرك بحاسة العين.

وأما الرابع: فهو استعارة اسم المعقول للمحسوس وهو غير جائز إلا على التأويل الذي نذكره في باب التشبيه إن شاء الله تعالى.

فصـــل

وهذه جملة مما احتوى عليه الكتاب العزيز من أقسام الاستعارة وصنوفها نذكرها مفصلة مبينة على حكم ما تقدم من الأقسام الأربعة إذ الغـرض من هذا الكتاب معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان وأصنـاف البديـع وفنون البلاغة وعيون الفصاحة وأجناس التجنيس.. أما ما جاء في الكتاب العزيز من استعارة المحسوس للمحسوس فآيات كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿واشتَعَلَ الرّأسُ شيباً﴾ إذ المستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع بينهما الانبساط ولكنه في النار يقوى. وفي هذه الآية ثلاث فوائد أخر غير الاستعارة.

الفائدة الأولى: أنه سلك في الآية طريق ما أسنـد فيه الشيءُ إلى الشيءِ وهو لشيءٍ آخر لما بينه وبين الأول من التعلق فيرفع ذكر ما أسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الاسناد إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا.

الفائدة الثانية: بيان ما بينهما من الاتصال كقولهم طاب زيد نفساً وتصبب عرقاً وأشباههما فيمـا تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلـك الشيءُ من سببـه فإنّـا نعلم أن الاشتعال للشيب في المعنى وهـو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس وتصبب للعرق وإن أسند إلى ما أنسد إليه والدليل على أن شرفَ هذه

الآية بسبب ذلك أنّا لو تركنا هذا الطريق وأسندنا الفعل إلى الشيب صريحاً فقلنا اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس لانتفا ذلك الحسن. فإن قلتَ فما السبب في إن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له هذا الفضل. فنقول السبب فيه أن يفيد مع لمعان الشيب في الرأس أنه شمل وشاع وأخذ به من نواحيه وعم بجملته حتى لم يبق من السواد شيء إلا القليل فهذه الفائدة لا تحصل إذا قيل اشتعل الشيب في الناس لا يوجب اللفظ أكثر من ظهور الشيب فيه. بيانه أنك تقول اشتعل النار في البيت فلا يفيد أكثر من إصابتها جانباً. ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿**وفجرنا الأرضَ عُيوناً**﴾ فالتفجير للعيون في المعنى لكنه وقع في اللفظ على الأرض ليفيد أن الأرض بالكلية صارت عيوناً.

الفائدة الثالثة: تعدية الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير الإضافة وهو أحد ما أوجب المزية ولو قيل واشتعل رأس لذهب الحسن.. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**وتركنا بعضهم يموجُ في بعضٍ**﴾ أصل الموج حركة الماء فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة. وقوله عز وجل: ﴿**والصبح إذا تنفس**﴾ للظهور.. وأما استعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلي فكقوله تعالى: ﴿**إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾ المستعار له الريح والمستعار منه المرأة العقيم والجامع بينهما المنع من ظهور النتيجة. ومنه قوله تعالى: ﴿**وآيةٌ لهمُ الليلُ نسلَخُ منه النهار**﴾ المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته والجامع أمر عقلي وهو ترتيب أحدهما على الآخر. ومنه قوله تعالى: ﴿**فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغن بالأمس**﴾ أصل الحصيد للنبات والجامع الهلاك وهو أمر عقلي. وقوله: ﴿**خامدين**﴾ أصل الخمود للنار. ومنه قوله تعالى: ﴿**وإنهُ في أمّ الكتابِ**﴾ وهو أفصح من أن يقال في أصل الكتاب.. وأما استعارة المحسوس للمعقول فكقوله تعالى: ﴿**بلْ نَقْذِفُ بالحقّ على الباطلِ فيَدمَغُهُ**﴾ فالقذف والدمغ مستعاران. ومنه قوله تعالى: ﴿**ضُربتْ عليهم الذلةُ أينما ثُقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**فنبذوه وراءَ ظهورهم**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيتَ**

الذينَ يخوضونَ في آياتِنا فاعرضْ عنهمْ﴾ وكل خوض دمه الله في القرآن فلفظه مستعار من الخوض في الماء. ومنه قوله تعالى: ﴿فاصدَعْ بما تؤمرْ﴾ استعارة لبيانه عما أوحى اليه لظهور ما في الزجاجة عند انصداعها. ومنه قـوله تعـالى: ﴿أفمنْ أسّسَ بنيـانُه﴾ البنيـان مستعـار وأصله للحيـطان. ومنـه قـولـه تعـالى: ﴿ويبغـونها عِـوجاً﴾ العـوج مستعار. ومنـه قولـه تعالى: ﴿لتخـرجَ النـاس من الظلمات إلى النور﴾ وكل ما في القرآن من الظلمات والنور مستعار. ومنه قوله تعالى: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾. ومنه قولـه تعالى: ﴿ألم تـرَ أنهم في كل وادٍ يَهيمونَ﴾ الوادي مستعار وكذلك الهيمانُ وهو على غايـة الإفصاح. ومنـه قولـه تعالى: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ جعل للسموات والأرض قولاً وطاعة. ومنـه قولـه تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقـك﴾ الآية.. وأمـا استعارةُ المعقـول للمعقول فمنه قوله تعالى: ﴿مَن بعثنا مِن مرقدِنا﴾ استعار الـرقاد للمـوت وهما أمران معقولان والجامع عدم ظهور الأفعال. ومنه قوله تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ والسكوت والـزوال أمران معقـولان.. وأما استعـارة المعقول للمحسـوس فمنه قـوله تعـالى: ﴿إنا لمـا طغى الماءُ حَملنـاكم في الجاريـةِ﴾ المستعار منه التكبر والمستعار له الماءُ والجامع الاستعـلاء المضر. ومنـه قولـه تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صَرصرٍ عاتيةٍ﴾ والعتو ها هنا مستعار. ومنه قوله تعالى: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ فلفظ القيظ مستعار. ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهارَ آيتينِ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً﴾ وهـو أفصح من مضيئة. ومنه قوله تعـالى: ﴿حتى تضعَ الحـربُ أوزارها﴾ هـذا الذي اختـاره الإمام فخر الدين ومن قبله من المحققين.. وقال قوم الاستعارة على قسمين. الأول أن يعتمد نفس التشبيه وهـو أن يشترك شيئـان في وصف واحد أحـدهما أنقص من الآخر فيعطي الناقص اسم مبالغة في تحقيق ذلك الوصف له كقولك رأيت أسداً وأنت تعني رجلاً شجاعاً وعنّت لنا ظبيـة وأنت تعني امرأة وتجيءُ الأقسام الأربعة وقد تقدمت. الثـاني أن تعتمد لـوازمه وهـو عندمـا تكون جهـة الاشتراك وصفاً إنما يثبت بكماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر فيثبت ذلك

الشيء في المستعار له مبالغة في إثبات المشترك ويسمى استعارة تخييلية كقول لبيد:

وغــداةِ ريحٍ قــد وزَعتُ وقِـرّةٍ إذ أصبحَتْ بيـدِ الشّمالِ زِمـامُها

استعار ـ اليد ـ للشمال وليس هناك مشارٌ إليه يمكن أن يجـري اسم اليد عليه كما أجري الأسد على الرجل لكنه خيل إلى نفسه أن الغداة في تصـريف الشمال على حكم طبيعتها كالإنسان المتصرف في بعيره وزمامه ومقادته في يـده وتصرف الإنسان إنما يكمل باليد فأثبت لها اليد تحقيقاً للغرض وحكم الزمام في الاستعارة للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال. وكذلك قول تأبط شراً يصف سيفاً:

إذا هـزّه في عَـظمِ قِــرْنٍ تهلّلتْ نـواجذُ أفـواهِ المنايـا الضّواحِـكِ

لما شبه المنايا عند هزه السيف بالمسرور وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذي تتهلل فيه النواجذ لا جـرَمَ أثبته تحقيقـاً للوصف المقصود وإلا فليس للمنايا ما ينقل إليه اسم النواجذ. وكذلك له في الحماسة:

سَقاهُ الرَّدَى سيفٌ إذا سُـلَّ أو مَضتْ إليـه ثنـايـا المـوتِ من كـلّ مَـرقَــدِ

. . ومن ذلك قولـه تعالى: ﴿**وأخفضْ لهمـا جَناحَ الـذّلِ من الرحمـة**﴾ تحقيق هذا الخلاص عن التشبيـه فإن من وضـع في نفسه أن كـل اسم يستعار فلا بد أن يكون هناك شيء تمكن الإشارة إليه تتناوله في حال المجاز كما يتناوله في حال الحقيقة. . وقـال ابن الأثير تقسم الاستعـارة إلى قسمين. الأول يجب استعماله وهو ما كان بينه وبين مـا استعير لـه تشابـه وتناسبُ ولنضـرب له أمثلة يستدل بها عليه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وآيةٌ لهمُ الليـلُ نسلخ منه النهـارَ**﴾ وهذا الوصف إنما هو على ما يظهر للعين لا على حقيقة المعنى لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجوّ عند إظلامه وإضاءته بغروب الشمس وطلوعها وليسا على الحقيقة شيئين ينسلخ أحدهما من الآخر إلا أنهمـا في رأي العين كأنهمـا كذلك ـ والسلخ ـ يكـون في الشيء الملتحم بعضه ببعض فلمـا كانت هـوادي

الصبح عند طلوعه كالمتحمة بإعجاز الليل أجرى عليهما اسم السلخ وكان ذلك لائقاً في بابه وهو أولى من قوله يخرج لأنّ السلخ أدل على الالتحام المتوهم من الاخراج. الثاني ما لا يجب استعماله وسيأتي بيانه. . وقال قوم: الاستعارة على سبعة أقسام, الأول الاستعارة للمناسبة وهي على أربعة أقسام كما تقدم. الثاني الاستعارة التخييلية وقد تقدم بيانها. الثالث الاستعارة المجردة. الرابع الاستعارة المرشحة. الخامس: الاستعارة البديعة. السادس: الاستعارة القبيحة. السابع: الاستعارة في الكناية وقد بينا متقدماً بعضها وسنبين الباقي إن شاء الله تعالى.

الوجه الرابع: من التقسيم الأول في اشتقاقها وهي مشتقة من العارية التي حقيقتها في الاجرام ولهذا قال ابن الأثير الاستعارة هي أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع الافصاح بالتشبيه وإظهاره وتجيء على اسم المشبه به فتعبر به عن اسم المشبه تجريه عليه كقولك رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوّة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول ـ رأيت أسداً ـ والسين التي في الاستعارة ليست سين الالتماس والطلب التي هي في قولهم استعان إذا طلب المعونة واستجار إذا طلب الجيرة وإنما هي كالتي في قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ . وكقول الشاعر:

فلم يستجبْهُ عند ذاك مجيبْ

الوجه الخامس: فيما تصح منه الاستعارة وفيما لا تصح. . قال الامامُ فخر الدين وجماعةٌ من المحققين إن الأسماء على ثلاثة أقسام. أسماء أعلام. وأسماء مشتقةٌ. وأسماء أجناس. . فأما الأسماءُ الأعلام فلا استعارة فيها لأن المشابهة بين الأصل والفرع معتبرة في الاستعارة وهي غير معتبرة في الأعلام. . وأما الأسماءُ المشتقة فالاستعارة أيضاً لا تدخلها دخولاً أولياً وهل تتحقق في الفعل أم لا. فنقول الفعل شأنه الدلالة على ثبوت المصدر لشيء في زمان معين فالاستعارة تقع أولاً في المصدر بواسطة ذلك في الفعل فإذا قلت نطقت الحال وهذا إنما يصح لأن الحال مشابهة النطق في الدلالة على الشيء فلا جرم استعير

النطق لتلك الحالة فالاستعارة أولاً واقعةٌ على المصدر بواسطته في الفعل فإذاً الاستعارة في الحقيقة ليست إلاّ في المصدر فإذا عرفت ذلك تبين لك أن الأسماء المشتقة أيضاً كذلك فإن الاسم المشتق هو الذي يدل على ثبوت المشتق منه لشيء مع عدم الدلالة على زمان ذلك الثبوت فظهر منه أن الاستعارة إنما تقع وقوعاً أولياً في أسماء الأجناس.. وتلخيص هذا الكلام أن المعنى يستعار أولاً بواسطة استعارة اللفظ وأن الاستعارة تقع في المصدر ثم بواسطةٍ في الفعل واستعارة الفعل أما من جهة فاعله كقولك نطقت الحال بكذا ولعبت به الهموم وأما من جهة مفعوله كقول ابن المعتز:

جُمِعَ الحقُّ لنا في إمام قتلَ الجوعَ وأحيا السماحَ

أو من جهة مفعولية كقول القطامي:

نُقْريهمُ لهذَميّاتٍ نقدُّ بها ما كان خاطَ عليها كُلُّ زرَّاد

أو لكليهما كقول الحريري:

وأقري المسامعَ إما نطقتُ بياناً يقودُ الحرُونَ الشَّموسا

أو من جهة الفاعل والمفعول كقوله تعالى: ﴿ **يكادُ البرقُ يخطفُ أبصارَهم**﴾.. وقال ابن الأثير في جامعه اعلم أن الاستعارة قد جاءت في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً تقول رأيت ليوثاً. ولقيت صُماً عن الخير. وأضاء الحق، إلا أنه قد استعمل الضرب الثاني الذي ذكرناه وهو قولنا ـ زيد أسد ـ في باب الاستعارة وأورده جماعة من العلماء مثل قُدامة والجاحظ وأبي هلال العسكري والغانمي وأبي محمد بن سنان الخفاجي في تصنيفاتهم في باب الاستعارة ولم يذكروا أن الأصل فيه أنه تشبيه بليغ فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم أو أنهم عرفوه ولم يذكروه وهو الأصل المقيس عليه في التشبيه الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان وقد أوردناه نحن في كتابنا هذا في باب الاستعارة تشبيهاً بالقوم واستناناً بسننهم لأنهم السابقون في هذا الفن بالتصنيف إلا أن موضعه باب التشبيه فاعرف ذلك.

الوجه السادس: الاستعارة التخييلية وقد تقدم الكلام فيها ونزيد ذلك وضوحاً وهو أن علماء البيان قالوا إن أكثر الآيات التي يتمسك بها أهل التشبيه من هذا. فمنها قوله تعالى: ﴿**واخفض لهما جَناحَ الذلّ من الرّحمة**﴾ إثبات الجناح للذل استعارة تخييلية.. روي أن أبا تمام لما نظم قوله (هو حبيب بن أوس الطائي)

لا تَسقِني ماء الملام فإنني صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائي

جاءه رجل بقصعة وقال أعطني قليلاً من ـ ماء الملام ـ فقال أبو تمام لا أعطيكه حتى تأتيني بريشة من ـ جناح الذل ـ فأفحم الرجل. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**سنفرُغُ لكم أيها الثَّقلان**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**ذَرْني ومَن خَلَقتُ وَحيداً**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**إلاّ أن يَعفون أو يَعفو الذي بيدِه عُقدَةُ النكاحِ**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**واعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً**﴾ وفي القرآن العظيم من ذلك كثير.

الوجه السابع: الاستعارة المجردة وهي أن تنظر إلى المستعار من غير نظر إلى غيره كقوله تعالى: ﴿**فأذاقها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخوف**﴾ وكقول زهير:

لدَى أسدٍ شاكي السلاح مقذَّف

لو نظر إلى المستعار منه لقال ـ فكساهم الله لباس الجوع ـ ولقال زهير ـ لدى أسد وافي المخالب. أو وافي البراثن ـ.

الوجه الثامن: الاستعارة المرشحة وهي أن تنظر إلى جانب المستعار فتراعي جانبه وتواليه ما يستدعيه وتضم اليه ما يقتضيه مثل قول كثيّر:

رمَتني بسهمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لم يَضر

وقول النابغة:

وصدْرٍ أراحَ الليلُ عازِبَ هَمِّهِ

المستعار في كل واحد منهما وهو الرمي والإراحة منظور اليه في لفظي ـ السهم. والعازب ـ.

الوجه التاسع: الاستعارة البديعة البالغة وهي أن تتضمن المبالغة في التشبيه مع الايجاز وغالب استعارات الكتاب العزيز كذلك وفي أشعار فصحاء العرب منها كثير.

الوجه العاشر: الاستعارة القبيحة وليس في الكتاب العزيز منها شيء وأما في أشعار العرب وغيرهم فكثير. . ومن قبيح الاستعارة قول أبي تمام:

سبعونَ ألفاً كآساد الشَّرَى نَضِجَتْ ... أعمارُهم قبل نضْجِ التين والعِنبِ

وهذا البيت ليس فيه وجه من وجوه الحسن وقد روي في غير هذه الرواية ـ نضجت جلودهمُ قبلَ ـ وعلى هذه الرواية ليس في البيت استعارة قبيحة فإن القتلى أنضجت الشمس جلودهم كما تنضج التين والعنب. . وكذلك قوله:

أيا مَن رَمى قلبي بسهمٍ فأدخَلَا

أقام ـ أدخلَ ـ مقام أنفذ. وفي رواية ـ فأقصَدَا ـ وفي رواية ـ فأنفَذَا ـ فعلى من روى فأقصدا وأنفذا فهي استعارة حسنة. . ومما يزيد الاستعارة حسناً وهو أصل في هذا الباب أن يجمع بين عدّةٍ من الاستعارات قصداً لإلحاق الشكل بالشكل لإتمام التشبيه كقول امرىء القيس في وصف ليل طويل:

فقلتُ له لمّا تمطّى بصلْبِهِ ... وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكَلْكَلِ

لمّا جعل لليل صلباً قد تمطى به بيّن ذلك فجعل له كلكلاً قد ناء به فاستوفى جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من جميع جوانبه.

الوجه الحادي عشر: الاستعارة بالكناية وبيان ما تتنزل به الاستعارة بالكناية منزلة الحقيقة. . أما الاستعارة بالكناية فهي إذا لم يصرح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه كقول أبي ذؤيب:

وإذا الـمنـيّةُ أنشبَـتْ أظـفـارَهــا ألـفيتَ كـلّ تمـيمــةٍ لا تـنـفـعُ

فكأنه حاول استعارة السبع للمنية لكنه لم يصرح بها بل بذكر لوامها تنبيهاً بها على المقصود.

الثاني عشر: ما تتنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة وهو أن يذكر لفظاً يوهم به أن الاستعارة أصلاً كقول أبي تمام:

ويـصـعَـدُ حـتـى يـظنَّ الـجـهـو لُ بـأنَّ لـه حـاجـةً في الـسـمـاءِ

لمّا استعار العلوّ لزيادة العلوّ في الفضل والقدر ذَكـرَه ذِكرَ من يـذكر علو مكان.. وكقول ابن العميد:

قـامتْ تُـظِلّلُني من الشمس نـفسٌ أعـزُّ علي مـن نفـسي
قـامتْ تـظللني ومن عجـبٍ شمسٌ تـظللني من الشـمس

ومدار هذا النوع على التعجب وقد يجيء على عكسه كقوله:

لا تعجبـوا من بِـلا غِـلالـتـه قـد زَرّ أزْرارُه عـلى الـقـمـرِ

وهذا إنما يتم بالحكم الجدّي بكونه قمراً ليكون من شأنه أن يبلى الكتان.

الوجه الثالث عشر: شروط الاستعارة الكاملة.. قال ابن الأثير لا بد للاستعارة من ثلاثة أشياء. مستعار. ومستعار منه. ومستعار له. فاللفظ المستعار قد نقل من أصل إلى فرع للإبانة والمستعار منه والمستعار له لفظان حمل أحدهما على الآخر في معنى من المعاني هو حقيقي للمحمول عليه مجازى للمحمول. مثال ذلك قوله تعالى: **﴿واشتعلَ الرأسُ شيباً﴾** فهذا مستعار ومستعار منه ومستعار له فالمستعار هو الاشتعال وقد نقل من الأصل الذي هو النار إلى الفرع الذي هو الشيب قصداً للإبانة وأما المستعار منه فهو النار والاشتعال لها حقيقة وأما المستعار له فهو الشيب والاشتعال له مجاز.

* * *

القسم الحادي والعشرون

التشبيـه

والكلام عليه من وجوه.

الأول هل هو من المجاز أو لا.. الثاني بيان الغرض بالتشبيه.. الثـالث في حده.. الرابع في معرفـة الأشياء التي يكـون منها التشبيـه.. الخامس في أقسامه.. السادس في ذكر أدوات التشبيه ما يكون بأداة وما يكون بغيـر أداة.. السابع في تشبيه الشيئين بالشيءِ الواحد.. الثـامن في ذكر مـا حسن به مـوقع التشبيه.. التاسع في الشرط الذي لا يكون التشبيه حسناً إلا به.. العاشر فيما يجوز عكسه من التشبيه وما لا يجوز.. الحادي عشر التشبيه في الهيئـات التي تقع عليها الحركات.. الثاني عشر الفرق بين الاستعارة والتشبيه.

أما الأول: فالذي عليه جُمهور أهل هـذه الصناعـة أن التشبيه من أنـواع المجاز وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير اليه. وذهب المحققون من متأخري علمـاء هذه الصنـاعة وحُـذاقها إلى أن التشبيـه ليس من المجاز لأنـه معنى من المعاني وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعاً كان الكلام حقيقة أو مجازاً فإذا قلـت زيد كالأسد. وهذا الخبر كالشمس في الشهرة. وله رأي كالسيف في المضاء لـم يكن مثـل نقل اللفظ عن موضوعه فلا يكون مجازاً.

وأما الثاني: فالغرض بالتشبيه وفائدته الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسب من فضيلة الإيجاز والاختصار والدليل على ذلك قولنا ـ زيد أسد ـ فإن الغرض بهذا القول أن نبين حال زيد وأنه متصـف بشهـامة النفس وقـوة البطش والشجاعة وغير ذلك مما جرى هذا المجرى إلا إنا لـم نجد شيئاً يدل عليه سوى جعلناه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به مقصورة عليه فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان وأشباه ذلك لِمـا قد عـرف وعهد من اجتمـاع هذه الصفـات في المشبه به فإنه معروف بها مشهور بكونها فيـه.

وأما الثالث: فقد اختلفت عبارات أهل هذا الشأن في حد. فقال قوم: حده أن يثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به.. وقال قوم: حده الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني وأن أحدهما يسدّ مَسدّ الآخر وينوبُ منابَه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازاً. أما الحقيقة فهو أن يقال في شيئين أحدهما يشبه الآخر في بعض أوصافه كقولنا ـ زيد أسد ـ فهذا القول صواب من حيث العرف وداخل في باب المبالغة إلا أنه لم يكن زيد أسد على الحقيقة.

وأما الربع: فقال المحققون من علماء هذا الشأن الأشياء التي يكون منها التشبيه لا يخلو إما أن تكون صفة حقيقية أو حالة إضافية. فأما الأول فلا يخلو إما أن يكون كيفية جثمانية أو نفسانية والأول لا يخلو إما أن تكون صفة محسوسة أو لا تكون محسوسة، فإن كانت محسوسة فإما أن تكون محسوسة أولاً أو ثانياً والمحسوسات الأول هي مدركات السمع. والبصر. والشم. والذوق. واللمس. فالاشتراك في الكيفية المبصرة مثل تشبيه الورد بالخد لاشتراكهما وكذلك تشبيه الوجه بالنهار والشعر بالليل. والاشتراك في كيفية مسموعة كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج في قول الشاعر:

كأنَّ أصواتَ منْ إيغالِهنَّ بنا   أواخر المَيْسِ أصواتُ الفراريجِ

التقدير ـ كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من ايغالهن بنا ـ فَصَلَ بين المضاف والمضاف إليه. والاشتراك في كيفية مذوقة كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر. والاشتراك في كيفية مشمومة كتشبيه بعض الرياحين برائحة الكافور والمسك والاشتراك في كيفية ملموسة كتشبيه لين ناعم بالخز والحرير والخش بالمِسح من الشَّعَر هذا إذا كان فيه الاشتراك محسوساً أولاً. أما إذا كان محسوْساً ثانياً. فالمحسوسات الثانية هي الأشكال. والمقادير. والحركات. والاشكال إما مستقيمة أو مستديرة فالتشبيه لأجل الاشتراك في الاستقامة مثل تشبيه المستوى المنتصب بالرمح والقد بالقضيب والغصن. وإن كان الاشتراك في الاستدارة فكتشبيه الشيء المستدير بالكرة تارة

وبالحلقة أخرى. وإن كان الاشتراك في المقادير فكتشبيه عظيم الجثة بالجبل والفيل وإن كان في الحركة مع اعتدال الاستقامة فكتشبيه الذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم وأما إذا كان الاشتراك في كيفية جثمانية غير محسوسة فهو كالاشتراك في الصلابة. والرخاوة. وأما إذا كان الاشتراك في كيفية نفسانية فهو كالاشتراك في الغرائز والأخلاق مثل الكرم. والحلم. والقدرة. والعُلى. والذكر. والفطنة. والتيقظ والمعرفة. وأما إذا كان الاشتراك في حالة الإضافية لا في كيفية حقيقية فهو مثل قولك ـ هذه حجة كالشمس ـ فاشتراكهما ليس في شيءٍ من الكيفيات الحقيقية ولكن في أمر إضافيّ وهو أن كل واحد منهما مزيل للحجاب.. ثم إن هذه الإضافات قد تكون جلية أو قد تكون خفية وربما يبلغ الجلي في القوة إلى أن يقرب من القسم الأول. مثال الجلي تشبيه الحجة بالشمس. وكذلك قولهم في صفة الكلام ألفاظ كالماء في السلاسة. وكالنسيم في الرقة. وكالعلسل في الحلاوة يريدون أن اللفظ إذا لم تتنافر حروفه تنافراً يثقل على اللسان ولم يكن غريباً حُوشياً بل كان مألوفاً ثم إن القلب يرتاح له والنفس تنشرح به فلسرعة وصوله إلى النفس صار كالماء الذي يسوغ في الحلق وكالنسيم الذي يسري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة ولأجل اهتزاز[1] النفس به أشبه العسل الذي يلذ طعمه ويميل الطبع اليه.. هذا المثال أشد حاجة إلى التفسير من تشبيه الحجة بالشمس ولكنه مع ذلك غير بعيد عن الفهم وأما المتوغل في البعد عن الطبع وشدة الحاجة إلى التأويل فكقول من ذكر بني المهلب هم كالحلقة المفرغة لا ينتهي طرفاها ألا ترى أنه لا يفهم المقصود من ذلك إلا من له طبع يرتفع عن طبع العامة.. ومن وجوه التشبيه أيضاً التشبيه بالوجه المعقول وهو عندهم أقوى وأظهر من التشبيه بالمحسوس لأن تشبيه المحسوس بالمحسوس يمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف محسوس ويمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف معقول ويمكن أن يكون لأجلهما جميعاً. مثال الأول تشبيه الخد بالورد. ومثال الثاني قوله عليه الصلاة والسلام:

(١) كذا في الأصل ولعله التذاذ فليحرر.

«إيّاكم وخضراءَ الدِّمِن الحسنَ الظاهر القبيح الباطن» وهو أمر عقلي. وكذلك تشبيه الرجل النبيه بالشمس فإن النباهة صفة عقلية وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «أصحابي كالنجوم» المعنى به أنه يهتدى بهم في أمور الأديان كما يهتدى بالنجوم في الليالي المظلمة فالشبه في أمر عقلي. ومثال الثالث تشبيه الشخص الرفيع القدر الحسن الوجه بالشمس. وأما الأقسام الثلاثة أعني تشبيه المعقول بالمعقول والمعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول فيمتنع أن يكون وجه المشابهة غير عقلي لأن وجه المشابهة لو كان مشتركاً بين الجانبين لكان المعقول الموصوف به محسوساً من ذلك الوجه وهو محال فثبت أن التشبيه بالوصف المعقول أعم من التشبيه بالوصف المحسوس وإذا علم هذا وتبيَّن الوجه الذي يكون منه التشبيه تعيَّن ذكر أقسام التشبيه مبينة منزَّلة على ما قدَّمناه.

وأما الخامس: فقد أطبق جمهور علماء هذه الصناعة على أن أقسامه أربعة. الأول تشبيه محسوس بمحسوس. الثاني تشبيه معقول بمعقول. الثالث أن يكون المشبه معقولاً والمشبه به محسوساً. الرابع أن يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً. وقد زاد ابن الأثير قسماً خامساً وسماه غلبة الفروع على الأصول وسيأتي بيانه.. أما الأول وهو تشبيه المحسوس بالمحسوس فكقوله تعالى: **﴿والقمرَ قدَّرْناهُ منازل حتى عاد كالعُرْجون القديم﴾** وقوله تعالى: **﴿كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾** ومن شرط هذا النوع أن يكون المشبه والمشبه به مشتركين من وجهٍ مختلفين من وجهٍ ولا يخلو إما أن يكون اشتراكهما في الذات واختلافهما في الصفات وإما أن يكون بالعكس. فالأول مثل تشبيه العدو بالطيران لأنه ليس الاختلاف بينهما إلا بالسرعة وبالبطء. والثاني كتشبيه الشعر بالليل والوجه بالنهار.. وأما القسم الثاني وهو تشبيه المعقول بالمعقول فهو كتشبيه الموجود العاري عن الفوائد بالمعدوم أو تشبيه الشيء الذي تبقى فوائده بعد عدمه بالموجود. ومنه قول الشاعر:

فـرُحتُ وآمـالي كحـظي كـواصفٌ   وعـزمي يحـاكي سعيَـهُ في المكـارم

. . وأما القسم الثالث الذي هو تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ﴾. وقوله: ﴿مَثلُ الذين اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمثَلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً﴾: وقوله تعالى: ﴿مثلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ﴾ وأيضاً مثل تشبيه الحجة بالشمس وبالنور الذي هو محسوس بالبصر وليس لأحد أن يقول الحجة أيضاً مسموعة. قلنا المفيد هو المعاني العقلية الحاصلة في الذهن ووجه المشابهة أن القلب مع الشبه كالبصر مع الظلمة في أن البصر في الظلمة لا يفيد لصاحبه مكنة السعي ولو سعى فربما دُفع إلى الهلاك فتردّى في أهوية ومن الأمثلة تشبيه العدل بالقسطاس. . وأما القسم الرابع وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية اليها ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً وإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يكون جعلاً للفرع أصلاً وللأصل فرعاً وهو غير جائز وكذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور أو المسك بالطيب فقال الشمس في الظهور كالحجة والمسك في الطيب كخلق فلان كان سُخفاً من القول مع أنه قد ورد في الكلام الفصيح وأشعار العرب والمتأخرين منه ما لا يحصى. فمن ذلك قول بعضهم:

وكأنّ النجومَ بينَ دُجاها ... سُننٌ لاحَ بينهنّ ابتداعُ

. . وكقول بعضهم:

ولقد ذَكرْتُكِ والظلامُ كأنه ... يومُ النوى وفؤادُ من لَمْ يعشق

. . وقول بعضهم:

كأنّ ابيضاض البدْرِ من تحتِ غيمهِ ... نجاة من البأساءِ بعد وُقوعِهِ

وقول التنوخي:

أمَا ترى البرْد قد وافت عساكرُهُ ... وعسكرُ الحر كيف انصاع مُنطلقا
فانهضْ بنارٍ إلى فحمٍ كأنهما ... في العين ظُلمٌ وإنصافٌ قد اتفقا

جاءتْ ونحن كقلب الضّب حين سلا بـرْداً فصرْنـا كقلبِ الصبّ إذا عشقا

•• وقال آخر:

رُبَّ لـيـلٍ كـأنـه أملى فـيـ ـك وقـد رُحتُ عنكَ بـالحِرْمـانِ

وقول الصاحب حين أهدى العطر إلى القاضي أبي الحسن:

يـا أيهـا القـاضي الـذي نفسي لـه في قُـرْبِ عهـدِ لِقـائـهِ مُشتـاقـهُ
أهـديتُ عِـطراً مثـل طِيبِ ثنـائـهِ فـكـأنـمـا أهـدِي لـه أخـلاقـهُ

ومثـل هذا في أشعـارهم كثيـر لا يحصى والـذي يجمـع بين هـذا وبين القواعد العقلية أن هذه الأشياء المعقولة لتقررها في الذهن وتخيلهـا في العقل صارت بمنزلة المحسوسات فلما نزلت منزلة المحسوسات صح التشبيه وقويت وصار المعقول للمبالغة أثبت في النفس وأقوى من المحسوس فصار لذلك أصلاً يشبَّه به. ومن هذا قوله تعالى: **﴿طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشياطين﴾** ولهذا قال امرؤ القيس يُشبه نصول الرماح:

ومسنونـة زُرْقٍ كأنيـابِ أغوال

فإنهم وإن كانوا لم يُشاهدوا الغول وأنيابها لكنهم لما اعتقدوا فيها أي في أنيابها غاية الحدّة حسن التشبيه، والصحيح أن المحسوس أعـرف من التشبيه بالوصف المعقول لثلاثة أوجه. الأول أن أكثر الغرض من التشبيه التخييل الذي يقوم مقام التصديق في الترهيب والترغيب والخيال أقـوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الإضافية. الثاني أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق من الاشتراك في مقتضاها. الثالث أن المشـابهة في الصفـة قد تبلغ إلى حيث يتوهم أن أحدهما الآخر. وأما المشابهة في مقتضى الصفة لا تبلغ إلى هذا الحد لأن من المستحيل أن لا يجد العاقل فصلاً بين ما يقتضيه ذوق العسل في نفس الذائق وبين ما يحصل بالكلام المقبول في نفس السامع.. وأما القسم الخامس فقال ابن الأثير ومن أقسام التشبيه قسم يقال له غلبة الفروع على الأصـول وهو

ضربٌ من الكلام ظريف لا يكاد يوجد منه شيء إلا والغرض به المبالغة. . فمما جاء من ذلك قول ذي الرُّمة:

ورَمْلٍ كأوراك العذَارَى قطعتُهُ — إذا ألبستْهُ المظلِمات الحنادِس

. . ومثل ذلك قول بعضهم:

في طلعةِ البدْرِ شيءٌ من مَلاحتها — وفي القضيب نصيبٌ من تثنيها

والغرض بهذا النوع المبالغة في وصف المشبه به كأن هذا المعنى ثبت له وصار أصلاً.

وأما السادس: في أدوات التشبيه فأدواته أسماءٌ وأفعال وحروف. أما الأسماءُ فمثل بسكون الثاء وتحريكها وشبه بسكون الباء وتحريكها وأشباهُ ذلك. وأما الأفعال كحسبت وخلت ويحسب ويخال ونظائرها. وأما الحروف فالكاف مفردة وإذا أضيف اليها ما يجري مجرى ذلك وقد نطق بذلك كله الكتاب العزيز والسنة. أما الأسماء فقال الله تعالى: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾. وقال تعالى: ﴿**مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ**﴾. وقال تعالى: ﴿**مثلُ الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع**﴾ وقال تعالى: ﴿**فأتوا بسورَة من مثلهِ**﴾. وقال تعالى: ﴿**فجزاءٌ مثل ما قتلَ من النعم**﴾. وقال تعالى: ﴿**وأوتوا به متشابهاً**﴾. وقال تعالى: ﴿**إن البقرَ تشابه علينا**﴾ وفي الحديث الصحيح فمن أين يكون الشبَهُ والشِّبْهُ. وأما الأفعال فكقوله تعالى: ﴿**يحسبه الظمآن ماء**﴾. وقال تعالى: ﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾. وأما الحروف فكقوله تعالى: ﴿**كالذي ينفقُ ماله رئاءَ الناس**﴾. وقوله تعالى: ﴿**كرمادٍ اشتدتْ به الريح**﴾. وقوله تعالى: ﴿**كدأب آل فرعون**﴾ وأما ـ كأنّ ـ فكقوله تعالى: ﴿**كأنه رؤوس الشياطين**﴾ وفي القرآن من هذا كثير. وأما في كلام العرب الفصحاء منهم وأشعارهم فشيءٌ كثير أضربنا عن ذكره لكثرته وشهرته. . وقال ابن الأثير وقد وقع في القرآن العزيز التشبيه بغير أداة في مواضع كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿**صمٌّ بكمٌ عُمي فهم لا يرجعون**﴾. وقوله تعالى:

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة﴾ وهو أبلغ في التشبيه. . قال جمهور علماء هذا الشأن التشبيه يكون بأداة تارة وتارة بغير أداة لكن إذا كان بغير أداة كان أبلغ وأوجز لأن قولنا ـ زيد أسد ـ يعطي ظاهره من المعنى أنّا أخبرنا عن زيد أنه أسد وذكرنا أنه هو إلا أن حرف التشبيه في ذلك مقدر وإذا قلنا ـ زيد كأنه أسد ـ فيكون قد أظهرنا فيه حرف التشبيه الذي كان مخفياًفي الأول فيصير حينئذ تشبيهاً لزيد بالأسد والأول كان قد جعل هو الأسد وحرف التشبيه يقدر فيه تقديراً فمن هذا الوجه كان الأول أبلغ وأشد وقعاً في النفس. وأما كونه أوجز فلأن قولنا ـ زيد أسدُ ـ أخص من قولنا ـ زيدٌ كأنه الأسد ـ وإن كان المعنيان سواء.

وأما السابع: في تشبيه الشيئين بالشيء الواحد اعلم وفقنا الله وإياك أن علماء علم البيان قالوا أصل التشبيه أن يشبه شيئاً بشيء وقد يشبه الشيئين بالشيء الواحد وإنما جاز ذلك لأنّ المشبه قد يأخذ صفة من صفات نفسه وصفة غيره ثم يشبههما بشيء آخر كقول الشاعر:

صدغُ الحبيب وحالي ‌ ‌ ‌ كلاهما كالليالي

وقد وقع تشبيه الشيئين بالشيء الواحد وإنما جاز ذلك لأنه لا يخلو الشيئان في تشبيه أحدهما بالآخر من ثلاثة أقسام. أما تشبيه معنى بمعنى. وأما تشبيه معنى بصورة. وأما تشبيه صورة بصورة وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة لا يخلو من ثلاثة أقسام. إما تشبيه مفرد بمفرد. . وإما تشبيه مركب بمركب. وإما تشبيه مفرد بمركب. فأما تشبيه المفرد بالمفرد فكقول البحتري:

تبسمٌ وقُطوبٌ في ندىً ووغىً ‌ ‌ ‌ كالغيث والبرقِ تحتَ العارض البرَدِ

. . ومنه قوله تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب**﴾ الآية. وأما تشبيه المركب بالمركب فقوله تعالى: ﴿**إنما مثلُ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما تأكل**

الناس والأنعام﴾ إلى قوله: **﴿كأن لم تَغن بالأمس﴾** الآية. شبه حال الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض وذلك تشبيه معنىً بصورة وهو أبدع ما يجيء في هـذا القسم. ومثله في حق المنافقين: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نـاراً فلما أضـاءت ما حـوله ذهب الله بنـورهـم وتركهم في ظلمات لا يُبصرون﴾** تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقـد ناراً في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله واتقى ما يخاف وأمن فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي مظلماً خائفـاً متحيراً وكـذلك المنـافق إذا أظهر كلمـة الإيمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده فإذا مـات عاد إلى الخـوف وبقي في العذاب والنقمة. ويجـوز أن يكون المعنى أنهم لمـا وصفوا ـ بـأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ـ عقب ذلك بهذا التمثيل مثلَ هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ـ والضلالـة ـ التي اشتروهـا وطبع بهـا على قلوبهم بـذهاب الله بنـورهم وتركهم في ظلمـات لا يبصرون ثم قـال الله: **﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ﴾** كانت حواسهم سليمة لكن لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به بألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جُعلوا كأنما أصـابت هذه الحواس منهم الآفات وهذا من عجائب التشبيه وطريقته عند علماء البيـان طريقة قولهم ـ ليوث ـ الشجعان ـ بحور ـ للكرام.. وبعض علماء هذه الصناعة يجعلون ما كان على مثال قوله تعالى: **﴿صم بكم عميٌ﴾** استعارة وليس كذلك لأن المستعار مذكور.

.. ومن هذا القسم قول الشاعر:

بكيتُ عليـه حين لـم يبـلغِ المـنى ... ولم يـروَ من مـاءِ الحيـاةِ المكـدَّرِ

ومنه قول المتنبي:

كـأنّ الجفـونَ على مُقلتيَّ ... ثيـابٌ شُقِقن على ثـاكِـلِ

.. وأما تشبيه المفرد بالمركب فمن ذلك قول بعضهم:

كـأنّ السُّهى إنسـانُ عينٍ غـريقـةٍ ... من الـدَّمـعِ يبـدو كلمـا ذَرَفَتْ ذَرْفـا

وأما الثامن: في ذكر ما يحسن به موقع التشبيه. . قال أئمة هذا الشأن أن كثرة التقييدات يعظم بها حسن موقع التشبيه وتكون أدخل في التشبيه من غيرها لأنها عقلية. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماءِ**﴾ إلى قوله: ﴿**كأن لم تغن بالأمس**﴾ وهذه فيها عشر جمل قيد بعضها ببعض حتى صارت جملة واحدة وهي مع ذلك لا يمتنع أن تكون صور الجُمَل معناها حاصلاً يمكن أن يشار إليها واحدة واحدة ثم أن التشبيه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض فإنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه. . وقد يقع من التشبيه جُمل لا يخل إسقاط بعضها بالتشبيه وهي كل جملة جمعت أغراضاً كثيرة كل واحد منها منفرد بنفسه ولهذا النوع خاصيتان. الأولى أنه لا يجب فيها الترتيب ألا ترى أنك إذا قلت ـ زيد كالأسد بأساً ـ والبحر جوداً. والسيف مضاءً والبدر بهاءً ـ لم يجب عليك أن تحفظ في هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً وهو كقول بعضهم:

يا هلالاً يُدعى أبوهُ هلالا ... جلّ باريك في الورى وتعالى
أنتَ بدرٌ حُسْناً وشمس علوّاً ... وحُسامٌ حَزماً وبحر نَوالا

. . الثانية إذا سقط البعض فإنه لا يتغير حال الباقي كقولهم يصفو ويكدر ويحلو ويمر ولو تركت ذكر الكدورة والمرارة لو وجدت المعنى في تشبيهك بالماء في الصفاء والعسل في الحلاوة باقياً على حاله. وقد وقع في بعض الأشعار ما يظن أن فيه تشبيهات مجموعة وليس كذلك بل هو تشبيه واحد وذلك كقول الشاعر:

كما أبرقَتْ قوْماً عِطاشاً غمامةٌ ... فلما رَجوها أقشعتْ وتجلّت

وأما التاسع: فهو في الشرط الذي لا يكون التشبيه حسناً إلا به وهو أن يكون التشبيه جلياً ويكون بحال يتبادر الذهن اليه وإلى إدراكه ولا يحتاج إلى إطالة فكرة ولا إمعان نظر فإن الغرض بالتشبيه بيان حسن موقع التشبيه وظهور

مزية المشبه بحسن حال المشبه به أو قبحه ولذلك هجنوا تشبيه من شبه الشمس بالمرآة في كف الأشل وكتشبيه البرق بأصبع السارق في قول بعضهم:

أرِقْتَ أم نمتَ لِضوءِ بارقِ   مُؤتلفاً مثلَ الفؤادِ الخافق
كأنه إصبَعُ كف سارِقِ

وأما العاشر: فيما يجوز عكسه من التشبيه وما لا يجوز. فأما الذي لا يجوز عكسه فكل تشبيه كان الغرض به إلحاق الناقص بالزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه وهو كما إذا شبهت شيئاً أسود بما هو الأصل في شدة السواد كخافيتي الغراب والقار امتنع فيه الكعس لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص تضاد المبالغة في الاثبات. وأما الذي يجوز عكسه فهو الجمع بين شيئين في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون فالعكس مستقيم فيه فهو كتشبيه الصبح بغرة الفرس لا لأجل المبالغة في الضياء بل لأجل وقوع منير في مظلم وحصول بياض في سواد مع كون البياض قليلاً بالإضافة إلى السواد وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة والدينار الخارج من السكة كقول ابن المعتز فهذا حسن مقبول وإن عظم التفاوت بينهما لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور وإنما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص جنس اللون الموجود في المرآة المجلوة والدينار للتخلص من حمى المسبك يوجد في الشمس فأما مقدار النور بأنه زائد أو ناقص والجرم عظيم أو صغير فمما لم يتعرض له وعلى هذا خرج قوله تعالى: **﴿الله نور السموات والأرض مثلُ نورهِ كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ المصباحُ في زُجاجَةٍ الزّجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّي﴾** الآية فإنه سبحانه وتعالى لم يرد بالتشبيه بهذه الزجاجة الموصوفة بهذه الصفة المشاركة بين نوره وبين نور هذه الزجاجة إذ لا مناسبة بينهما بل كان ذلك من التشبيه الذي ينعكس بل الذي يتعين عكسه.

وأما الحادي عشر: في الهيئآت التي تقع عليها الحركات فهي عند أرباب هذا العلم على قسمين. أحدهما أن تعرف تغيرها من الأوصاف كالشكل

واللون. الثاني أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها . . فمن الأول قول ابن المعتز:

والشمسُ كالمرآةِ في كفِّ الأشلِ

أراد أن يريك مع الاستدارة والاشراق الحركة التي تراها في الشمس إذا أنعمت التأمل ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة وذلك أن للشمس حركة متصلة دائمة ولنورها بسبب ذلك تموج واضطراب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشل لأن حركته تدوم وتتصل ويكون لها سرعة وبدوام الحركة يتموج نور المرآة وتلك حال الشمس لأنك ترى شعاعها كأنه يهم أن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى الانقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط. وقد لمح هذا المعنى ابن سناء الملك في أبيات هجا فيها الشمس قال فيها:

لا كانتِ الشمسُ فكمْ أصْدَأت ... صَفْحَةَ خَدٍّ كالحسامِ الصَّقيل

وكم وكم صدّتْ بوادي الكرى ... طَيفَ خيالٍ زارَني من خَليل

تكذِبُ في الوَعدِ وبُرهانه ... أن سرابَ القَفرِ منها سَليْل

وتحسبُ النهرَ حُساماً فترْتا ... عَ وتحكي فيهِ قلبَ الذّليل

ومما يشبه التشبيه الأول وإن صور في عين المرآة قول المهلب بن أبي صفرة الوزير:

الشمسُ مِنْ مُشرقها قدْ بدَتْ ... مُشرقَةً ليسَ لها حاجِبُ

كأنها بَوْتقَةٌ أحمِيَتْ ... يجولُ بها ذَهَبٌ ذائِبُ

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بشكل البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذي وصفت لك وما في طبع الذهب من النعومة وفي أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيها غليان كما في الماء فيرتفع وسطه ارتفاعاً شديداً وجملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرناه من الانبساط إلى الجوانب ثم انقباض ومنها قوله:

كـأنّ في غُدْرانِهـا حوَاجِبـا

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكـال كأنصـاف دوائر صغـار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنـائها وتحدّ بها وكـأنها تنتقـل من التقوّس إلى الاستواء وذلك أشبه شيء بالحواجب إذا مدت. والثاني ما يكون التشبيه في هيئة الحركة فقط مجردة من كل وصف يقاربها وهناك أيضاً لا بد من إخلاط حركات كثيرة في جهات مفترقة مختلفة وكلما كان التقارب أكثر كان التـركيب ي الهيئة المتحـركة أكثـر. وقد يقـع التشبيه أيضـاً بالسكـون كقـول الأخـطل في وصف مضلوب:

كـأنــه عــاشِقٌ قــد مــدّ صفحتَــهُ يـومَ الـوداعِ إلى تـوْدِيـعِ مُـرْتحـلِ
أوْ نــائمٌ من نعــاسٍ فيــه لــوثتــه مــواصــلٌ لتمــطيــهِ من الكســلِ

فلطفه بسبب ما فيه من التفصيل ولو قال كأنه منمط من نعاس واقتصر عليه كان قريب التناول. وقد وقع في القرآن العظيم آيات كثيرة شبه فيهـا الحركـات بالحركات والسكون بالسكون. فمن ذلك قوله تعالى: **﴿وتَرَى الجبالَ تحسبُها جامِدةً وهي تمرّ مَرَّ السحابِ﴾**. وقوله: **﴿يكادُ البرقُ يخطفُ أبصارهم﴾**. وقوله تعالى: **﴿يومَ نطوي السماءَ كطيّ السجلّ للكتب﴾** شبه سرعة سير الجبال مع سكون بسرعة سير السحاب مع سكون أيضاً وشبه سرعة وميض البرق بسرعة يد المختطف وشبه حركة التفاف جرم السماء بحركـة التفاف جـرم الكتاب بعضـه على بعض وكذلك السكون. ومنه قوله تعـالى: **﴿ واترك البحرَ رهواً ﴾** ـ والرهو ـ الساكن شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها تقول العرب جاءت الخيل رهواً أي ساكنة فشبه البحر بها وذلك أنه قام فرقـاه ساكنين فقـال لموسى عليه الصلاة والسلام دع البحر ساكناً قائماً ماؤه كمـا أخبر الله سبحـانه وتعالى: **﴿فأوْحينا إلى مُوسى أنِ اضربْ بِعصَاكَ البحرَ فانفلق فكـانَ كلّ فِـرْقٍ كالطوْدِ العظيمِ﴾**.

وأما الثاني عشر: فهو الفرق بين الاستعارة والتشبيـه. ذهب جماعـة من

أهل هذا الشأن إلى أن التشبيه والاستعارة شيئان وفرق الحذاق وقالوا إن التشبيه حكم إضافي لا بد فيه من ذكر مشبه ومشبه به فإنك إذا قلت ـ رأيتُ أسداً ـ فهو استعارة لم تذكر شيئاً حتى تشبهه بالأسد ولو كان تشبيهاً لتعيّن أن تقول زيد أسد أو زيد كالأسد ولم يكن غرضك في قولك زيد أسد إلا المبالغة في مدح زيد بالشجاعة. . فرق ثان أن التشبيه لا يكون إلا بأداة التشبيه غالباً والاستعارة لا تحتاج إلى أداة فإنك إذا قلت ـ لعبتْ به يد الصبا ـ لم يكن كقولك ـ فلان له خلق كالصبا ـ . . فرق ثالث أن الاستعارة أوجز من التشبيه فإنك إذا قلت ـ زيد أسد ـ أوجز من قولك ـ زيد في بسالة الأسد ـ فثبت على هذا التقدير أن التشبيه أحد غرضي الاستعارة.

فصل

ومنها التمثيل. . قد أطلق علماء هذه الصناعة اسم التشبيه على كل تمثيل منتزع من أمور مجتمعة بتقييد البعض بالبعض وهو قريب من الاستعارة ومنه في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: **﴿مَثَلُ الذين يُنفِقون أموالَهمْ في سبيلِ اللهِ كمثَلِ حبّةٍ أنبتتْ سبعَ سَنابلَ في كلّ سُنبُلةٍ مِائةُ حَبّةٍ﴾**. وقوله تعالى: **﴿مَثَلُ ما يُنفِقون في هذه الحياةِ الدُّنيا﴾** الآية. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿فمثلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تترُكْهُ﴾** وقوله تعالى: **﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوْراةَ ثمّ لم يحمِلوها﴾** الآية. ومثله في القرآن كثير. . ومن هذا النوع المثل السائر ومعنى السائر أنه كثر استعماله واستعماله على أن الثاني بمعنى الأول لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعينة أنها بمنزلة من قيل له هذا القول والأمثال كلها حكايات لا تغيَّر وهي أكثر من أن تحصى وقد صنف العلماء فيها كتباً وشرحوا معانيها والخوض في ذكرها يطول وقصدت الاختصار لا الاكثار. . ومن الأمثال السائرة في الكتاب العزيز قوله تعالى: **﴿ليس لها من دون اللهِ كاشفةٌ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وترَى الجبالَ تحسبها جامدَةً وهي تمرُّ مرَّ السحابِ﴾**. وقوله تعالى: **﴿صِبغةَ اللهِ ومن أحسن من اللهِ صبغةً﴾**. . ومنه في

السنة قوله ﷺ الآن حَمى الوطيس ورسول الله ﷺ أول من فاه بهذا المثل ثم صار مثلاً سائراً. ومنه قوله ﷺ: «إياكم وخضراءَ الدِّمنَ». وفي غضون كلامه ﷺ من هذا كثير. . وأما أشعار العرب فقد ورد فيها من ذلك كثير منها ما في البيت مثل واحد ومنها ما في البيت مثلان ومنها ما فيه ثلاثة ومنها ما فيه أربعة ومنها ما فيه خمسة ومنها ما فيه ستة. . فأما ما فيه مثل واحد فكقول أبي فراس:

تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ... ومَن طَلب الحسناء لم يُغلهِ المَهْرُ

. . وقول أبي تمام:

فلو صورتَ نفسكَ لم تَزِدْها ... على ما فيكَ من كرَمِ الطباعَ

. . ومما جاء من الشعر فيه مثلان قول بعضهم:

الله أنجَحَ ما طلبتَ بهِ ... والبرُّ خيرُ حقيبَةِ الرَّحْلِ

في كل قسم منه مثل قائم بنفسه غير محتاج إلى صاحبه. . ومنه قول الحطيئة:

مَن يفعَلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جَوازِيهُ ... لا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناسِ

. . وقول أبي فراس:

ومَن لم يُوَقِّ اللهُ فهو مُضيَّعٌ ... ومَن لم يُعزِّ اللهُ فهو ذَليلُ

. . وقول المتنبي:

وكلُّ امرى يولي الجميلَ محبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزّ طيِّبُ

. . وأما ما فيه ثلاثة أمثال فكقول زهير بن أبي سُلمى:

وفي الحلمِ إدهانٌ وفي العفوِ ذِلَّةٌ ... وفي الصدْقِ مَنجاةٌ من الشرّ فاصدُق

. . وأما ما فيه أربعة أمثال فكقول بعض العرب:

فالهمُّ فضلٌ وطولُ العيشِ مُنقطعٌ ... والرِّزقُ آتٍ ورزقُ اللهِ مُنتَظَرُ

. . وأما ما فيه خمسة فكقول الشاعر:

خـاطِرْ تُفَـدْ وارْتَدْ تجِـدْ واكـرُمْ تَسُـدْ وانقَـدْ تَقُـدْ واصغَـرْ تُعَـدُّ الأكبـرَا

. . وأما ما فيه ستة فكقول ابن اللبّانة الأندلسي :

تـهْ أحتمِلْ واستـطِلْ أصبرْ وعِـزَّ أهُنْ ووَلِّ أقبِـلْ وقُـلْ أسمَـعْ ومُـرْ أطِـعِ

ـ والمثـل ـ جمعه أمثال وسمي المثل مثلاً لأنه ماثلٌ بخاطر الانسان أي شاخص يتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجـو والشاخص المنتصب وهـو من قولهم طللٌ ماثل أي شـاخص وهذا رسمـه اللغوي والـذي تقدم في أول البـاب حده الصناعي .

القسم الثاني والعشرون

من المجاز

الايجاز والاختصار

وهو على قسمين وجيز بلفظه ووجيز بحذف .

فأما الوجير : بلفظه فهو عند أرباب هذه الصناعة أن يكون اللفظ بالتشبيه إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة وسبب حسنه أنه يدل على التمكن في الفصاحة والملكة في البلاغة وحصول ملاذ كثيرة دفعة واحدة واللفظ لا يخلو إما أن يكون مساويـاً لمعناه وهـو المقدر أو أقـلّ منه وهـو المقصور . . أمـا المقدر فكقوله تعالى : ﴿**إنّ اللهَ يأمُـرُ بِالْعَـدْلِ والإحْسانِ وإيتَـاءِ ذِي القُرْبى ويَنهَى عنِ الفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ**﴾ أمر الله في أول هـذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي ووعظ في آخرها وذكر فجمع في هذه ضروباً من البيان وأنواعاً من الإحسان فذكر العـدل والإحسان والفحشـاء والمنكر بـالألف واللام التي هي لـلاستغـراق أي استغراق الجنس المحتوي على جميع أنواعه وضروبه وجمع فيهـا بين الطبـاق اللفظي والطباق المعنوي أما اللفظي ففي قوله : ﴿**إن الله يـأمر وينهي**﴾ . وأمـا المعنـوي ففـي قـولـه : ﴿**العـدل والإحسـان وإيتـاء ذي القـربى**﴾

وقوله: ﴿الفحشاء والمنكر والبغي﴾ فإن الثلاثة الأواخر أضداد الثلاثة الأول لأن الثلاثة الأول من الفعل الحسن والثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيصاء عليهم والإيتاء لهم مع أن الأمر بالاحسان قد تناولهم وبدأ بالعدل لأنه فرض وتلاه بالاحسان لأنه مندوب اليه وقد يجب فاحتوت الآية على حسن النسق وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه الاحسان الذي هو جنس عام وخص منه نوعاً خاصاً وهو إيتاء ذي القربى ثم أتى بالأمر مقدماً وعطف عليه النهي بالواو ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا ما لو بث في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها ولا احتوت على أصولها ومبانيها سبحان من لا يشبه خلقه ذاتاً ولا كلاماً ولا إحكاماً ولا أحكاماً. وفي القرآن العظيم من هذا النمط كثير وقد وقع آيات كثيرة قلّت حروفها وكثرت معانيها وظهرتْ دلائل الاعجاز فيها مثل قوله تعالى: ﴿فإما تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواءٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿ومنْ يُطِعِ اللهَ ورَسوله ويخشَى الله ويتّقهِ أولئك همُ الفائزون﴾. وقوله تعالى: ﴿من كفر فعليه كفرُه﴾. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَهُ﴾. ومن ذلك في السنة كثيرٌ كقوله ﷺ: «الأعمال بالنيات والمجالس بالأمانات». وكقوله الضعيفُ أمير الرَّكْبِ يعني أنه ينبغي متابعته في السير كما ينبغي متابعة أمير الركب وقد صرَّح بذلك في قوله ﷺ: «سيروا سير أضعفكم». ومن ذلك في أشعار العرب وخطبهم كثير وكثرته وشهرته أغنت عن ذكره.

وأما المقصور: فإما أن يكون من نقصان لفظه عن معناه لاحتمال لفظه معان كثيرة أو لا يكون كذلك. الثاني كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ العفو وأمرْ بالعرْف واعرِضْ عن الجاهلين﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿أوليكَ لهم الأمن وهم

مهتدون﴾. وكقوله تعالى: ﴿ولكم في القِصاص حَياةٌ﴾ وهذا أحسن من قولهم القتل أنفى للقتل لوجوه سبعة. الأول أن قولهم القتل أنفى للقتل في ظاهره متناقض لأنه جعل حقيقة الشيء منافية لنفسه وإن قيل أن المراد منه أن كل واحد من أفراد هذا النوع ينفي غيره فهو أيضاً ليس أنفى للقتل قصاصاً بل أدعى له وإنما يصح إذا خصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل فيصير كلاماً طويلاً مع أن التقييدات بأسرها حاصلة في الآية. الثاني أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً من حيث أنه قتل بل من حيث أنه قصاص وهذه الجملة غير معتبرة في كلامهم. الثالث أن حصول الحياة هو المقصود الأصلي ونفى القتل إنما يراد لحصول الحياة والتنصيص على الغرض الأصلي أولى من التنصيص على غيره. الرابع أن التكرار عيب وهو موجود في كلامهم دون الآية. الخامس أن حروف ـ في القصاص حياة ـ اثنا عشر وحروف ـ القتل أنفى للقتل ـ أربعة عشر. السادس أنه ليس في كلامهم كلمة يجمع فيها حرفان متلاصقان تحركان إلا في موضع واحد بل ليس فيها الأسباب حقيقة متوالية وقد عرف أن ذلك مما ينقص من سلامة الكلام بخلاف الآية. السابع أن الدافع لصدور القتل عن الانسان كراهته لذلك وصارفه القوي عنه حتى أنه ربما يعلم أنه لو قَتَل قُتِلَ ثم لا يرتدع وإنما رادعه القوي هو إما الطمع في الثواب أو الذكر الجميل وإذا كان كذلك فليس أنفى الأسباب للقتل هو القتل بل الأنفى لذلك هو الصارف القوي. وقوله تعالى: ﴿في القصاص حياة﴾ لم يجعل القصاص مقتضياً الحياة على الاطلاق بل الحياة منكرة والسبب فيه أن شرعية القصاص تكون رادعة عن الإقدام على القتل غالباً.
ثم لتعلم أن في هذا التنكير فائدة أخرى لطيفة وهي أن الانسان إذا علم أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه. فصارت حياة هذا الموهوم قتله في المستقبل مستفادة بالقصاص وصار كأنه قد حيي في بقي عمره ولذلك وجب التنكير وامتنع التعريف من جهة أن التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها وليس الأمر كذلك. ومثل هذا التنكير قوله تعالى: ﴿ولَتَجِدَنَّهُمْ أحْرَصَ الناس على حياةٍ﴾ وفائدة التنكير أن الحريص لا بدّ وأن يكون حياً وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة بل على الحياة المستقبلة ولمّا

لم يكن الحرص متعلقاً بالحياة على الاطلاق بل بالحياة في بعض الأحوال لا جرمَ جاءت بلفظ التنكير. . واعلم أن للتنكير في قوله تعالى: ﴿**في القصاص حياة**﴾ فائدة أخرى وهي أن الرجل قد يرتدع بالقصاص حتى لا يقدم على القتل لكن من الجائز أن لا يكون للانسان عدوٌّ فيقصد قتله حتى يمنعه خوف القصاص وحينئذ لا تكون حياة ذلك الانسان لأجل الخوف من القصاص ولما دخل الخصوص في هذه القصة وجب أن يقال حياة ولا يقال الحياة وكذلك يقال شفاءٌ ولا يقال الشفاء في قوله تعالى: ﴿**يخرُجُ من بُطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ**﴾ حيث لم يكن شفاءً للجميع. . ومن بديع هذا النوع أن أبا جعفر لمنصور سأل معن بن زيا أيما أحبّ إليك دولتنا أو دولة بني أمية فقال ذلك اليك ومعناه أن زيادة هذه المحبة ونقصانها بيدك لأنها على قدر إحسانك. والفرق بين هذا القسم وبين المقدم وهو أن يكون نقصان اللفظ لأجل احتماله معان كثيرة وذلك كاللفظ المشترك أو الذي له مجازات حقيقة ومجاز إذا أريدت معانيه كما في قوله تعالى: ﴿**إنّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ على النبيّ**﴾ والصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار. وكذلك قوله تعالى: ﴿**إنّ اللهَ يَسجدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدّوابُّ**﴾ والسجود من الناس وضع الجبهة على الأرض وهو حقيقة شرعية وأيضاً الخشوع وهو حقيقة لغوية ومن غير الناس الانقياد لصنع الله تعالى وهو مجاز. . ومن ذلك قول المتنبي:

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَن بات حاسداً لمَن باتَ في نَعمائهِ يَتقلَّبُ

وهذا يحتمل ثلاثة معان. الأول من بات في نعماء المحسود. الثاني من بات في نعماء الحاسد. والثالث من بات في نعماء غير الحاسد والمحسود فيكون ذلك مدحاً للذي يبيت في نعمائه وبيانه أن كل أحد يتمكن من تحصيل تلك النعمة بمدح هذا المنعم فيكون حينئذ ممن أنعم عليه.

وأما الوجيز بالحذف: فالكلام عليه من وجوه. الأول المعنى الذي حسن

الحذف من أجله. الثاني في فائدته. الثالث في شرطه. الرابع في أقسامه. الخامس في توابعه. السادس فيما يقبح منه. . أما الأوَّل فإن المعنى الذي حسن الحذف من أجله طلب الايجاز والاختصار وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل. . وأما الثاني ففائدته زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأكثر وكان ذلك أحسن. . وأما الثالث فشرطه أن يكون في اللفظ دلالة على المحذوف وإلا لم يتمكن من معرفته فيكون اللفظ مخلاً بالفهم وتلك الدلالة قد تحصل من إعراب اللفظ وذلك كما إذا كان منصوباً فيعلم أنه لا بد له من ناصب وإذا لم يكن ظاهراً لم يكن بد من أن يكون مقدَّراً وذلك كقولنا ﷺ أهلاً وسهلاً ومرحباً ـ ومعناه وجدت أهلاً وسلكتَ سهلاً وصادفتَ رُحباً. ومنه في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿**الحمد لله**﴾ على قراءة من قرأ بالنصب. وقوله تعالى: ﴿**واتَّقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ**﴾ والتقدير أحمد الحمدَ أو أقرأ الحمد واحفظوا الأرحام. وقوله تعالى: ﴿**صِبغةَ اللهِ ومَن أحسنُ من اللهِ صبغةً**﴾ وقوله تعالى: ﴿**مِلَّةَ إبراهيمَ**﴾ وفي القرآن منه كثير وفي الكلام الفصيح منه كثير وكثرته تغني عن ذكره. غير أن سيبويه ذكر منه أشياء جعلها حجة في الباب. من ذلك قول العرب ـ اللهم ضَبعاً وذئباً ـ أي اجعل فيها ضَبعاً وذئباً. وقول بعضهم حين قيل له لم أفسدتم مكانكم فقال ـ الصبيان بأبي ـ أي لُمِ الصبيان. ومنه ما قدمناه أولاً وهو أهلاً وسهلاً ومرحباً. وقد تحصل تلك الدلالة بالنظر في المعنى والعلم بأنه إنما يتم بمحذوف مقدَّر وهذا يكون أحسن من الأول لزيادة غموضه كما في قولهم فلان يَحلُّ ويَربُط ومعناه أنه يحل الأمور ويربطها أي ذو تصرف. وقد عقد بعض علماء هذه الصناعة عقداً فقال اللفظ المحذوف إما أن يكون مفرداً أو مركباً فإن كان مفرداً فسيأتي بيانه وإن كان مركباً فإما أن يكون كلاماً مفيداً أو لا يكون كذلك فهذه ثلاثة أقسام الأول أن يكون كلاماً مفيداً وهذا أحسن والكلام المفيد المحذوف قد يكون قليلاً وهو على وجهين. أحدهما أن يكون المحذوف استفهاماً ويسمى ما يدلّ عليه استئنافاً وهذا إما أن يكون بإعادة اسم أو صفة أو لا يكون كذلك أما الذي بإعادة اسم فكما إذا أعقب اسم من تقدَّم الحديث عنه كقولنا أحسنتَ إلى

زيدٍ زيدٌ أحقّ بإحسانك. وقولنا ـ زيدٌ أحق بإحسانك ـ جواب عن سؤال كأنه قيل وما وجه الإحسان إلى زيد فقيل زيد أحق بإحسانك فيكونُ هذا السؤال محذوفاً. . وأما الذي بإعادة صفة فكقولنا أحسنت إلى زيد صديقك القديم هو أحق بذلك. تقديره وما وجه الإحسان إلى زيد فتقول ـ لأنه صديقك القديم ـ وهذا أحسن من إعادة الاسم لاشتماله على سبب الإحسان. . وأما الذي ليس كذلك فكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه﴾ إلى قوله: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ فقوله: ﴿أولئك على هدىً من ربهم وأولئك همُ المفلحون﴾ استئناف وهو جواب لسؤال مقدَّر كأنه قيل وما يحصل لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات فقيل إنهم على هدىً من ربهم وإنهم مفلحون وكذلك قوله تعالى: ﴿إني آمنتُ بربّكم فاسمَعون قيل ادخُلِ الجنةَ﴾ فقوله: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ جواب عن سؤال كأنه قيل وما فُعلَ بهذا فقيل قيل له ادخل الجنة وإنما لم يقل قيل له لأن ذلك معلوم. وكذلك قوله تعالى: ﴿قلْ يا قومِ اعمَلوا على مكانتكم﴾ فإن قرىء ﴿فسوفَ تعلمون﴾ لم يكن فيه استئناف وإن قرىء سوف تعلمون كان ذلك كأنه قيل ومن يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت على مكانتك فقيل: ﴿سوف تعلمون مَن يأتيهِ عذابٌ يخزيهَ﴾. وثانيها أن لا يكون المحذوف استفهاماً وذلك كما إذا كان مسبباً وقد دلّ عليه سببه كقوله تعالى: ﴿وما كنتَ بجانِبِ الغَرْبيّ إذ قَضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدين﴾ كأنه قال وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه ولكنا أوحينا إليك وسبب هذا الوحي أنّا أنشأنا قروناً إلى زمانك فتطاوَلَ عليهمُ العُمُرُ أي مدة الفترة فنُسي ما كان جرى فأوحينا إليك فيكون المحذوف هو السبب والمذكور الدال عليه هو سببه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وما كنتَ بجانب الطورِ إذْ نادَينا﴾. .

وأما الرابع في أقسامه: أما أقامه فقد تظافرَت أقوال أرباب علم البيان على أن المحذوفات على قسمين حسنة وقبيحة. أما القبيحة فهو أن يخلّ المحذوف بالمعنى أو يحطه عن رتبته وسيأتي بيانه. وأما الحسنة فهي على قسمين. جملٌ. ومفردات. فأما الجمل فهي على قسمين. موجزة. ومطولة. . الموجزة مثل قوله

تعالى: ﴿واللائي يَئِسنَ من المحيضِ مِن نسائكم إنِ ارتبْتم فعِدّتُهُنّ ثلاثةُ أشهُرٍ واللائي لم يحِضنَ﴾ تقديره واللائي لم يحضن فعدتهن كذلك. وقد تقدم في الفصل الذي قبل هذا من نظائره كثير والقرآن العظيم مشحون به. . وأما الجمل المطولة فكقوله تعالى: ﴿إذْهَبْ بكتابي هذا فألقِه اليهمْ﴾ الآية. فأعقبه بقوله حكاية عنها: ﴿قالتْ يا أيها الملأ إني ألقَى إليّ كتابٌ كريمٌ﴾ تقديره فأخذ الكتاب فألقاه اليهم فرأته المرأة بلقيس وقرأته ـ وقالت يا أيها الملأ ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا يَحيى خذِ الكتابَ بقُوّةٍ وآتيناهُ الحُكمَ صبيًّا﴾ فيه محذوف مطوّل تقديره فلما وُلد يحيى ونشأ وترعرع قلنا له ـ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ـ. .

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿لن نَبرَحَ عليه عاكِفين حتى يرجع الينا موسى قال يا هرونُ ما مَنَعكَ إذْ رأيتُهمْ ضلّوا ألاّ تتّبعني أفعصيت أمري﴾ تقديره فلما جاءهم موسى ووجدهم على تلك الحالة ـ قال يا هرون ـ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلما رآهُ مُستقِرًّا عندَهُ قال هذا من فضل ربي﴾ إلى قوله: ﴿قال نكّرُوا لها عرْشَها﴾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أفمَن شرَحَ اللهُ صدْرَهُ للإسلام فهو على نورٍ من ربهِ﴾ فيه محذوف تقديره أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه وتركه على ظلمة من كفره ودل على المحذوف قوله تعالى: ﴿فوَيلٌ للقاسيةِ قلوبُهم عن ذِكرِ اللهِ﴾ وذلك في القرآن العظيم كثير جداً.

وأما المفردات: فهي ثلاثة أقسام. أسماءٌ. وأفعالٌ. وحروفٌ، أما الأسماءُ فهي أنواعٌ. الأول حذف الفاعل وقد اختلف في حذفه فنص على منع حذفه ابن جني وكثير من النحويين والحق جوازه إذا وُجد ما يدلّ عليه كقوله تعالى: ﴿كلاَّ إذا بَلَغَتِ التراقيَ﴾ تقديره إذا بلغت الروح التراقي. ومنه قوله تعالى: ﴿حتى توارَتْ بالحِجاب﴾ تقديره حتى توارت الشمس من ذلك قوله تعالى: ﴿فلما جاء سُليمان﴾ تقديره فلما جاء الرسول سليمان. الثاني حذف المفعول وهو على ثلاثة أقسام. الأول حذفه من كل فعل ليس له مفعول معيَّن بل يكون المقصود من الكلام بيان حال الفاعل فقط. ومنه قوله تعالى: ﴿هلْ

يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أي هل يستوي ذو العلم ومن لا علم له. وفي مثل هذا يتعين أن لا يعدّي الفعل لفظاً ولا تقديراً ويكون حاله كحال غير المتعدي فإن عدّيته تخصه بما تعدّ به إليه فينقص الغرض. ومن ذلك المحذوف من الأفعال التي لها مفعول معيّن وحذفه لأمور. الأول أن يكون المراد بيان حال الفاعل وأن ذلك دأبه لا بيان حال المفعول. مثاله قوله تعالى: ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ إلى قوله: ﴿ فسقى لهما ﴾ فحذف المفعول من أربعة مواضع إذ لو أضافه إلى الغنم مثلاً لتوهم أن الانكار إنما جاء من ذود الغنم لا من مطلق الذود كما تقول ما لك تمنع أخاك. وكل محلٍّ بالمقصود ومثله قول الشاعر:

هُمُ خلطونا بالنفوسِ وألجؤا   إلى حُجُرات أدْفئتْ وأظِلَّتِ

أراد ألجؤنا وأظلتنا وأدفأتنا فحذف فكأنه قد أبهم أمره ولم يقصد شيئاً يقع عليه فلو قال أدفأتنا وأظلتنا لكان الأمر مجتمعاً بهم وبطل الغرض. الثاني أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهاماً بأنك لا تقصد ذكره كقول البحتري:

ينجو حسّادِهِ وغيظ عُداهُ   أنْ يرَى مبصرٌ ويسمعَ واعِ

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنه ويسمع واع أخباره.. الثالث أن يحذف لكونه مبيناً كقولك ـ أصغيتُ اليك ـ أي أذني. وأغضيتُ عنك ـ أي جفني.. وقال ابن الأثير حذف المفاعيل على قسمين. الأول حذف مفاعيل غلب حذفها على إثباتها كمفعول المشيئة والإرادة في باب الشرط وباب لَوْ أو كمفعول الأقسام. فأما حذف مفعول المشيئة والإرادة في باب لو وباب الشرط ففي القرآن العظيم منه كثير. منها قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ تقديره ولو شاء الله أن لا يقتتلوا ما اقتتلوا فحذف مفعول المشيئة لدلالة ما بعده عليه. ومنه قوله تعالى: ﴿ولو شاءَ لهَداكم﴾ تقديره ولو شاء الله هدايتكم كلكم لهداكم أجمعين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ولو شاءَ اللهُ ما فعَلوهُ﴾ ومثله في القرآن كثير. وقد[1] ومنه قوله تعالى: ﴿لو أرَدْنا أن نتّخذ لَهْواً لاتخذْناه من لدُنا﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿لو أرادَ اللهُ أنْ يَتخذَ وَلداً﴾.. وقد ظهر مفعول المشيئة في قول الشاعر:

ولــو شئتُ أن أبكي دَمــاً لبـكيـتُــهُ عليـكَ ولكنْ سـاحـةُ الصبـرِ أوْسـعُ

.. وأمـا حذف مفعـول الإفساد. فمنـه قولـه تعـالى: ﴿إنّ اللهَ لا يُحبُّ المفسدين﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذا قيلَ لهم لا تفْسِدُوا في الأرضِ قـالوا إنمـا نحنُ مُصلِحون﴾. وقوله تعالى: ﴿يُفسدون في الأرضِ ولا يُصلِحون﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تفسِدُوا في الأ ض بعد إصلاحِها﴾ وهو كثير. الثاني ما يحذف لدلالة السياق عليه. فمنه قوله تعالى: ﴿يَبسُطُ الـرزقَ لمَن يشاءُ ويَقـدِرُ ولكنَّ أكثـرَ الناس لا يَعلمـون﴾ تقديـره ولكن أكثر النـاس لا يعلمون أن الله القـابض الباسط. وقوله تعالى: ﴿وما يخادعـون إلاّ أنفسَهم وما يَشعُـرُون﴾ تقديـره وما يشعرون أنهم لأنفسهم يخادعون ونحوه.

ونذكر هاهنا قاعدة ينبني عليهـا حكم الفاعـل والمفعول وهـو أن العرب ينظرون إلى مقصود الإفادة في هذا الباب ونحوه فإن كان المقصود نسبة الفعل إلى الفاعل اقتصروا عليه فقالوا ـ فلان يُعطي ويمنع ويصل ويقطع. والله يحيي ويميت ـ لأنه ليس الغـرض ذكر المعطي والممنوع الموصول والمقطوع والمحيا والممـات ولكن الغرض وصف الفـاعل بهـذه الأفعال. فـإن كان الغـرض ذكر المفعول لا غير لم يتعرّضوا للفاعل كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الخـرّاصون﴾. وقـوله تعالى: ﴿قتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه﴾. وقولـه تعالى: ﴿كبتـوا كما كبتَ الـذين من قبلهم﴾. وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كَسَبوا﴾ وقوله تعالى: ﴿لعِنوا بما قالوا﴾ ليس الغرض من هذا ذكر الكابت ولا القاتل ولا اللاعن ولا المبسل وإنما الغرضْ نسبة القتل واللعن والكبت والابسال إلى المذكـورين. وإن تعلق

---

(١) كذا في الأصل.. والظاهر أنه أراد وأما حذف مفعول الإرادة في باب الشرط وباب لو ففي القرآن منه كثير ومنه الخ.

الغـرض بالفـاعل والمفعـول أتـوا بهمـا كقـولـه تعـالى : ﴿خَلَقَ اللهُ السمـوات والأرض﴾. وقوله: ﴿وخَلقَ كلَّ شيءٍ﴾. وقولـه: ﴿بل لعَنهمُ الله بكفـرِهم﴾. وقـولـه: ﴿فبمـا نقْضهمْ ميثـاقَهم لعَنـاهم﴾. . . ومن ذلـك حــذف ضمـائــر الموصولات. ومنه قوله تعالى: ﴿أهذا الذي بَعثَ اللهُ رسولاً﴾ تقديره أهذا الذي بعثه الله رسولاً. وقوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبُدون من دونِ الله حَصَبُ جهنمَ﴾ تقديره إنكم وما تعبُدونه أو تعبدونهم. وقوله تعالى: ﴿وما ذَرَأ لكم في الأرض﴾ تقديره وما ذرأه. وقوله تعالى: ﴿وما خلقَ اللهُ من شيءٍ﴾ تقديره خلقه الله. ومنه في القرآن العظيم كثيـر. . الثالث حذف المضـاف تارة والمضـاف إليه أخـرى وإقامة أحدهما مقـام الآخر. . أمـا حذف المضـاف فكقولـه تعالى: ﴿واسـألِ القـرْية التي كنّـا فيها﴾ وكـذلك: ﴿إذا فتِحتْ يـأجوجُ ومـأجـوجُ﴾ أي فتحت سُـدَدُهم. وربما نكـرت المحذوف كمـا في قـولـه: ﴿فقبَضتُ قَبْضـةً من أثـرِ الرَّسولِ﴾ يريد من أثر حافر فرس الرسول. . ومنه قول الشاعر:

إذا قـامتا تضـوَّعَ المسـكُ منهمـا نسيم الصَّبا جاءتْ بريّا القَـرَنفلِ

. . وأما حذف المضاف اليه فهو أقلّ استعمـالاً. ومنه قـوله تعـالى: ﴿لله الأمرُ مِن قبل ومن بعدْ﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده. . الرابع حذف الصفة تارة وحذف الموصوف أخرى. أمـا حذف الصفـة فكقول النبي ﷺ لا صـلاة لجار المسجد إلا في المسجد. أي لا صلاة تامة أو كاملة. وأما حـذف الموصـوف فأكثره في النداء والمصدر. . أما النداء ففي قوله تعالى: ﴿يا أيها الساحر﴾ تقديره يا أيها الرجل الساحر. وكذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا. وقوله تعالى: ﴿يا أيها المؤمنون﴾ تقديره يا أيها القوم المؤمنون. . وأمـا المصدر فكقوله تعالى: ﴿ومَن تابَ وعمِلَ صالحاً﴾ وقد يجيء في غير النـداء كما في قول البحتري:

في أخضـرٍ مـاس على أصفـر يـخـالُ في صـبـغـتِـه وَرْسُ

يـريد على فـرس أصفر. . الخـامس حذف الشـرط تارة وحـذف الجزاء أخرى وإقامة أحدهما مقام الآخر. . أما حذف الشرط فكقوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ﴾ أي فإذا كنتم في أرض لا تتمكنوا فيها من عبادتي فإياي فاعبدون في غيرها. وقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً مِن رأسِهِ ففدْيةٌ﴾ أي فإن لم يحلق فعليه فدية. . وأما حذف جـزاء الشرط فكقـوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به﴾معناه إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين. ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يهدِي القومَ الظالمين﴾. . السادس حذف القسم تارة وجوابه أخرى. .أما حذف القسم فكقولك لأضربن زيداً. أي والله لأضربنّ زيداً. وكقـوله تعـالى: ﴿وإن منكم إلا وارِدُها﴾ تقديره وإن منكم والله إلا واردها. ولهذا أشار ﷺ بقوله لن يَرِدَ النـار إلاّ تحلّة القسم. ومنه قـوله تعـالى: ﴿لَتُبْلَوُنّم في أمـوالكم وأنفسكم﴾. وقولـه تعالى: ﴿لتـرَوُنّ الجحيمَ﴾ وهو في القـرآن العظيم كثيـر. . أما حـذف جواب القسم فكقوله عالى: ﴿والشّفْعِ والوَترِ والليل إذا يَسْرِ هلْ في ذلك قَسمٌ لذي حِجْرٍ﴾ معناه وحق هذه لأعذبن هؤلاء. يدلّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿ألم ترَ كيف فعَلَ ربّكَ بعادٍ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيدِ بلْ عجبوا أن جـاءهمْ منْذرٌ منهم فقـالَ الكافـرون هذا شيءٌ عجيبٌ﴾ معنى ـ ق والقـرآن المجيد ـ لتبعثنّ ويدل على ذلك قوله: ﴿أإذا مِتنا وكنّا تراباً ذلك رَجعُ بعيدٌ﴾. . السابع: حذف جواب ـ لو ـ وهو في القرآن كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿ولـوْ ترَى إذ فزِعوا فلا فَوْتَ وأخِذوا منْ مَكانٍ قريب﴾ تقديره لرأيت أمراً هائلاً ونحو ذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى رُكْن شديدٍ﴾. تقديره لمنعتكـم ونحو ذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولوْ أن قرآناً سُيِّرت به الجبـالُ﴾ تقديره لكان هذا القرآن. . الثامن حذف جواب ـ لولا ـ كقوله تعالى: ﴿ولـولا فضلُ الله عليكم ورحمَتهُ وأنّ الله توابٌ حكيمٌ﴾ تقديرهُ لما أنزلَ عليكم ستر هذه الفاحشة. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورَحمَتُهُ وأنّ اللهَ رؤفٌ رحيمٌ﴾ تقديره لعجل لكم العذاب. ويدلُ على المحذوف في هاتين الآيتين ما تقدمهما. . التاسع حذف جواب ـ لمّـا ـ وهو في القرآن كثير. من ذلـك قولـه

تعالى: ﴿فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناهُ أن يا ابراهيمُ صد صـدّقتَ الرؤيـا﴾ تقديره كانْ ما كان من اغتباطهما بما أنعم الله عليهما من دفع ذلـك البلاء. . . العاشر حذف جواب ـ أما ـ كقوله تعالى: ﴿فأما الذين اسودَّتْ وُجوهُهم أكفرْتُمْ بعد إيمانكم﴾ تقديره فيقال لهم ـ أكفرتم بعد إيمانكم ـ. الحادي عشر حذف جواب ـ إذا ـ كقوله تعالى: ﴿وإذا قيـلَ لهمُ اتقوا مـا بين أيديكم ومـا خلفَكم لعلّكم تُرحمون وما تأتيهم من آيـةٍ من آياتِ ربهم إلّا كانـوا عنها معـرِضين﴾ تقـديره ـ وإذا قيـل لهم اتقـوا مـا بين أيـديكم ومـا خلفكم لعلكم تـرحمـون ـ أعرضوا ـ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلّا كانوا أيضاً عنها معرضين ـ.

قال المصنف عفا الله عنه: هذه الأجوبة المحذوفة بعضها يصلح أن يكون في باب حذف الجمـل وبعضها يصلح أن يكـون في باب الأفعـال لكن الأئمة أوردوها هكذا فأوردناها كما أوردوها والمتأمل اللوذعي لا يخفى عليه ذلك. . الثـاني عشر حـذف المبتدأ تـارة والخبر أخـرى. . أما حـذف المبتدأ فكقـول المستهل ـ الهلال والله ـ معناه هذا الهلال. وكذلك قول من شمّ رائحـة طيبة ـ المسك والله ـ وكذلك من رأى شخصاً فقـال ـ عبدُ الله ورب الكعبـة ـ أي هذا عبد الله. وحذف المبتدأ في القرآن العظيم كثير. منه قوله تعالى: ﴿وقالوا ساحرٌ كذّابٌ﴾ تقديره فقالوا ـ هذا ساحر كذاب ـ ومنه: ﴿إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ. وقـالوا أسـاطيرُ الأوَّلين﴾. . وأمـا حذف الخبـر فكقول بعضهم ـ خـرجتُ فإذا السبـعُ ـ تقديره قائم أو رابض. وهـو في القرآن كثيـر. من ذلك قـوله تعـالى: ﴿وطعام الذين أوتـوا الكتابَ حـلٌّ لكم وطعامُكم حِـلٌّ لهم. والمحصناتُ من المؤمناتِ﴾ تقديره والمحصنات من المؤمنات كذلك. وقول الله تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾ شاهد للوجهين يجوز أن يكون من باب حذف الخبر ومن بـاب حذف المبتدأ فإن جعلته من حذف المبتدأ كان التقدير فالأمر أو فأمري صبر جميل وإن جعلته من باب حذف الخبر يكون التقدير فصبر جميل أجمل. . وقـد يحذفـان جملة وهو قليل. ومنه قوله تعالى: ﴿واللائي يئِسن من المحيضِ من نسائكم إنِ

ارتبتم **فعِدّتُهُنّ ثلاثةُ أشهرٍ واللائي لم يَحِضنَ** تقديره واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

وأما الأفعال: فحذفها على قسمين. الأول ما دل على حذفه بيان مفعوله كما في قوله تعالى: ﴿**ناقةَ الله وسُقياها**﴾ وكقول النبي ﷺ لجابر وقد تزوّج: «هلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك» أي هلا تزوجت جارية بكراً. وكذلك قولهم - أهلك والليل - أي أدرك أهلك وبادر الليل. ومنه في القرآن كثير. الثاني ما لا يدل عليه مفعوله ولكن يعرف بالنظر كقوله تعالى: ﴿**وعُرِضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ولقد جئتمونا فُرَادَى كما خلَقناكم**﴾ معناه فقيل فقد جئتمونا. وكذلم: ﴿**ويومَ يُعرَضُ الذين كفرُوا على النارِ أذْهبتم طيّباتِكم**﴾ وكذلك: ﴿**فأجمِعوا أمركم وشركاءكم**﴾ والمراد فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرْبَ الرّقاب**﴾. أي فاضربوا رقابهم ضرباً. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وقالَ الملِكُ ائتوني به أستخلِصْه لنفسي فلمّا كلَّمهُ قالَ إنك اليومَ**﴾ تقديره فأتوه به - فلما كلمه -.

وأما حذف فعل الأمر فله مثال واحد كقوله تعالى: ﴿**إنما أمِرْتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة**﴾. وقوله تعالى: ﴿**أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكماً**﴾ تقديره قل - أفغير الله أبتغي حكما -.

وأما الحروف: أعني حذف الحروف التي لها معان وليست حروف الهجاء التي تكلم النحويون على إثباتها وحذفها وإبدالها لأنهم أرادوا بذلك تصحيح الألفاظ وردّها إلى أصولها وليس هذا من غرضنا في هذا الكتاب إنما غرضنا الحروف التي يفيد حذفها وإثباتها معنىً لم يكن. . وهي عند علماء البيان على قسمين. مفردة ومركبة.

فالمفردة: مثل - الواو - التي حذفها مع ما فيه من الإيجاز يجعل للكلام بلاغة ويكون في معناه أشد وذلك لأن إثباتها يقتضي تغاير المطعوف والمعطوف عليه فإذا حُذِفت أشعر ذلك بأن الكل كالشيء الواحد. ومن ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه - كان أصحاب النبي ﷺ ينامون ثم يصلون لا يتوضؤن -

إثبات الواو أدل على عدم الوضوء من قوله ـ لا يتوضؤن ـ. ومن هذا النوع قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطانةً من دُونِكم لا يألونكم خَبالاً وَدُّوا ما عَنتمْ قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم﴾** تقديره ولا يألونكم خبالاً وقد بدت البغضاء. وقد ثبت الواو فيما من شأنه أن لا يكون فيه واو فيكون ذلك أيضاً أبلغ وأحسن كما في قوله تعالى: **﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم﴾**.

وأما المركب: فكثير وهو على أقسام. الأول حذف ـ لا ـ في قوله تعالى: **﴿تاللهِ تَفتأُ تَذكُرُ يوسُف﴾** تقديره لا تفتأ تذكر يوسف أي لا تبرح. ومنه قوله تعالى: **﴿وعلى الذين يُطيقونهُ فِدْيةٌ طعامُ مسكينٍ﴾** تقديره وعلى الذين لا يطيقونه على قول بعض المفسرين. ومثله في القرآن العظيم كثير. ومنه قول امرئ القيس:

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرَحُ قاعداً ... ولو قطَعوا رأسي لدَيكِ وأوْصالي

معناه لا أبرح قاعداً. الثاني حذف ـ لو ـ وهو في قوله تعالى: **﴿ما اتّخذَ اللهُ من وَلدٍ وما كان معهُ من إله إذاً لذَهبَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ ولَعَلاَ بعضُهم على بعضٍ﴾** تقديره لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق. وقوله تعالى: **﴿وما كنتَ تتلو من قبلهِ من كتابٍ ولا تخُطهُ بيمينِكَ إذاً لارْتابَ المبطلون﴾** معناه لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون. ومن هذا النوع قول الشاعر:

لو كنتُ من مازِنٍ لم تَستبحْ إبِلي ... بنو اللَّقيطةِ من ذُهْلِ بنِ شيبانا
إذاً لقامَ بنصري مَعشر خُشُنٌ ... عندَ الحَفيظةِ إنْ ذو لوْثةٍ لانا

تقديره إذاً لو كنت منهم لقام بنصري:

الحذف القبيح: وسبب قبحه إخلاله بالمعنى. قال ابن الأثير ومن الحذف أيضاً المخل بالمعنى وهو يطلق على ما يحذف من أصل اللفظ وهو إسقاط بعض حروفه ولا يجوز استعماله في القرآن العظيم ولا في التأليف لكنه يجوز في الشعر لأن العرب قد أوردته في أشعارها واستعملته في كلامها فحذفت بعض الألفاظ استخفافاً حذفاً لا يخل بالباقي وتعرُّض بالشبهة. فمنها قول علقمة:

كـأنَّ إبـريقَهـم ظـبيٌ عـلى شَـرَفٍ   مُـفـدَّمـاً بسَـبـا الكَـتَّـانِ مَـلثـومُ

فقوله ـ بسبا الكتان ـ يريد بسبائب الكتان. وكذلك قول لبيد:

دَرَسَ المَنا بمُتَالعٍ فأبانِ

أراد المنازل. وعلى نحو من هذا جاء قول أبي دُؤاد

يـذرينَ جَندَلَ جـابرٍ بجنـوبهـا   فكـأنما تُـذكى سَنابِكُهـا الحُبا

أراد الحباحب ـ والحباحب ـ طائر على مثال الجُنْدُب الصغير يُرى منه نور ضعيف ليلاً. وهذا وأمثاله قليل جداً وإياك أيها المؤلف أن تستعمله في كلامك وإن كان جائزاً وقد ورد في أشعار العرب مثله.

قال المصنف عفا الله عنه: هذا الذي ذكره ابن الأثير فيه نظر لأنه قد صح عن ابن عباس وجماعة من أكابر الصحابة والسلف الصالح أن هذه الحروف التي في أوائل السور كل حرف منها دال على كلمة حُذف أكثرها ودل هذا المنطوق به على المحذوف. وقالوا إن معنى ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله الملك. وقالوا في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أن الكاف من كافٍ والهاء من هاد. واستدلوا على ذلك بأن العرب استغنت بذكر حرف من الكلمة عن ذكرها في كثير من كلامها وأشعارها ففهمت المراد من ذلك الحرف. ومنه قول الشاعر:

جـاريـةٌ قــد وعـدَتني أن تــا   تــدْهنَ رأسي أو تفلي أو تــا

أراد أن تأتي وتدهن رأسه وتفلي أو تمسح. وقال آخر:

نــادَوهـمُ أن تُلْجمــوا الآ تــا   قالوا جميعاً كلهم الاَّ فا

.. وقال آخر:

قلتُ لهــا ألا قفي قــالت قــاف   لا تحسبنْ أنــا نسينـا الالحــاف

أي قف أنت. ومثل هذا في أشعار العرب وكلامهم كثير وإذا كثر استعماله كـان من الكلام الفصيـح معدوداً وحسن في التـركيب وكلما بعـد غور الكلمـة

واستعجم معناها كان فهمه بـأول وهلة دليلاً على صحـة الأفهام وجـودة الغرائز وسلامة الطباع وحسن موقع اللفظ به.

فصـل

ومن أنواع المحذوف أن يكون اللفظ مركباً ولكن ليس بكلام وذلك كقوله تعالى: ﴿**قال كذلك قال ربكِ هو عليَّ هيِّنٌ ولنجعله آيةً للناس**﴾ تقديره وجعلناه لنجعله آية للناس فيكون المحذوف ههنا هو السبب والدال عليه هو سببه.. وقد يكون بعكس هذا كمـا في قولـه تعالى: ﴿**فـإذا قرَأتَ القـرآنَ فاستعـذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم**﴾ تقديره وإذا أردت قراءة القرآن فـالمحذوف هنـا الإرادة وهي سبب القراءة ويجوز أن يكون التقدير وإذا قرأت القرآن وحضرك الشيطان فاستعذ بالله من الشيـطان الرجيم.

* * *

القسم الثالث والعشرون
في التقديم والتأخير

والكلام عليه من وجوه ثلاثة:

الأول في ذكـر المعنى الذي أتى بـه من أجله. الثـاني في هـل هـو من المجاز أم لا. الثالث في أقسامه.

أما الأول: فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم للكلام وتلعبهم به وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه وانقيـاده لهم لقوة ملكتهم فيـه وفي معانيه ثقة بصفاء أذهـانهـم وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزاً بليغاً وله في النفوس حسن موقع وعذوبة مذاق.

وأما الثاني: فقد اختلف أرباب علم البيان فيه.. فقال قوم هو من المجاز لأن فيـه تقديم ما رتبته التـأخير كـالمنقول وتـأخير مـا رتبته التقـديم كالفـاعل

والمفعول به في نقل كل واحد منهما على رتبته وحقه. . وقال قوم ليس هو من المجاز لأن المجاز نقل مما وضع له إلى ما لم يوضع له.

وأما الثالث: فقال علماء هذا الشأن أقسامه أربعة. . وقالوا التقديم والتأخير لا يخلو إما أن يكون موجباً لزيادة في المعنى أو لا يكون كذلك وإما أن يكون ما قدم الأولى به التقديم أو الأولى به التأخير أو يتكافأ الأمران فيه. . أما الأول فهو ما يلزم فيه زيادة معنى فلا يخلو إما أن يكون المقصود بتقديمه زيادة المعنى خاصة كقوله تعالى: ﴿**إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ**﴾ فإنّ المقصود بتقديم ـ إياك ـ تعظيم الله سبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى ليصير الكلام حسناً متناسقاً ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسباً. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وجوهٌ يومئذٍ ناضرَةٌ إلى رَبها ناظرةٌ**﴾ فإن هذا مع إفادته إن نظرها لا يكون إلا إلى الله تعالى يفيد في جودة انتظام الكلام. وكذلك قوله تعالى: ﴿**والتفت الساقُ بالساقِ إلى ربّك يومئذٍ المساقُ**﴾. وأما ما يراد بتقديمه زيادة المعنى فقط. فمنه تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿**قلْ أفَغيرَ الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلونَ**﴾. وكذلك: ﴿**بلِ الله فاعبدْ وكن منَ الشاكرين**﴾ فإن المراد ها هنا بتقديم المفعول لتخصيصه بالعبادة ولو أخره ما أفاد ذلك فإنه لو قيل ضربتُ زيداً لم يشعر ذلك باختصاص زيد بالضرب ولا كذلك لو قيل زيداً ضربت. ومنه تقديم الخبر على المبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿**وظنوا أنهم ما نعتُهمْ حصونهمْ من الله**﴾ ولو قال وظنوا أن حصونهم من الله ما نعتهم لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم. وكذلك: ﴿**أراغبٌ أنت عن آلِهتي يا ابراهيم**﴾ ولو قال أأنت راغب عنها ما أفاد زيادة الانكار على ابراهيم بالرغبة عنها. وكذلك: ﴿**واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هي شاخِصةٌ أبصارُ الذين كفروا**﴾ ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة وكان يستغني عن الضمير لأن هذا لا يفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص ولا اختصاص الذين كفروا بالضمير. وكذلت قوله ﷺ في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته». وكذا تقديم لظرف في الهيئات كقوله تعالى: ﴿**إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهمْ**﴾. .

وتقديم الجار والمجرور كقوله تعالى: ﴿له الملكُ وله الحمدُ﴾ فإن هذا يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى.. وأما إذا كان الظرفُ في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه كما في قوله تعالى: ﴿لا فيها غوْلٌ ولا هم عنها ينزفون﴾ أي ليس في خمر الجنة ما فيْ خمر غيرها من الغول. وأما تأخيره فإنما يفيد النفي فقط كما في قوله تعالى: ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ وكذلك إذا قلت لا عيب في الدار كان معناه نفي العيب عن الدار وإذا قلت لا في الدار عيب كان معناه أنها تفضل على غيرها بعدم العيب.. أما الثاني فهو ما لا يلزم تقديمه زيادة في المعنى ومع ذلك يكون تقديمه أحسن وهذا إنما يكون كذلك لأمر يتعلق بالمتقدم والمتأخر أو لأمر خارج عنهما. والذي لأمر يتعلق بهما إما أن يكون ذلك بالنسبة إلى شيء خارج عنهما أو لا يكون كذلك. فالأول كما إذا كان التقدم أدل على قدرة الخالق من التأخر كقوله تعالى: ﴿فمنهمْ من يمشي على بطْنِه ومنهمْ مَنْ يمشي على رجلينِ ومِنهمْ منْ يمشي على أرْبعٍ﴾. والثاني إما أن يكون للمتقدم تأثير في وجود المتأخر أو لا يكون كذلك[1]. والثاني كما إذا كان المتقدم أكثر وجوباً كما في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ والأول إما أن يكون المتقدم في الوجود المتأخر بالذات أو بالعرض. أما الذي بالذات فكما في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً طهورا لنحييَ به بلدة ميتاً ونسقيَه مما خلَقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً﴾ فإنه قدم الأنعام لأن صلاح حالها سبب لصلاح حال الناس. وأما الذي بالعرض كما في قوله تعالى: ﴿إياكَ نعبُدُ وإياكَ نستعين﴾ فإنه قدم العبادة لأنها وسيلة إلى تحصيل الاستعانة. وأما الذي يكون كذلك لأمر خارج عن المتقدم والمتأخر فإما أن يكون ذلك لأجل كلام تقدم أو لا يكون كذلك. والذي لأجل الكلام المتقدم إما أن يكون لتعلق المذكور أوّلاً به أو لتعلقه هو بالمذكور أوّلاً. والأول كما في قوله تعالى: ﴿وما يَعزُبُ عن ربك من مِثقالِ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ﴾ فإنه قدم ـ الأرض ـ لأن هذا بعد قوله تعالى: ﴿ولا تعمَلون من عمل إلا كنّا

(١) بياض في الأصل.

عليكم شهُوداً إذ تُفيضون فيه﴾ وهذا الخطاب لأهل الأرض وعملهم يكون في الأرض. والثاني إما أن يكون ذلك لما يتعلق بمعنى الكلام الأول أو بلفظه. والمتعلق بمعناه كما في قوله تعالى: ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ﴾ فإنه قدّم الشقي لأن المراد بهذا وما قبله التخويف. والمتعلق بلفظه كما في قوله تعالى: ﴿فأما الذين شقُوا ففي النارِ﴾ ثم قال: ﴿وأما الذين سُعدوا ففي الجنة﴾ فإن تقديم حال الأشقياء ها هنا لأجل تقديمه أوّلاً الشقي. والذي يكون كذلك لا لأجل المتقدم إما أن يكون لأجل حال في الكلام نفسه أو لا يكون كذلك. والثاني كما في قوله تعالى: ﴿يَهبُ لمن يشاءُ إناثاً ويَهَبُ لمن يشاءُ الذُّكورَ﴾ فإن تقديم الإناث هنا إنما كان لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئته سبحانه وتعالى لا على وفق العباد. والأول كما إذا كان يتم بذلك السجع وذلك كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿خذوه فغلّوهُ ثم الجحيمَ صلّوهُ﴾ ولو قال ثم صلوه الجحيم لأفاد المعنى ولكن كان يفوت السجع فلذلك كان الأحسن تقديم الجحيم. وقيل أن هذه الصورة تفيد أيضاً الاختصاص كما في القسم الأوّل. . قال الإمام فخر الدين وهو الذي يظهر لي وإن منعه الآخرون فهذه أسباب عشرة وقد يجتمع في شيء واحد عدة منها فيكون تقديمه أولى وإذا تعارضت أسباب روعي أقواها وإن تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الأمرين معاً. وأما الثالث فهو الذي لا يلزم تقديمه زيادة في المعنى ويكون الأحسن تأخيره فإذا قدّم كان ذلك مفاضلة معنوية وذلك كتقديم الصفة على الموصوف والعلة على المعلول ونحو ذلك. وهذا لا يمكن وروده في القرآن لركته وسماجته. مثاله قول الفرزدق:

وما مثلهُ في الناسِ إلا مُملَّكاً أبو أمِهِ حيٌّ أبوهُ يُقاربه

معناه وما مثله في الناس حيّ يقاربه إلا مُملكاً أبو أمه أبوه. وقال أيضاً:

إلى مَلكٍ ما أمهُ من محاربٍ أبوهُ ولا كانت كليبٍ تُصاهرُه

معناه إلى ملك أبوه ما أمه من محارب أي ما أم أبيه منهم. وقال أيضاً:

وليست خُراسانُ الذي كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كان سَيفاً أميرُها

معناه ليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها. والغرض مدح خالد وذم أسد المتولي بعده.

وأما الرابع: فهو ما يتكافأ تقديمه وتأخيره وهذا كالحال فإنه يقدّم كقولك ـ جاء راكباً زيد ـ ويؤخر كقولك ـ جاء زيد راكباً ـ وهما سواءٌ. وكذلك المستثنى كقولنا ـ ما قام إلا زيداً أحد. وما قام أحد إلا زيداً ـ. وقد وقع في الكتاب العزيز آيات فيها تقديم وتأخير جارية على نمط ما تقدّم. من ذلك قوله تعالى: ﴿**حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلِها**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزَّبورِ من بعدِ الذّكرِ**﴾ على قول من قال إن الذكر ها هنا القرآن.. وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿**ولقد هَمّتْ به وهمَّ بها لولا أن رأى بُرْهانَ ربهِ**﴾ أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه همّ بها وهذا حَسنٌ لكن في تأويله قلق ولا يُضطر إلى هذا التأويل إلا على قول من قال أن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر. وأما على قول من قال أن الصغائر يجوز وقوعها منهم. فلا يضطر إلى هذا التقديم والتأخير.. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**اقترَبت الساعةُ وانشقَّ القمرُ**﴾. وقوله تعالى: ﴿**فجعلهُ غُثاءً أحوَى**﴾ والتقدير فجعله أحوى غثاء. ومنه قول الشاعر:

طافَ الخيالُ وأين منكَ لِمَاما فارْجعْ لزَوْرِكَ بالسلامِ سلاما

تقديره طاف الخيال لماماً وأين منك.. وقال الفرزدق:

نُفلّقُ ها مَن لم تَنلْهُ سُيوفنا بأسيافِنا هامَ الملوكِ القَماقمِ

تقديره نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم ومن لم تنله سيوفنا ـ وها ـ للتنبيه تقديره تنبهوا لهذا المعنى. وإنما دعاه إلى التقديم والتأخير إيقاع اللبس على السامع وجعله من باب الألغاز.

* * *

القسم الرابع والعشرون
في الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظة واحدة

والجمع بينهما عند من رآه مجازاً لأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له فإنه وضع للحقيقة وحدها ثم استعمل فيها وفي المجاز. وله أمثلة:

أحدها في قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين﴾ - ولعنة الله - ابعاد - ولعنة الملائكة والناس - دعاؤهم بالابعاد وقد جمعهما في لفظة واحدة ومن لا يرى ذلك يقدر أولئك عليهم لعنة الله ولعنة الملائكة فيكون من مجاز الحذف. والثاني منه قوله تعالى: ﴿إنّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلّون على النبيّ﴾ - الصلاة - حقيقة في الدعاء مجاز في إجابة الدعاء لأن الإجابة مسببة عن الدعاء فصلاة الملائكة حقيقة لأنها دعاء وصلاة الله من مجاز التعبير بلفظ السبب الذي هو الدعاء عن المسبب الذي هو الإجابة وقد جمع بينهما في قوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ فيكون الضمير في - يصلون - لله والملائكة وجمعه معهم في الضمير مستكره فإن رسول الله ﷺ أنكر على بعض خطباء العرب قوله - ومن يعصهما فقو غوى - وقال بئس خطيب القوم أنت وقد جمع بينهما عليه الصلاة والسلام في قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما» وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «فإن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم» وإنما أنكر على الأعرابي الجمع لاعتقاده التسوية بينهما والرسول عليه الصلاة والسلام آمنٌ من ذلك. ومن لا يرى الجمع بين الحقيقة والمجاز يقدر أن الله يصلي على النبي وملائكته يصلون على النبي فيكون يصلون على النبي حقيقة في حق الملائكة ويكون يصلي المقدرة مجازاً في حق الله. وكذلك القول في قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ في الجمع بين الحقيقة والمجاز وأفرادهما. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿واللهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضوهُ﴾ لو قال أحق أن يرضوهما لكان جامعاً بين الله ورسوله في الضمير وبين الحقيقة والمجاز فإن رضى الرسول عليه الصلاة والسلام حقيقي ورضى الله

تعالى مجازي. ومن لا يرى ذلك يقول والله أحق أن يرضـوه ورسولـه أحق أن يرضوه كقول الشاعر:

نحنُ بما عندنـا وأنتَ بما عنـ ـدك راضٍ والـرَّأيُ مختـلفُ

وهذه الأربعة وعشرون قسماً التي ذكـرناهـا من أقسام المجـاز تحت كل قسم منها أقسام كثيرة يعرف ذلك من تأملها ونظر فيها. وحيث انتهى الكلام في الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز فلنأخذ في ذكر ما تضمنه الكتاب العزيز من فنون البلاغـة وعيون الفصـاحة وضـروب علم البيان وبـدائع البـديع وأجنـاس التجنيس. . ولنبـدأ من ذلك فيمـا يتعلق بالمعـاني ثم نتلوه بما يتعلق بـالألفاظ والاعتمـاد في ذلك معـونة الله تعـالى وتوفيقـه وتيسيره وهـدايتـه إلى الصـواب والإرشاد إلى ما يؤدي إلى جزيل الثواب وحسن المآب. .

أما ما يختص بالمعاني فينقسم إلى أقسام:

الكلام على ما يختص بالمعاني

القسم الأول

التناسب. ويسمى التشابه أيضاً

وهو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر. والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه ولا تباين.. ومنه قول النابغة:

الـرفق يُمنٌ والأنـاةُ سَعـادةٌ   فـاستأن في رفق تنـالُ نجاحـا
واليأسُ عما فـات يُعقِبُ راحةً   ولـرُبَّ مَـطعمـةٍ تعـودُ ذِبـاحـا

ويسمى التشابه أيضاً.. وقيل التشابه أن تكون الألفاظ غير متباينة ولكن متقاربة في الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة وتكون المعاني مناسبة لا لفظها من غير أن يكنى اللفظ الشريف المعنى السخيف أو على الضد بل يصاغان معاً صياغة تتناسب وتتلاءم حتى لا يكون الكلام كما قيل:

وبعضُ قَـريضِ القومِ أولادُ عَلةٍ   يُكـلُّ لسـانَ النـاطقِ المتحفّظِ

قال المصنف عفا الله عنه: المناسبة عند أرباب هذا الشأن على قسمين معنوية، ولفظية. فالمعنوية أن يبتدىء المتكلم بمعنىً ثم يتمم كلامه بما يناسبه في المعنى دون اللفظ. ومنه قوله تعالى: **﴿وَرَدَّ اللهُ الـذين كفروا بغيـظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتال وكان اللهُ قويًّاً عزيـزاً﴾** أخبر سبحـانه في فاصلة الآية بأنه قويّ عزيـز ليدل على أن تلك الـريح التي أصـابت المشركين ليست اتفاقاً وليست هي من أنواع السحر بل هي من إرساله على أعدائه كعادته وسنته في أمثاله من نصره لعباده المؤمنين، مرّة بالقتال كيوم بدر ومرّة بالريح كيوم

الأحزاب ومرة بالرعب كبني النضير وأن النصر من عند الله لا من عند غيره ولهذا لم ينصرهم حين خالفوا نبيهم يوم أحد وحين أعجبتهم كثرتهم يوم حنين وبعد ذلك كانت العاقبة لهم. وقد صرّح سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وما النصرُ إلّا من عندِ اللهِ﴾. وقوله يعالى: ﴿إنْ يَنصُرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي يَنصرُكم من بعده﴾ ولو اقتصر على الآية ولم يذكر فيها ـ والله قوي عزيز ـ لخفي هذا المعنى وغمض والتبس الأمر فيه وأشكل. . . وأما المناسبة اللفظية فهي أيضاً على قسمين. تامة. وغير تامة. فالتامة أن تكون الكلمات مع الإبراز مقفّاة. والأخرى ليست بمقفاة فالتقفية غير لازمة للمناسبة. . فمن المناسبة التي ليست بمقفاة قوله تعالى: ﴿قٓ والقرآنِ المجيدِ بل عجبوا أن جاءَهم مُنذرٌ منهمْ فقالَ الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ﴾ وما سوى هذه التامة كقوله سبحانه وتعالى: ﴿نٓ والقلمِ وما يَسطُرُون ما أنت بنعمةِ ربّك بمجنونٍ وإنّ لك لأجراً غيرَ ممنون﴾. . . ومن التامة في السنّة قول النبي ﷺ ما كان يَرقي به الحسن والحسين عليهما السلام: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة» فقال ﷺ ـ لامّة ـ ولم يقل ملمة. وقوله ﷺ: «مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى بحسن المناسبة». ومثله قوله ﷺ: «ارجعنَ مأزورات غير مأجورات والمستعمل» موزورات. . لأنه من الوزر غير مهموز فلفظ به ﷺ لمكان المناسبة اللفظية التامة. وأما ما جاء من السنة الغير مقفاة فكقوله ﷺ: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً» فناسب ﷺ بين ـ أخلاق وأكناف ـ مناسبة أبراز دون تقفية. ومما جمع بين المناسبتين قوله ﷺ في بعض أدعيته: «اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي. وتجمع بها أمري. وتلم بها شعثي. وتصلح بها غائبي. وترفع بها شاهدي. وتزكي بها عملي. وتلهمني بها رشدي. وترد بها الفي. وتعصمني بها من كل سوءٍ اللهم إني أسألك الفوز في القضاء. ومنزل الشهداء. وعيش السعداء. والنصر على الأعداء فناسب ﷺ بين ـ قلبي وأمري . مناسبة غير تامة بالزنة دون التقفية ثم ناسب بين ـ الشهداء والسعداء ـ مناسبة تامة بالزنة والتقفية.

* * *

القسم الثاني

التكميل

وهو أن يتكلم المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون النظم والنثر ثم يرى مدحه فيه اقتصاد وقصور عن الغرض وأنه يحتاج إلى تكميل يزيده بياناً وإيضاحاً فيكمله بمعنى آخر. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**فسَوْفَ يأتِي اللهُ بقوْمٍ يُحبّهم ويُحبّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعِزّة على الكافرينَ**﴾ فانظر إلى هذه البلاغة فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وإن كانت صفة مدح إذ وصفهم بالرياضة لإخوانهم المؤمنين والانقياد لأمرهم كان المدح غير كامل فكمل مدحهم بأنْ وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم بالامتناع منهم والغلبة لهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿**محمدٌ رَسولُ اللهِ والذين معهُ أشداءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم**﴾ ومثاله من النظم قول كثيّر عزة:

ولو انّ عزة خاصَمتْ شمس الضحى   في الحُسنِ عند مُوفقٍ لقضى لها

* * *

القسم الثالث

التتميم

وهو أن تردف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس وتقربه إلى الفهم وتزيل عنه الوهم وتقرره في النفس. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا طائر يطيرُ بجناحيهِ إلا أممٌ أمثالكم**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبعة إذا رجعتمْ تلك عَشرةٌ كاملةٌ**﴾ ومثاله في القرآن كثير. ومثله قول امرىء القيس:

كأن قلوبَ الطّير رَطباً ويابساً   لدى وكرِها العنّابُ والحشفُ البالي

.. وقال آخر:

كـأنّ قلوبَ الطيـر حـولَ خبـائنـا وأرْحلنـا الجَـزْع الـذي لم يثقَّبِ

تممَ المعنى بقوله ـ الحَشفُ البالي. والجزع الذي لم يثقب ـ.

* * *

القسم الرابع

التقسيـم

وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء، مثل قوله تعالى: ﴿والله خلقَ كلَّ دابـة من ماءٍ فمنهمْ منْ يمشي على بَـطنِـهِ ومِنهمْ منْ يمشي على رجلين﴾ إلى قوله: ﴿ما يشاء﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربكَ نسيًّا﴾. ومثله في القرآن كثيرٌ وخصوصـاً في سورة بـراءة. ومثله في كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى:

وأعلمُ مـا في اليـومِ والأمس قبـلهُ ولكنني عن علم مـا في غـدٍ عَمى

وذكر ابن الأثير في جامعه أن أرباب علم البيان لم يريدوا بالتقسيم القسمة العقلية كمايذهب إليه المتكلمون، فإن القسمة العقلية تقتضي أشيـاء مستحيلة كما قالوا الجواهـر لا يخلو إما أن تكـون مجتمعة أو مفتـرقة أو لا مجتمعـة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معاً أو بعضها مجتمع وبعضها مفترق ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده فإن الشيء لا يكون مجتمعاً مفترقاً في حـالة واحـدة. وإنما أرادوا بالتقسيم ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجـوده وهو أن يـأتي المؤلف إلى جميع أقسام الكلم المحتملة فيستوفيها غير تارك منها قسماً واحـداً. فمن ذلك

قوله تعالى: ﴿ثم أوْرَثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عِبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتَصدٌ ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ بإذْنِ الله﴾ فإنه لا يخلو العالم جميعه من هذا التقسيم إما عاصٍ ظالم لنفسه وإما مطيع مبادر إلى الخيرات وإما مقتصد بينهما وهذا من أصح التقسيمات وأكملها فاعرفه.. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وكنتمْ أزْواجاً ثلاثةً فأصحابُ المَيمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ وأصحابُ المشئمةِ ما أصحابُ المشئمةِ والسابِقونَ السابقون﴾ الآية. أعلم أن هذه الآية مماثلة في المعنى لِما سبق ذكره ـ وأصحاب المشئمة ـ هم الظالمون لأنفسهم ـ وأصحاب الميمنة ـ هم المقتصدون ـ والسابقون ـ هم السابقون بالخيرات. وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿هو الذي يُريكمُ البرْقَ خوْفاً وطَمَعاً﴾ ألا ترى إلى براعة هذه القسمة فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع وليس لهم ثالث. وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة المنتصبين في صدرها يعجبون بقول بعض العرب في هذا المعنى ويقولون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قوله ـ النعم ثلاث. نعمة في حال كونها. ونعمة ترجى مستقبلة. ونعمة تأتي غير محتسبة. فأبقى الله عليك ما أنت فيه. وحقق ظنك فيما ترتجيه. وتفضل عليك بما لم تحتسبه ـ فقالوا إنه ليس في أقسام النعم التي يقع الإنتفاع بها قسم رابع سوى ما ذكره الأعرابي وهذا القول فاسد وهو أن في أقسام النعم التي قسمها ههنا نقصاً لا بد منه وزيادة لا حاجة إليها، أما النقص فإغفاله ذكر النعمة الماضية، وأما الزيادة فقوله بعد النعمة المستقبلة التي تأتي غير محتسبة وهذا خطأ فإن النعمة التي تأتي غير محتسبة هي داخلة في قسم المستقبلة وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم إلى قسمين. أحدهما يرجى حصوله ويتوقع بلوغه. والآخر لا يحتسب ولا يشعر بوجوده. فقوله: ﴿ونعمة تأتي غير محتسبة﴾ يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل في جملته ولو قال ـ ونعمة مستقبلة ـ من غير أن يقول ـ ونعمة تأتي غير محتسبة ـ لكان قوله كافياً إذ النعمة التي ترتجى والنعمة التي لا تحتسب يدخلان تحت قسم المستقبل وكان ينبغي أن يقول ـ النعم ثلاث. نعمة ماضية. ونعمة حال كونها. ونعمة تأتي مستقبلة. فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها ووفر حظك من النعمة

التي تستقبلها ـ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبّق به مفصل الخطاب فافهم ما ذكرناه وقس عليه. . وقف أعرابي على مجلس الحسن فقال رحم الله من أعطى من سعة. أو آسى من كفاف. أو آثر من قلة فقال الحسن ما ترك لأحد عذراً فانصرف الأعرابي بخير كثير. . ومن هذا الضرب ما ذكره أبو هلال العسكري في كتابه وذلك أنه أخذ على جميل قوله:

لــو أنَّ في قلبي كقَـدْرِ قُــلامــةِ حُبًّا وصلْتـكِ أو أتتــكِ رَسـائلي

فقال أبو هلال إن إتيان الرسائل داخل في جملة الوصل. وليس الأمر كما وقع له فإن جميلاً إنما أراد بقوله ـ وصلتك ـ أي أتيتك زائراً أو قاصداً أو كنتُ راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين القسمين إما رسالة أو زيارة. . وقال ابن الأثير ومن أعجب ما شاهدته في هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الأحنف:

وِصـالكم هَجرٌ وهَجْـرُكم قِـلاً وعَطفكم صدٌّ وسَلْمُكم حَرْبُ

ثم روى المشار إليه عن أبي القاسم الآمدي أنه قال إن بعض نقدة الكلام من البلغاء لما سمع هذا البيت قال والله هذا أحسن من تقسيمات اقليدس. ومن العجب كيف ذكر الغانمي ذلك في كتابه وفاته النظر فيه مع تقدمه في هذه الصناعة. وأعجب منهما جميعاً استحسان ناقد الكلام لهذا التقسيم ألا ترى أن هذا البيت يبنى عليه شيء آخر من جنسه فإنه لو أضيف اليه بيت غيره فقيل:

ولِينُكُم عُنـفٌ وقرْبُكمُ نـوى وإعطاؤكم منعٌ وصِدْقكمُ كِذْبُ

لجاز ذلك ويحتمل أن يزاد على هذا البيت بيت آخر ثالث ورابع ولو كان التقسيم في البيت الأول صحيحاً لما احتمل أن يضاف اليه شيء آخر البتة لأن من صحة التقسيم أن لا يحتمل الزيادة. . ومن نحو هذا قول بعضهم في حق مكسورين في الحرب فمن بين جريح مضرَّج بدمائه. وهارب لا يلتفت إلى ورائه فإن الجريح قد يكون هارباً والهارب قد يكون جريحاً ولو قال ـ فمن بين قتيل ومأسور وناج ـ لصح له التقسيم لأن المكسورين في الحرب الذين دارت

عليهم الدائرة لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة فإما قتيل أو مأسور أو ناج وأما الجريح فإنه يدخل في جملة الناجي والمأسور لأن كلاً منهما يجوز أن يكون جريحاً وأن لا يكون فاعرف ذلك وقس عليه.

* * *

القسم الخامس

المؤاخاة

وهي على قسمين. الأول المؤاخاة في المعاني. الثاني المؤاخاة في الألفاظ ويكون للكلام بها رونق لأنّ النفس يعرض لها عند الشعور شيء يُطلع إلى مناسبة فلا يرد إلا بعد تشوف ولا كذلك المباين فلذلك يقبح ذكر الشيء مع مباينه في المعنى المذكور فيه. ولذلك قبح قول الكميت:

أم هل ظَعائنُ بالعَلياءِ رافعةً ... وقد تكاملَ منها الدَّلُّ والشَّنَبُ

فإن ـ الدل والشنب ـ لا مناسبة بينهما. وكذلك يقبح الشيء مع مباينه في البناء. ولذلك قبح قول أبي تمام:

مُثَقَّفاتٍ سَلبنَ العُرْبَ سُمرَتها ... والرُّومَ وقتها والعاشقَ القَصفا

وكان ينبغي أن يقول ـ والعشاق قصفها ـ لكن منعه الوزن والقافية فلذلك لا يعاب هذا على الشاعر كما يعاب على الناثر إذ المجال للناثر متسع. ومما استقبح قول أبي نواس:

ألا يا ابن الذين فَنَوا فماتوا ... أما واللهِ ما ماتوا لتَبقَى

وما لكَ فاعلَمنْ فيها مقامٌ ... إذا استكْملْت آجالاً ورزقا

وكان ينبغي أن يقول ـ وأرزاقاً ـ واعلم أن استقباح تباين المباني دون استقباح تباين المعاني.

قال المصنف عفا الله عنه: التباين في المباني ليس بمستقبح وقد ورد في القرآن العظيم منه كثير. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿خَتمَ اللهُ على قلوبهم وسمْعهم وأبصارِهم﴾**. وكذلك قولـه تعالى: **﴿حتى إذا ما جاؤها شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم﴾** الآية.

* * *

القسم السادس

الاعتراض والحشو

وهو أن يدخل في خلال الكلام كلمة تزيد اللفظ تمكنـاً وتقيد معنى آخر مع أن اللفظ يستقل بدونها ويلتئم بغيرها مثل قوله تعز وجل: **﴿لتدْخُلُنّ المَسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمِنين﴾** وقوله تعالى: **﴿ولا تكْرِهوا فَتياتِكم على البغاءِ إن أرَدْن تحصناً﴾** أو لم يردن ولكن أفاد قوله: **﴿إن أردن تحصناً﴾** الاعلام بترغيب الشرع في التحصين وأنه مطلوبه. ومنه قوله تعالى: **﴿وادْخِل يَدَكَ في جبينـكَ تخرُجْ بيضاءَ مَن غير سوءٍ﴾**. وقوله تعالى: **﴿ويَجعلون للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يشتهون﴾**.

قال المصنف عفا الله عنه: قال ابن الأثير في كتابه الموسوم بالجامع الكبير الاعتـراض الصناعي عنـد أرباب علم البيـان على قِسمين. الأول لا يـأتي في الكلام إلا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد في كـلام العرب. والقسم الآخـر أن يأتي في الكلام لغير فائدة فإما أن يكون دخوله في التأليف كخروجه منه، وإما أن يؤثر في التأليف نقصاً وفي المعنى فساداً. فـالأول وهو الـذي يأتي في الكـلام لفائدة. فمنه قوله تعالى: **﴿فلا أقسمُ بمواقـعِ النجوم وإنـه لقسمٌ لو تعلمـون عظيم إنه لقرآنٌ كريمٌ في كتابٍ مكنونٍ﴾** هذا كلام فيه اعتراضان أحدهما قوله: **﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾** لأنه اعترض بين القسم الـذي هو ـ فـلا أقسم بمـواقع النجـوم ـ وبين جوابـه الذي هـو ـ إنـه لقـرآن كـريم ـ وفي نفس هـذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو ـ قسم ـ وبين صفته التي هي ـ عظيم ـ وهو قوله تعالى: **﴿لو تعلمون﴾** فذانّك اعتراضان ولو جاء الكلام غيـر

معترض فيه لوجب أن يكون فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هو تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لو تعلمون عظيم﴾ كيف هذا الاعتراض بين الصفة والموصوف وذلك أوقع في النفس لتعظيم المقسم به أي أنه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ووَصَّينا الانسانَ بوالديهِ حُسناً حملتهُ أُمُّهُ﴾ إلى: ﴿ولوالديك﴾ الآية. ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذي طبق مفصل البلاغة فإنه لم يؤت به إلا لفائدة كبيرة وذلك أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المشاق والمتاعب في حمل الولد مما لا يتكلفه الوالد. ومن ثم قال النبي ﷺ للذي سأله فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم ممن؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك». وفي رواية أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك.. ومما جاء على هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وإذ قتَلتم نفساً فادَّارَأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون﴾ إلى قوله: ﴿تعقلون﴾ فقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وفائدته أن يقرر في أنفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان ـ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ـ ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه.. ومن هذا الجنس قول النابغة:

لعَمري وما عمري عليّ بهيّنٍ   لقد نطقتْ بُطلاً عليّ الأقارع

فقوله ـ وما عمري عليّ بهين ـ من محموده ونادره لما فيه من تفخيم المقسم به.. وعلى نحو من هذا جاء قول كثيّر:

لو انّ الباخلين وأنت منهم   رأوْكِ تعلّموا منك المِطالا

فقوله ـ وأنت منهم ـ من الاعتراض الذي يؤكد به المعنى المقصود

ويزداد به مزية ونبلاً وفائدته هنا أن التصريح بما هو المراد يثبته في النفس ويقرره في الأذهان. . وقال بعضهم لعبد الله بن طاهر وهو أحسن ما قيل في هذا الباب:

إنّ الـثـمــانـيـن وبـلغـتَـهــا قد أحوجت سمعي إلى تَرْجمان

وأمثاله كثيرة. . . وأما الثاني وهو الذي يأتي في الكلام لغير فـائدة فهـو ضـربان. الأول أن يكـون دخولـه في التأليف كخـروجه منـه لا يؤثر حسنـاً ولا قبحاً. . فمن ذلك قول النابغة:

يقـولُ رجالٌ بجهلون خَليقتي لعلّ زياداً لا أبا لكَ غافلُ

فقوله ـ لا أبا لك ـ اعتراض لا فائدة فيه وليس مؤثراً في هذا البيت حسناً ولا قبحاً.

الضرب الثاني منه: وهو الذي يكون مؤثراً في الكلام نقصاً وفي المعنى فساداً. ومن قول بعضهم:

فقــد وأبيــكَ بيّن لي عِشــاءً بـوَشكِ فِـراقِهم صُـرَدٌ يصيحُ

فإن في هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره وهو الفصـل بين ـ قد ـ والفعل الذي هو ـ يئن ـ وذلك قبيح لقوة اتصال ـ قد ـ بما تدخل عليه من الأفعال ألا تراها تعدّ مع الفعل كالجزء منه ولذلك دخلت اللام المراد بها توكيد الفعل على ـ قد ـ في قوله تعالى: ﴿ولقد أوحَى إليك وإلى الذين من قبلك﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ولقد غلموا لمن اشتراه﴾. . وقوله الشاعر وهو الفراة السلمي:

وقــد أجـمــعُ رِجليَّ بهــا حـذَرَ المـوْتِ وإني لغـرورُ

إلا أنه إذا فصل بين ـ قد ـ والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به نحو قولك قـد والله كان ذلـك. وقد[1] فجـاء هـذا البيت لا خفـاء بقبحـه. . ومن بـديـع الاعتراض قول المتنبي:

---

(١) بياض في الأصل.

ويحتقِرُ الدنيـا احتقارَ مجـرِّب   يَرَى أنّ ما فيها وحاشاك فانيا

وهذا البيت حشوه يصلِح أن يكون من باب الحشو ويصلح أن يكون من باب الاحتراس.

قال المصنف عفا الله عنه: ذكر أسامة في بديعه أن الحشو غير المفيد أن تأتي في الكلام بألفاظ زائدة ليس فيها فائدة مثل قول النابغة:

تـوَهَّمتُ آياتٍ لهـا فعـرَفتُهـا   لستّـةِ أعوامٍ وذا العـامُ سابـعُ

.. وقال آخر:

نـأت سَـلْمـى فـعـاوَدَني   صُـداعُ الـرأسِ والـوَصَبُ

فقوله ـ الرأس ـ حشو لا فائدة فيه لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس.. وفي الحماسة:

أنعى فتًى لم تذِرَّ الشمسُ طالعةً   يوماً من الدهرِ إلا ضرٌّ أو نفَعا

فقوله ـ طالعة ـ حشو لا فائدة فيه لأن قولهم ذرّت الشمس أي طلعت.

قال المصنف عفا الله عنه: وهذه الكلمات التي ذكرها ليست بزائدة بل لها معان. فقوله ـ لستة أعوام وذا العام سابع ـ فليس بزائد وقد ورد مثله في القرآن وهو قوله تعالى: **﴿ثلاثة أيامٍ في الحجّ وسبعـةٍ إذا رَجَعتمْ تِلك عشَرَةٌ كـاملةٌ﴾** وإنما قال ذلك الذي تقدم بيانه في باب التتميـم وهو رفع اللبس وتقرير المعنى في النفس. وأما قوله ـ صداع الرأس ـ فهو من الإصابة والشِقّ ومثل ذلك يتهيأ في سائر الأعضاء. وأما قوله ـ تذر الشمس طالعة ـ فهما وإن كانا بمعنى واحد فالعرب من عادتها أن تكرر لفظين بمعنى واحد للتأكيد. كقول الشاعر:

وهندٌ أتى من دُونها النأيُ والبُعدُ

. . ومنه قوله تعالى: ﴿فمهِّلِ الكافرين أمهِلْهُمْ رُويداً﴾. . والذي اقتضاه قول أسامة وغيره من العلماء أن الحشو على قسمين. قبيح وحسن. فالقبيح ما أشار اليه أسامة. والحسن ما أشار اليه غيره والله أعلم.

القسم السابع

الالتفات

وهو نقل الكلام من حالةٍ إلى حالة أخرى وأرباب هذا الشأن فيه على ثلاثة مذاهب ذهب قوم أنه على ثلاثة أقسام. الأول الانتقال من الغيبة إلى الحضور ومن الحضور إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يوْمِ الدّين إيَّاكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين﴾ وعكسه: ﴿الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾ ولم يقل غير الذين غضبت عليهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرَى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجدِ الأقصَى الذي بارَكْنا حوْلَه لِنرِيهُ من آياتنا إنه هو السميعُ البصير﴾. وقوله تعالى: ﴿وأوْحى في كل سماءٍ أمرَها وزيَّنّا السماء الدُّنيا بمصابيحَ وحفظاً﴾. وقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذَ الرَّحمنُ وَلداً لقد جئتمْ شيئاً إداً﴾ ومثله في القرآن كثير ولا يخلو شيء من ذلك من حِكَمٍ جزئية تليق بذلك الكلام الخاصّ كما في هذا الموضع، وأن القول إذا اشتمل على سوء أدب على عظيم كان الأولى التعبير عنه بلفظ الغائبُ إذ الاقدام على ذلك قدَّام الحاضر أفحش وأكثر جُرأة والجناب العظيم ينبغي أن يحاشى من ذلك. يُبين ذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً لقد جئتم شيءاً إدًّا﴾ ثم لما أن أراد توبيخهم على هذا القول عبّر عنه بالحضور لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الاهانة. .

الثاني الالتفات من الماضي إلى المضارع كقوله تعالى: ﴿قُلْ أمَرَ ربي بالقسطِ وأقيموا وُجوهَكم عند كل مسجد وادْعُوه مخلِصين﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿أحِلّتْ لكم بَهيمةَ الأنعام إلا ما يُتلى عليكم فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثانِ واجتنبوا قوْلَ الزورِ﴾. . الثالث الالتفات من الماضي إلى المستقبل وبالعكس كقوله تعالى: ﴿فكأنما خرَّ من السماءِ فتَخطَفُهُ الطيرُ أو تهوِي به الريحُ في مكانٍ سحيق﴾.

وقوله تعالى: ﴿والله الذي أرسلَ الرياحَ فتثيرُ سَحاباً فسُقناه إلى بلدٍ مَيْتٍ فأحيينا به الأرضَ بعدَ موتِها كذلك النشور﴾. وقوله تعالى: ﴿ويومَ يُنفَخ في الصُّورِ ففزعَ مَن في السمواتِ ومن في الأرض﴾. وقوله تعالى: ﴿ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارِزَةً وحَشرناهم فلم نُغادِرْ منهم أحداً﴾. وقوله تعالى: ﴿ألم ترَ أنّ الله أنزلَ من السماءِ ماءً فتُصبحُ الأرض مخضرَّة إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ له ما في السمواتِ﴾. وقوله تعالى: ﴿إنّ الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله﴾ ولا يخلو هذا عن حكمة كما في هذه الآية فإن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضي ليفيد ذلك مع كونه باقياً أنه قد مضى عليه زمان ولا كذلك الصد عن سبيل الله فإن حكمه إنما يثبت حال حصوله نعني بذلك فهو في كل وقت كافر ما لم يأت بالإيمان ولا كذلك الصد عن سبيل الله ومع ذلك فإن الفعل المستقبل فيه إشعار بالكثير فيكون قوله: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ مشعراً بأنهم في كل وقت كذلك. ولا كذلك لو قال وصدوا لأن ذلك يكون مشعراً بأن صدهم قد انقطع.. وذهب قوم إلى أن الالتفات إذا انقطع الكلام يعقبه بجملة ملاقية إياه في المعنى ليكون تتميماً له على جهة المثَل والدعاء أو غيرهما كقوله تعالى: ﴿وقلْ جاءَ الحق وزَهَقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً﴾ ومن هذا النوع قول جرير:

مجازيعُ عندَ البأسِ والحرُّ يَصبر

.. وذهب قوم إلى أن الالتفات هو أن تذكر معنى فتتوهم أن السامع اعترضه شك في ذلك أو في سببه أو علته فتذكر ما يزيل شكه كقول الأخطل:

تبينُ صلاتُ الحرْب منّا ومنهمُ　　　إذا ما التقينا والمسالِم يأذَنُ

فتبنَّ بقوله ـ والمسالم يأذن ـ كيفية ظهور المحارب منه والصحيح القول الأول وما ذكره بعده يجوز أن يكون من أنواع الالتفات.. ومن بديعه قوله تعالى: ﴿يوسفُ أعرضْ عن هذا واستغفري لذَنبِكِ﴾ خاطب يوسف بأعرض عن هذا والتفت إلى زليخا. ومنه أيضاً قوله عز وجل: ﴿حتى إذا كنتم في

الفلك وجرين بهم بريحٍ طيّبة﴾. . ومن بديع ما جاء منه في النظم قول امرىء القيس:

تـطاوَلَ ليلُكَ بـالأثـمـدِ ونـامَ الخليّ ولم تَـرْقُـدِ
وبـاتَ وبـاتـتْ لـه ليـلةٌ كليلةِ ذي العـائـرِ الأرْمـدِ
وذلـك عن خبرٍ جـاءَني وخبّرتـهُ عن أبي الأسـوَدِ

قال المصنف عفا الله عنه: ذكر ابن الأثير في جامعه أن الالتفات على ثمانية أقسام. . الأول الرجوع من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: **﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾** إلى قوله: **﴿إياك نعبُدُ وإياك نستعين﴾** وإنما فعل ذلك لفوائد وهي أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة والملك الخاص فعلم المُعلَّمُ بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له والاستعانة به في المهمات فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** يا من هذه صفاته. والفائدة الأخرى أن قوله: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** ليس العدول فيه اتساعاً وإنما عُدِل اليه لأن الحمد دون العبادة فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: **﴿الحمد لله﴾** ولم يقل لك ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: **﴿إياك نعبد﴾** تصريحاً بها وتقرباً منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدوده منها وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: **﴿صراط الذين أنعمتَ عليهم﴾** فصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال: **﴿ غير المغضوب عليهم﴾** ولم يقل غير الذين غضبت عليهم لأن الأول موضع التقرب إلى الله بذكر النعمة فلما صار إلى ذكر الغضب قال: **﴿غير المغضوب عليهم﴾** فجاء باللفظ منحرفاً به عن ذكر الغضب فأسند النعمة اليه لفظاً وروى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً. . ومن هذا الجنس قوله تعالى: **﴿الحمدُ للهِ الذي لم يتخذ ولداً﴾** وشبهه. . الثاني الرجوع من الخطاب إلى الغيبة كقوله عز وجل: **﴿هو الذي يُسيّركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرَين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرِحوا بها﴾** الآية صرف الكلام ههنا من خطاب

المواجهة إلى الغيبة وإنما فعل ذلك وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح لفعلهم ولو قال: **﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم﴾** وساق الخطاب إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة. . ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إنّ هذه أمّتُكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون فتقطّعوا أمرَهم بينهم﴾** الأصل أن يعطف على الفعل الأوّل إلاّ أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ويقبّح عليهم ما فعلوه ويقول ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وذلك مثلٌ لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوه. . ومما ينخرط في هذا السلك أيضاً قوله تعالى: **﴿يا أيها الناسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً الذي له مُلكُ السمواتِ والأرضِ﴾** إلى: **﴿وكلماته﴾** الآية. فإنما إنما قال: **﴿فآمنوا باللهِ ربي﴾** حيث قال أولاً: **﴿إني رسول الله إليكم﴾** لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص المستقبل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري اضطراراً للنصفة وبُعداً للتعصب لنفسه فقرر أولاً في صدر الآية بأنه رسول الله إلى الناس وأثبت ذلك في أنفسهم ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى الغيبة لغرضين كبيرين قد ذكرتهما. الأول إجراء تلك الصفات عليه. الثاني الخروج من تهمة العصبية لنفسه فافهم ذلك. . **الثالث الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر فعَل ذلك** تعظيماً لمن أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيماً لأمره وبالضد من ذلك في حق من أجري عليه فعل الأمر. فمما جاء من ذلك قوله تعالى: **﴿قالوا يا هُودُ ما جئتنا ببيِّنةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾** إلى قوله: **﴿ما تشركون﴾** الآية. فإنه إنما قال ـ أشهِدُ اللهَ واشهَدُوا ـ ولم يقل وأشهدكم ليكون موازياً له وبمعناه لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة

على قلة المبالات بهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما تقول للرجل تهكماً به واستهانة ـ اشهد عليّ أني أحبك ـ وأمثال هذا كثير فاعرفه. . الرابع الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد. من ذلك قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومِكما بمصرَ بُيوتاً واجعلوا بُيوتَكم قِبلةً وأقيموا الصلاة وبشِّرِ المؤمنين﴾[1] فإنه توسع في هذا الخطاب فثنى ثم جمع ثم وحد فخاطب موسى وهارون في ذلك عليهما السلام بالتبوء والاختيار في ذلك مما يفوّض إليّ ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد وإقامة الصلاة لأن ذلك واجب على الجمهور ثم خص موسى ﷺ بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً له وتفخيماً لأمره لأنه الرسول على الحقيقة. . ومن هذا النحو قوله تعالى حكاية عن حبيب النجار ﴿وما لي لا أعبُدُ الذي فَطَرَنيَ وإليه تُرْجَعون﴾ هذا عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة وإتمام الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أفرد الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم لتلطفه بهم ومداراتهم فإن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلاّ ما يريد لنفسه وقد وضع قوله: ﴿وما ليَ لا أعبد الذي فطرني﴾ موضع قوله وما لكم لا تعبُدُون الذي فطركم ألا ترى الى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال ﴿إني آمنتُ بربّكم فاسمعون﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعون فقد نبّهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه لأن العبادة لا تصح إلاّ لمن منه مبدؤكم وإليه ترجعون. . الخامس الأخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وهو قسم من الإلتفات لطيف المأخذ دقيق المغزى.

اعلم أن الفعل المضارع إذا أتى به في حالة الأخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الأخبار بالفعل الماضي وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يسمعها ويشاهدها وليس

---

(١) بهامش الأصل ما نصه. . لعله خطاب لهما ولهم كتبه أبو الوفا.

كذلك الفعل الماضي. فمما جاء منه قوله تعالى: **﴿والله الذي أرسل الرياحَ فتُثيرُ سحاباً فسُقناه إلى بلدٍ ميْتٍ فأحيينا به الأرضَ بعدَ موتها كذلك النشور﴾** فإنه إنما قيل ـ تثير ـ مضارعاً وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكايه الحال الذي يقع فيها إثارة الريح للسحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك.. ومنه قول تأبط شراً:

لقيتُ الغولَ تهوي نحو وَجهي ... بقفْـرٍ كالصحيفـةِ صَحصَحـان

فـأضرِبُهـا بِـلا دَهشٍ فخـرَّتْ ... صـريعـاً لليــدينِ وللجـرَانِ

لأنه قصد أن يصور صورة الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنهُ يُبصرهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جُرأته على ذلك الغول وثباته عند تلك الشدة ولو قال فضربتها لزالت تلك الفائدة التي ذكرناها ونبهنا عليها.. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ألم ترَ أن الله أنزلَ من السماءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مخضرّةً إنّ الله لطيفٌ خبير﴾** ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ها هنا إلى المضارع فقال ـ فتصبح الأرض مخضرة ـ وذلك لإفادة بقاء المطر زماناً بعد زمان كما قال ـ أنعم عليّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً ـ ولو قال فرُحتُ وغدوت شاكراً له لم يقع ذلك الموقع فافهم ما أشرنا إليه.. السادس الأخبار بالفعل الماضي عن المضارع وهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المضارع الذي لم يوجد كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم شأناً لأن الفعل الماضي يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد وحدث وصار من الأمور المقطوع بكونها وحدوثها. والفرق بينه وبين الأخبار بالفعل المضارع عن الماضي هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع إذا كان الفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد والأمور المتعاظمة التي تحدث فيجعل عند ذلك مما قد كان ووُجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه. وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الفعل الماضي فإن الغرض بذلك شيئان هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها.. فمن الأخبار بالفعل الماضي عن

المضارع قوله تعالى: ﴿ويومَ يُنفخُ في الصُّورِ ففزع مَن في السمواتِ ومن في الأرضِ إلا مَن شاء الله وكلٌّ أتوهُ داخرين﴾ فإنه إنما قال ـ ففزع ـ بلفظ الماضي بعد قوله ـ ينفخ ـ وهو مستقبل للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.. ومنه قوله تعالى: ﴿وبَرَزوا للهِ جميعاً﴾ فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد. ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ﴾ فإن ـ أتى ـ ها هنا بمعنى يأتي وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق إثبات الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه فصار يأتي بمنزلة قد أتى ومضى.. وكذلك قوله تعالى: ﴿ويوم نُسيّرُ الجبالَ وترَى الأرض بارزةً وحشرْناهم فلم نُغادِر منهم أحداً﴾ فإنه إنما قال ـ وحشرناهم ـ ماضياً بعد ـ نسير. وترى ـ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك.. السابع الأخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع وإنما فُعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي وقد سبق الكلام عليه.. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ﴾ فإنه إنما آثر اسم المفعول ها هنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع وأنه لا بد من أن يكون ميعاد مضروباً لجمع الناس وأنه الموصوف بهذه الصفة وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: ﴿يومَ يجمعكم ليومِ الجمعِ ذلك يومُ التغابُن﴾ فإنك تعثر على صحة ما قلت.. الثامن عكس الظاهر وهو أن العرب قد توسعوا في كلامهم وتجوّزوا إلى غاية فيذكرون كلاماً يدل ظاهره على معنى وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه والأصل في ذلك أنك تذكر كلاماً يعطي معناه أنه نفي لصفة شيء قد كان وهو نفي الموصوف أنه ما كان أصلاً. فمن ذلك قول عليّ رضي الله عنه في وصفه مجلس رسول الله ﷺ أنه لا تنثى فلتاته أي لا تذاع فظاهر ذلك أن ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات أصلاً فتذاع وهذا مثل قول الشاعر:

لا ترَى الضبَّ بها ينجَحرُ

أي ليس بها ضب فينجحر.

القسم الثامن الحمل علي المعنى

وذلك كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث وتصور معنى الواحد للجماعة والجماعة للواحد وحمل الثاني على لفظ الأول أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً أو غير ذلك. وقد ورد في القرآن العظيم وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً من ذلك كثير.. فأما تأنيث المذكر فكقوله تعالى: **﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلَقكم من نفس واحدةٍ﴾** والمراد به آدم عليه السلام وأنّث ردًّا إلى النفس وقرىء في الشواذّ ـمن نفس واحد ـ.. ومنه قوله تعالى: **﴿وإذ قالت الملائكةُ﴾** والقائل جبريل عليه السلام وله نظائر كثيرة في القرآن.. ومنه قول الشاعر:

أبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أخرَى وأنتَ خليفةٌ ذاكَ الكمالُ

.. وقال آخر:

طُول الليالي أسرَعتْ في نقَضي

.. وقال آخر:

أتهجُرُ بيتاً بالحجازِ تلَفَّعتْ به الخوفُ والأعداءُ من كلّ جانب

.. وقال آخر:

يا أيها الراكبُ المُزْجي مَطيَّتهُ سائل بني أسَدٍ ما هذه الصَّوتُ

فإنه ذهب بالصوت إلى الاستغاثة وذهب الآخر بالخوف إلى المخافة..

وأما تذكير المؤنث فقد كثر عن العرب تأنيث فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنث فكان المضاف بعض المضاف إليه أو به أو منه ولذلك قرىء قوله تعالى: **﴿لا تنفَعُ نفساً إيمانها﴾** بالتأنيث فأنث فعل الايمان إذ كان من النفس وبها. وأمثال هذا كثير في القرآن.. ومنه قول الشاعر:

لما أتى خبرُ الزبيرِ تواضعَتْ سُورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ

.. وقول الآخر:

كما شرَقتْ صدْرُ القناةِ من الدَّم

* * *

القسم التاسع الزيادة في البناء

وهو أن يقصد المتكلم معنى يعبر عنه لفظتان إحداهما أزيد بناء من الأخرى فيذكر الكلمة التي تزيد حروفها عن الأخرى قصداً منه إلى الزيادة في ذلك المعنى الذي عبر عنه ولهذا إن اعشوشب واخشوشن في المعنى أكثر وأبلغ من خشن وأعشب ولهذا وقعت الزيادة بالتشديد أيضاً فإن ستّار أبلغ من ساتر وغفّار أبلغ من غافر ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**استغفِرُوا ربَّكم إنه كان غفّاراً**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**وكان الله على كلّ شيءٍ مُقتدِراً**﴾ عدل عن قادر إلى مقتدر ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى والبيان عن عظم شأنه.. ومن هذا المعنى قول أبي نواس:

فعفوتَ عني عفوَ مقتـدِرٍ أحلتْ لـه نعْمٌ فـألفـاهـا

والعرب عادتها أن تزيد في بناء الاسم ليشعر بزيادة المعنى الدال عليه.. قال الزمخشري رحمه الله رأيت أعرابياً بالحجاز يسوق جملاً عليه شُقْذفٌ فقلت ما اسم هذا فقال شقذف ثم مرّ علينا جمل عليه كجاوة فقلت ما اسم هـذا فقال شقنذافٌ فزاد فيه لكون الكجاوة أكبر وأعلا في القـدر والقيمة. وقد رجح بعض أهل المعاني «الرحمن على الرحيم» لما فيه من زيادة البناء وهـو الألف. ومثل هذا في كلام العرب كثير ليس هذا موضع استقصائه.

القسم العاشر

الإطالة والإسهاب. ويسمى الإطناب. والكلام عليهما من وجوه

الأول في ذكـر الغرض الـذي أتى بهما من أجله. الثـاني في حقيقتهمـا ومجازهمـا الثالث في اختلاف علماء البيان فيهما. الرابع فيما يستحسن فيهما وما يستقبح. الخامس في أقسامهما. السادس في الفرق بينهما.

أما الأول: فإن العرب جرت سنتهم على ذلك في خطبهم ومخاطباتهم ومفاخراتهم ومقاولاتهم يقصدون بذلك إظهار قدرتهم على الكلام وتوسعهم في النثر والنظام فيوجزون تارة ويطيلون أخرى هذا في الحقيقة وأما في المجاز فمرادهم الدلالة على قوة مشاهدة المعنى المجازي. . وقال ابن الأثير أتى بالإطالة والإطناب للمبالغة، والمبالغة تنقسم إلى أقسام كثيرةو قد سبق ذكر شيء منها كالأخبار بالفعل الماضي عن المضارع وبالمضارع عن الماضي ومن جملة أقسام المبالغة الإطناب وفائدته زيادة التصور للمعنى المقصود إما حقيقة أو مجازاً وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد.

وأما الثاني: فحقيقة الإطالة الامتداد والاسترسال وأصله في الاجرام. وأما الإطناب فحقيقته لغة الزيادة والمبالغة. وأما حقيقته الصناعية فهو زيادة في اللفظ لتقوية المعنى. . فأما ما جا من ذلك على سبيل الحقيقة الصناعية فهو زيادة في اللفظ لتقوية المعنى. . فأما ما جاء من ذلك على سبيل الحقيقة فقوله تعالى: ﴿**ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ في جوفهِ**﴾ فإن الفائدة في قوله - في جوفه - كالفائدة في قوله - القلوب التي في الصدور - وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور المدلول عليه لأنه إذا سمع صوّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين وكان ذلك أسرع إلى الإنكار. . وأما الذي جاء منه على سبيل المجاز فمنه. قوله تعال: ﴿**فإنها لا تعمي الأبصارُ ولكن تَعمي القلوبُ التي في الصدور**﴾ ففائدة ذكر - الصدور - ها هنا أنه قد يعرف أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو مصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثلٌ فلما أريد إثبات ما هو بخلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرّر إنّ مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار. وهذا نوع من أنواع البيان عظيم اللطائف كثير المحاسن.

وأما الثالث: فقد اختلف علماء البيان فيهما فقال المحققون أنهما متغايران. . وقال أبو هلال العسكري الإطالة والإطناب سواء وهما عنده ضد الايجاز ووافقه جمهور الأئمة. وقال أبو هلال أيضاً في كتابه الإطناب في الكلام

إنما هو بيان والبيان لا يكون إلا بالاتساع وأفضل الكلام أبينه والإيجاز للخـواص والاطناب يشترك فيه الخواص والعوام ولهذا أطنب في الكتب السلطانية لإفهام الرعايا. وكما أن الايجاز له مواضع فكذلك الإطناب له مـواضع والحـاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في موضعه. قال النبي ﷺ: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم» ومن استعمل الإيجاز في موضع الاطناب والاطناب في موضع الإيجاز فقد أخطأ فلا شـك أن الكتب الصادرة عن السلطان في الأمـور العظيمة في الفتوح وتفخيم مواقع النعم المتجددة أو في الترغيب في الطاعـة والتحذير من العصيان وغير ذلك ينبغي أن تكون مشبعـة مستقصاة. وأمـا كتاب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة وهو الحمد لله الذي كفى الإسلام فقد ما سواه وجعل الحمد متصلاً بنعمه وقضى أن لا يقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من خلقه ثم أنا وعدوّنا على حالين مختلفين نرى فيهما ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم ينصرنا الله ويخذلهم ويمحصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ـ فإنما حسن هذا الكتاب لكونـه في موضعـه. وأما لو كُتب إلى العـامة وقـد تطلعت نفـوسهم إلى معرفـة ذلك الفتـح العظيم وتصرفت بهم ظنونهم في أمره لجاء في أقبح صورة عندهم وأهجنهـا. واعلم أن الاطناب بلاغةٌ والتطويل عيٌّ فإن الاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة تحتوي على زيادة فائدة بما تأخذ النفس منه من اللذة والتطويل بمنزلة شكوك ما يبعد جهلاً بما يفوت فهذا حكاية كلام أبي هلال العسكري.. وقد ذكَرَ ابن الأثير في جامعه على قول أبي هلال مأخذاً فقال: أما قول أبي هلال الاطناب في الكلام إنما هو بيان فإن البيان في أصل اللغة هو الظهور والوضوح فيكـون الاطناب على قـوله ظهوراً في الكلام ووضوحاً لا غير ويلزم على ذلك أن كـل كلام ظـاهر واضـح إطناباً سواء كان ذلك الكلام إيجازاً أو غيره من أصناف علم البيان وهذا مما لم يذهب اليه أحد لأن أبا هلال قد جعل الاطناب وصفاً من الأوصاف التي يشترك فيها جميع ضروب الكلام وذلك أن البيان وصف يعم كل كلام ظاهر واضح من إيجاز أو تطويل أو تكرير أو غيـر ذلك وليس الأمر كما وقع له بل الاطناب نوع

واحد من أنواع الكلام فإن أصله في وضع اللغة من أطنب في الكلام إذا بالغ فيه كما تقدم.

الرابع: فيما يستحسن فيهما وما يستقبح. أما الذي يستقبح منهما فهو أن يُطنب فيما لا ينبغي فيه الاطناب ويطوّل فيما ينبغي فيه الإيجاز أو يطول فيما ليس في إطالته فائدة ولا فيه زيادة معنى، كما روي أن رجلاً استُدْعي لأداء شهادة على نكاح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كلهِ ولو كرهَ المشرِكون وأشهد أني كنت في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا في الدار الفلانية (ووصفها) من الحارة الفلانية. (ووصفها) وسمى الساكنين بها من البلد الفلاني وقت كذا من النهار وقد طرق الباب غلام وذكر جنسه وأوصافه وحكاية تطول جداً.. وهذا النوع من الإطالة ليس في القرآن العظيم منه شيء. وأما الذي يستحسن منهما فهو إطالة الكلام وترديده لتقوية المعنى في النفس وتعظيمه والبيان قوة الملكة في التلعب بالكلام أو لكون المخاطب لا يصل الكلام الموجز إلى فهمه فهو محتاج إلى بسط الكلام واتساعه حتى يفهم.

الخامس: في أقسامهما. أما أقسام الإسهاب والإطناب فقد اختلف فيه علماء علم البيان فقالوا لا يخلو إما أن يكون في جملة واحدة أو في جمل.. فأما الذي في جملة واحدة فعلى قسمين. حقيقة ومجاز. أما الحقيقة فقد يكون معنى اللفظ الزائد هو معنى المذكور ويكون مغايراً له. أما الأول فكقوله تعالى: **﴿فإذا نُفخ في الصورِ نفخةٌ واحدةٌ وحُملتِ الأرضُ والجبالُ فدُكّتا دَكّةً واحدةً﴾**. وكقوله تعالى: **﴿أفرَأيتمُ اللاتَ والعُزّى ومَناةَ الثالثةَ الأخرَى﴾**. وكقوله تعالى: **﴿تلْك عشرَةٌ كاملةٌ﴾**. وأما الثاني فكقوله تعالى: **﴿ما جَعلَ اللهُ لرَجلٍ من قلبينِ في جوْفهِ﴾**. وكقوله تعالى: **﴿إذْ تَلقونهُ بألسنتكم وتقولون بأفواهِكم﴾**. وكقوله تعالى: **﴿فخرَّ عليهمُ السقْفُ من فوْقِهم﴾**.. وأما المجاز فكقوله تعالى: **﴿فإنها لا تَعمي الأبصارُ ولكن تَعمي القلوبُ التي في الصدورِ﴾** واستعمال هذا مجازاً أحسن.. وأما الذي في الجمل فأقسامه أربعة: الأول أن

تذكر أشياء كل واحد منها يخص بما لولاه لكان المفهوم من الكل واحداً كقول أبي تمام:

مِن منّـةٍ مشهـورةٍ وصَنيعـةٍ بِكْـرٍ وإحسـانٍ أغَـرَّ مَحَجّـلِ

ولو قال ـ من منة وصنيعة وإحسان ـ كان المعنى واحداً. وكذلك قوله:

وليُّ سَجيّـاتٍ تُضيفُ ضيـوفَـهُ ويُـرْجَى مُرَجّيـهِ ويُسألُ سـائلهْ

وكل هذه دلالة على زيادة كرمه.. والثاني الإثبات والنفي وهو أن يذكر الشيء إثباتاً ونفياً مع زيادة لولاها لكان ذلك تكراراً وتناقضاً كقوله تعالى: **﴿ولكنّ أكثر الناسِ لا يَعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافلون﴾**. وكذلك قوله تعالى: **﴿لا يَستأذِنُكَ الذين لا يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ أن يجاهِدُوا بأموالهم وأنفسهم واللهُ عليمٌ بالمتقين﴾** مع قوله: **﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابتْ قلوبُهم فهمْ في رَيبهمْ يَترَدَّدُونَ﴾**.. الثالث أن تذكر الشيء ثم تضرب له أمثالاً تُشتهَى كقول البحتري يصف امرأة:

ذاتُ حُسنٍ حوِ استزادَتْ من الـ ـحسنِ إليه لَما أصابتْ مَزيـدا
فهي كالشمسِ بَهْجةً والقضيبِ اللّـ ـدْنِ قدًّا والرِّيمِ طـرْفاً وجيـدا

.. وكذلك قوله:

تـرَدَّدَ فـي خُـلْقَـي سُـؤدَدٍ سَمـاحاً مُـرَجًّـا وبـأسـاً مَهيبـا
وكـالسيفِ إن جئتَـهُ صـارِخـاً وكـالبحـرِ إنْ جئتَـه مُستثيبـا

.. الرابع الاستقصاء في ذكر أوصاف الشيء للمدح أو الذم ونحوهما كقول بعضهم:

لأعْـلا الـوَرَى قَـدْراً وأوفـرِهم حِجًى وأرشدِهم رَأياً وأسمحِهمْ يدا

.. وأما الإطالة فهي على قسمين. حسَنة. وقبيحة. كما تقدم.. فأما الحسنة فهي على قسمين. الأول منها ما يكون بسطاً للكلام واتساعاً فيه كما ورد

في القرآن العظيم مثل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بطولها وقصة أصحاب الكهف بذكر فروعها وأصولها وقصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام وكثرت فوائد محصولها وقصة ذي القرنين بطول مقولها وقصة موسى مع فرعون وكثرة فصولها. الثاني أن لا تكون الإطالة بسبب تكرار اللفظ وها نحن نذكر أقسامه إن شاء الله تعالى.

السادس: في الفرق بينهما. والفرق بينهما أن الاطناب على سائر أحواله بلاغة والتطويل بعضه عيٌّ وركاكة.. وقال ابن الأثير الاطناب للخواص والاطالة للعوام. وهذا يحتاج إلى تفصيل وقد تقدم.

القسم الحادي عشر

التكرار

والكلام فيه من وجوه:

الأول في حقيقته. الثاني في ذكر الفائدة التي أتي به من أجلها. الثالث في أقسامه الرابع في ذكر ما يتهيأ فيه التكرار الحسن منه والقبيح.

أما الأول: فحقيقة التكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً أو يأتي بمعنى ثم يعيده وهذا من شرطه اتفاق المعنى الأول والثاني فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس وكذلك إذا كان المعنى متحداً. وإن كان اللفظان متفقان والمعنى مختلف فالفائدة في الاتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين.

وأما الثالث: فأقسامه ثلاثة. الأول ما يتكرر لفظه ومعناه متحد. الثاني ما يتكرر لفظه ومعناه مختلف. الثالث ما يتكرر معنًى لا لفظاً.. أما ما يتكرر لفظه ومعناه متحد فمنه قوله تعالى: ﴿فقُتِلَ كيف قَدّر ثم قُتِلَ كيف قدّر﴾. وكقوله تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلالُ في أعناقِهم وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ كرر ـ أولئك ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿أولئك

على هُدىً من ربهمْ وأولئك همُ المفلِحون﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿فلما أن أرادَ أن يَبطشَ بالذي هو عدُوٌّ لهما قال يا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمسِ إنْ تريدُ إلا أن تكون جَبّاراً في الأرضِ وما تريدُ أن تكون من المصلِحينَ﴾ كرر ـ أن ـ في أربعة مواضع تأكيداً. وكذلك قوله تعالى: ﴿قلْ إني أمِرْتُ أن أعبُدَ الله مخلِصاً له الدينَ وأمِرْتُ لأن أكون أوّل المسلمين﴾ ومثله في القرآن كثير. ومن هذا النوع قول الشاعر:

ألا يا سلمى ثم اسلمي ثمَّتَ اسْلمي

والغرض من هذا المبالغة ي الدعاء لها بالسلامة. وقد يكرر القول طلباً لدوام تذكر الارهاب كما كرر في سورة الرحمن: ﴿فبأيّ آلاءِ ربكما تكذّبان﴾ وقد يكرر اللفظ أيضاً ليتصل أول الكلام بآخره اتصالاً جيداً كما في قوله تعالى: ﴿ثم إنّ ربّكَ للذين عمِلوا السوءَ بجَهالةٍ ثم تابوا من بَعدِ ذلك وأصلَحوا إنّ ربّكَ من بعدِها لغفورٌ رحيمٌ﴾. ومن ذلك الآية التي قبل هذه الآية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إني رأيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُمْ لي ساجدين﴾. وأما ما تكرر لفظه ومعناه مختلف فمنه قوله تعالى: ﴿ويُريدُ الله أن يُحقَّ الحقَّ بكلماتهِ ويَقطَعَ دابرَ الكافرين ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطِلَ﴾ فإن المقصود بقوله ـ يحق الحق ـ بيان إرادته وبقوله ـ ليحق الحق ـ الثانية لقطع دابر الكافرين ونصر المؤمنين عليهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿لا أعبدُ ما تعبُدُون ولا أنتم عابِدُون ما أعبُدُ ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتم ولا أنتم عابدُون ما أعبُدُ﴾ معناه لا أعبد في المستقبل ما تعبدونه أنتم الآن ولا أنتم تعبدون في المستقبل ما أنا عابد له ولا أعبد قط آلهتكم حتى أكون الآن عابداً لما تعبدون ولا أنتم عبدتم قط إلهي حتى تكونوا له الآن عابدين. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساءَ فبلَغْنَ أجلَهنّ فأمسكوهُنّ بمعروفٍ أو سَرّحوهنّ بمعروفٍ﴾ إلى قوله في الآية الأخرى التي بعدها: ﴿وإذا طلقتم النساءَ فبلغن أجلهن فلا تَعضُلوهنّ﴾ فكرر ـ بلغن ـ لاختلاف البلوغين. وأما قوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدُوٌّ﴾ ثم قال: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فقد قيل إنه من باب تكرير اللفظ

والمعنى وقيل هو من باب تكرير اللفظ لا المعنى لاختلاف الهبوطين فإن الهبوط الأول كان من الجنة إلى سماء الدنيا والهبوط الثاني كان من سماء الدنيا إلى الأرض وفي القرآن العظيم من هذين القسمين كثير. . وأما تكرار المعنى دون اللفظ فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفةٌ مّا أو لا يكون كذلك. والذي يكون بينهما مخالفة إما أن يكون أحدهما أعمّ أو لا يكون كذلك. فأما ما يكون أحدهما أعمّ فكقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروفِ ويَنهوْن عن المنكَرِ**﴾ فإن الدعوى إلى الخير أعم من الأمر بالمعروف. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورُمّانٌ**﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿**حافِظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوُسطَى**﴾ ومثاله في الشعر كثير. قال الشاعر:

إذا أكلوا لحمى وفرتُ لحومَهُمْ وإن هدَموا مجدي بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيَّعوا عهدِي حفِظتُ عُهودَهُم وإنْ همْ هوَوْا غَي هوَيتُ لهم رشْدا

والغرض بهذا زيادة تأكيد الخاص. . وأما الذي لا يكون أحد المعنيين أعم فكقول حاطب بن أبي بلتعة ـ والله يا رسول الله ما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دين ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. . وأما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة فكقوله تعالى: ﴿**وإن تَعفوا وتَصفَحوا وتَغفروا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ**﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فصيامُ ثلاثةِ أيّامٍ في الحجّ وسبعةٍ إذا رَجعتم تلك عشرَةٌ كاملةٌ**﴾. . وكذلك قول الشاعر:

نـزَلتُ على آل المهلّب شاتياً بعيداً عنِ الأوطانِ في زَمنِ المَحْلِ
فما زالَ بي اكرامُهمُ وافتقادُهمْ وإحسانهمْ حتى حَسِبتهُم أهلي

هذا ما يكون من التكرار لفائدة. . وقال ابن الأثير في جامعه التكرار في المعنى على قسمين. مفيد. وغير مفيد. فالمفيد نوعان. الأول إذا كان التكرار في المعنى يدل على معنيين مختلفين كدلالته على الجنس والعدد وهو من باب التكرير مشكل لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط

وليس كذلك. . فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنينِ إنما هو إلهٌ واحدٌ﴾ ألا ترى أن العرب إنما جمعت بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد المخصوص، فأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودات فالفائدة إذاً في قوله ـ إلهين اثنين. وإله واحد ـ هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما وكان الذي يساق إليه الحديث هو العدد شُفِع بما يؤكده فدل به على أن القصد إليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت ـ إنما هو إله ـ ولم تؤكده بواحد لم يحسُن وخيّل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية وهذا باب من باب تكرير المعاني وعر المسلك دقيق المغزى وبه تحلّ مسائل مشكلات من التكرير فاعرفه. . ومن هذا النحو إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ الآية فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير لأن الأمر بالمعروف خاص والخير عام فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمراً بالمعروف لأن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف. ففائدة التكرير ها هنا أنه ذكر الخاص ها هنا ذكر العام للتنبيه عليه لفضله كقوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسطى﴾ الآية. وأمثال ذلك كثيرة فاعرفها. . النوع الثاني من الضرب الأول من القسم الثاني إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنى واحد وقد سبق مثاله في أول هذا الباب كقولك أطعني ولا تعصني لأن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية. والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب وتقرير لها في قلبه. والكلام في هذا الموضع من التكرير كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان المراد به غرضاً واحداً فاعرفه. . الضرب الثاني من القسم الثاني في تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد. فمن ذلك قول ابن هانىء المغربي:

سارَتْ به صُنعُ القصائدِ شُرَّداً ... فكأنما كانت صَباً وقبولا

فكأنه قد قال ـ فكأنما كانت صباً صباً ـ لأن الصبا هي القبول. وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير في قوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف**﴾ فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ لأن كل واحدة من هاتين الآيتين يشتمل على معنيين خاص وعام. وقول ابن هانيء ـ صباً وقبولاً ـ لا يعطي إلا معنى واحداً لا غير وهذا لا يخفي على العارف بصناعة التأليف. . ومن هذا النحو قول الصابيء في كتاب ـ وصل كتابك بعد تأخير وإبطاء وانتظار له واستبطاء ـ فإن التأخير والاستبطاء بمعنى واحد وقد يكون لهذا وجه في التجوز وهو التقرير في نفس المخاطب لبعد الأمد وتطاول المدة في انقطاع كتابه عنه وذلك مما لا بأس به في هذا الموضع. وأمثال هذا كثير فاعرفه.

وأما الرابع: فالذي يتهيأ التكرار أسماءً. وأفعال. وحروفٌ. ومعان. وقد تقدم الكلام على الأسماء والأفعال والمعاني. . وأما الحروف فهي على قسمين. حسنة. وقبيحة. . فأما الحسنة فهي كما التزمه الحريري ي رسالتيه السينية والشينية كرر السين في كل كلمة في السينية والشين في الشينية. وكما التزمه الحصري في أول معشّراته من حروف المعجم. وكما التزمه الفازازي في عشرينياته. وإنما حسن هذا النوع لأن فيه دليلاً على قوة الملكة في الكلام والقدرة على التلعب بحروفه في النثر والنظام وهو من باب لزوم ما لا يلزم وسيأتي بيانه. . وأما القبيحة فكتكرار حروف تكسب الكلام عجرفة وتكسوه قلقاً حتى يصعب النطق به ويذهب رونق الكلام بسببه كقول الشاعر:

وقبـرُ حـرْبٍ بمكـانٍ قفـرِ ... وليس قُـرْبَ قبرِ حـرْبٍ قبـرُ

وأما الخامس: في الحسن منه والقبيح. . فأما الحسن منه فقد تقدم. . وأما القبيح فهو التكرار العاري عن الفائدة وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده أو في المعنى واللفظ معاً. أما الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً وبعضهم

فصّل فأعابه على الناثر وعلى الناظم إذا فعله في صدر البيت وأما إذا فعله في عجزه فليس ذلك بعيب إذ قد يضطر لأجل القافية والوزن كقول المتنبي :

بحـرٌ تعـوَّدَ أنْ يـذمَّ لأهـله   من دَهـرِه وطـوارقِ الحَـدَثـانِ

والدهر وطوارق الحدثان بمعنى واحد . . وكذلك قيل من قال :

إني وإن كـان ابنُ عمّي عائبـاً   لمصـادقٌ من خلفـهِ وورائـه

. . وأما الثاني فقد اتفق على قبحه وهو كقول مروان :

سقـا اللهُ نجـداً والسـلامُ على نجـدِ   ويـا حَبـذَا نجـدٌ على النـأي والبُعـدِ
نـظرْتُ إلى نجـدٍ وبَغـدادُ دُونهـا   لعلي أرَى نجداً وهيهـاتَ من نجـدِ

. . وكذلك قول أبي نواس :

أقمنـا بهـا يـومـاً ويـومـاً وثـالثـاً   ويـوماً لـه يـومُ الترَحُّـلِ خـامسُ

. . وكذلك قول المتنبي :

ولم أر مثْـلَ جيـراني ومثلي   لِمِثـلي عنـدَ مِثلِهِـم مَقـامُ

. . وأقبح من ذلك قوله :

وقلْقلتُ بـالهمِّ الـذي قلْقَـلَ الحشى   قـلاقِـلَ عيـسٍ كـلُّهُـنّ قـلاقِـلُ

. . وقال ابن الأثير : قال الواحدي في شرحه لشعر أبي الطيب المتنبي أنه لا يلزمه من هذا عيب وأنه قد جرت عادة الشعـراء بمثل ذلك كقول أبي منصور الثعالبي :

وإذا البلابلُ أطـرَبتْ بهَدِيلهـا   فأنفِ البَلابلَ باحتساءِ بَلابـلِ

والصحيح أنه مستثقل وأخطأ الواحدي في الاعتذار عنه وفي تمثيله ببيت الثعالبي وبيان ذلك أن بيت أبي الطيب قد ورد فيه ذكـر القلقلة والقلاقـل أربع مرات وهن دلالات على معنى واحد لا غير وهو الحركة يقول ـ وحرَّكتُ بـالهمِّ الذي حرك الحشى نوقاً سراع الحركة كلهن متحركات ـ وهذا من أقبح ما يكون

من التكرير. وأما بيت الثعالبي الذي مثَّله الواحدي ببيت أبي الطيب فليس مثالاً لأن لفظة ـ البلابل ـ قد وردت فيه ثلاث مرات وكلٌّ منها دال على معنى غير الآخر، فالأول جمع بلبل وهو طائر حسن الصوت. والثاني جمع بَلْبَلة وهي وساوس الصدور. والثالث جمع بُلْبُلة وهي مخرج الماء من الابريق فهو يقول ـ وإذا الأطيار من البلابل هدلت وغرّدت فانف البلابل من قلبك باحتساء الخمر من بلابل الأباريق ـ وهذا من أحسن ما يكون من التجنيس ومن ها هنا وقع السهو للواحدي وهو أن البلابل في شعر الثعالبي يدل على معان مختلفة والقلاقل في شعر أبي الطيب يدل على معنى واحد فاعرف ذلك وقس عليه. . ومثل قول المتنبي في القبح قوله أيضاً:

ولم أرَ مثلَ جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مَقامُ

فهذا ومثله هو التكرار الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً زائداً ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيراني في سوء الجوار وقلة المراعاة ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم لأنه قد كرّر هذا المعنى في البيت مرتين.

* * *

القسم الثاني عشر

القَسَم

وهو أن يُقسم في كلامه بشيء لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه وإنما يُريد به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده. ومنه قوله تعالى: ﴿فوَرَبِّ السماءِ والأرض إنه لَحَقٌّ مِثلَ ما أنكم تنطقون﴾. وقوله تعالى: ﴿والطور وكتابٍ مَسطورٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿والنجمِ إذا هَوَى﴾. وقوله تعالى: ﴿والسماءِ وما بَناها والأرْضِ وما طَحاها ونفْسٍ وما سَوَّاها﴾. وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إنهم لفي سَكْرَتهمْ يَعمَهون﴾ أقسم بهذه الأشياء كلها لعظم خلقها ولشرفها عنده وأقسم بحياة نبيه ﷺ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته حديه. .
ومنه قول الشاعر:

حَلَفتُ بمن سَوَّى السماءَ وشادَها ... ومَنْ مَرَجَ البحْرَينِ يلتقيان
ومَن قامَ في المعقول من غيرِ ريبةٍ ... بما شئتَ من إدْراكِ كلِّ عِيانِ
لما خلقتْ كفّاكَ إلا لأرْبعٍ ... عقائلَ لم يُعقَلْ لهنَّ ثوَانِ
لتقبيلِ أفواهٍ وإعطاءِ نائلٍ ... وتقليبِ هِنديٍّ وجَذْبِ عِنانِ

قال المصنف عفا الله عنه: القسم في القرآن العظيم على قسمين. مظهَرٌ. ومضمَرٌ. فالمظهر كما تقدم. والمضمر على قسمين. قسم دلت لام القسم على حذفه كما في قوله تعالى: **﴿لَتُبْلَوُنّ في أموالِكم وأنفسكم﴾**. وفي قوله تعالى: **﴿لترَوُنّ الجحيمَ﴾**. والقسم الثاني ما دلّ عليه المعنى في مثل قوله تعالى: **﴿وإنْ منكم إلا وارِدُها كان على ربك حتماً مَقضيًّا﴾** تقديره والله إن منكم إلا واردها يدل على ذلك قوله ﷺ ـ لن تمسه النار إلا تحلة القسم ـ وله في القرآن نظائر.

* * *

القسم الثالث عشر

الاقتباس. ويسمى التضمين

وهو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به أو ترتيب، فإن كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمين، وإن كان كلاماً قليلاً أو نصف بيت فهو إيداع. وعلى هذا الحد ليس في القرآن من هذا النوع شيء إلا ما أودع فيه من حكايات أقوال المخلوقين مثل قوله تعالى حكاية عن قول الملائكة: **﴿قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدّماءَ﴾**. ومثل ما حكاه سبحانه من قول المنافقين **﴿قالوا إنما نحنُ مُصلِحون﴾**. وقولهم: **﴿قالوا أنؤمنُ كما آمنَ السفهاءُ﴾**. وقوله سبحانه وتعالى حكاية عن قول اليهود والنصارى: **﴿وقالت اليهودُ ليست النصارَى على شيءٍ وقالت النصارَى ليست اليهود على شيءٍ﴾** ومثله في القرآن كثير. وكذلك ما أودع في القرآن من اللغات الأعجمية مثل قوله تعالى: **﴿إنكم وما تعبدون من دونِ اللهِ حَصَبُ جهنمَ﴾** وهي

لغة للحطب بالحبشية و ـ كالقسطاس وهو الميزان باللغة الرومية ـ والفردوس ـ وهو البستان و ـ القِنطار ـ وهو اثنا عشر ألف أوقية . . ومن اللغة المنسية ـ الكف . والساق . والفِراش . والوزير . والقاضي . والوكيل . والشراب . والحلال . والحرام . والحسد . والصواب . والبركة . والخطأ . والوسوسة . والكساد . والنطيحة . والخَط . والقلم . واللهو . والكرسي . والقفل . والركاب . والغاشية . والمشرق . والمغرب . واللطيف ـ ومن اللغة الفارسية المحكية ـ الابريق . والسندس . والياقوت . والزنجبيل . والمسك . والكافور ـ وهذه الكلمات كلها حكاها الثعالبي في فقه اللغة وهي عند المحققين مختلف فيها فمنهم من قال أنها أعجمية عربت ومنهم من أنكر ذلك وقال ليس في القرآن لفظ أعجمي لقوله تعالى : ﴿بلسانٍ عربيّ مُبينٍ﴾ وهذه الألفاظ إنما هي عربية أصلية وافقت اللغة الأعجمية والرومية . وإنما الذي ورد في القرآن بعض آيات وكلمات من التوراةِ وغيرها من كلام الله عز وجل فأشبه التضمين والإيداع . من ذلك قوله تعالى : ﴿وَكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ﴾ . ومنها قوله تعالى فيما حكاه من صفة النبي ﷺ وأصحابه وذلك قوله تعالى : ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ﴾ إلى قوله : ﴿ذلك مثلُهمْ في التوراة ومثلُهُم في الإنجيل﴾ فضمن كتابنا صفتهم من الكتابين الأولين . . وأما التضمين في الشعر فلا يخلو إما أن يكون البيتُ المضمن مشهوراً أو غير مشهور، فإن كان مشهوراً لم يحتج إلى تنبيه عليه أنه من كلام غيره لأن شهرته تغني عن ذلك وإن كان غير مشهور فلا بد من تنبيه على أنه ليس من شعره مثل قول الشاعر :

مـا على طيْبِ ليـالٍ سلَفــتْ ... منْ ليـالي الوَصـلِ لو عـادَتْ لنا

نبه عليه في البيت الذي قبله بقوله :

فـأنـا من فـرْطِ وَجـدي مُنشِـدٌ ... بيتَ شِعـرٍ قـالَـهُ مَن قَـبْلَنـا

. . وكذلك إذا كان المضمن نصف بيت كقول ابن اللبانة الأندلسي في بيت من قصيدة له :

حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ لقـولـهِ عسى وَطنٌ يَـدْنـو بهم ولعلّمـا

.. ومن التضمين المشهور قول ابن عنين يصف بغلة له:

مـرّتْ على عَلَفٍ فنـامَتْ فـوقَـهُ جُـوعاً وقـالت والمَـدامـعُ تَسجُمُ
وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي مـتـأخّـرٌ عـنـه ولا مُـتـقـدّمُ

.. ومثله قول آخر:

إنّ بـرْذَوْني المـدقـعَ بللِصقا تِ[1] في لـوْعـةٍ يُكـابـدُهـا
رَأى بِـغـالَ الأميـرِ عـابـرَةً بـالتبنِ يـومـاً فـظلَّ يُنشِـدُهـا
قِفـا قليـلاً بـهـا عليَّ فـلا أقـلَّ مـن نـظْرَةٍ أزَوِّدْهـا

.. وقد وقع التضمين في الشعر في بيت كما ذكرناه وفي بيتين. ومنه ما قيل في الحيص بيصَ حين قتَلَ جُرَيًّا وهو سكران فأخذ بعض الشعراء كلبة وعلق في حلقها قصة وأطلقها عند باب الوزير فأخذَت القصة من حلق الكلبة وأدخِلَت على الوزير فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات:

يـا أهلَ بَغـدادَ إنّ الحيصَ بيص أتى بخـزْيـةٍ ألبَستْـهُ الـعـارَ في الـبَلد
أبـدَى شجـاعتَـهُ بـالليـلِ مجترِئـاً على جُـريٍّ ضعيفِ البَطْشِ والجلد
فأنشدَتْ أمُّـهُ من بَعدِ مـا احتسَبـتْ دَمَ الأبَيلقِ عنـدَ الـواحـد الصمَـد

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً إحدَى يدَيَّ أصابَتني ولم تُرِدِ
كِـلاهمـا خَلَفٌ من فقْـد صـاحبـهِ هـذا أخي حين أدْعـوهُ وذا وَلـدي

وَهذان البيتان البيت الأخير والذي قبله لامرأة من العرب قتل أخوها ابناً لها فقالت ذلك تسلية لنفسها وتثبيتاً لقلبها.. وأما أنصـاف الأبيات والكلمـات فكثير جداً.. فمن ذلك قول ابن المعتز:

عـوّذَ لـمّـا بِتّ ضـيفـاً لـهُ أقـراصُـه منّي بيـاسـيـنِ
فبتّ والأرضُ فـراشـي وقـد غنّتْ قِفـا نبْـكِ مصـاريـنـي

(١) هكذا في الأصل.

. . ومنه قول الضحاك:

وَقَفْتُ على بابِ الأميرِ كأنني ... قِفا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

. . وقد أودعت جماعة من الشعراء وجلّة من الكتاب الفضلاء في أشعارهم ورسائلهم وأنواعِ فصاحتهم التي هي من جملة وسائلهم آياتٍ من كتاب الله تعالى وسموه اقتباساً من القرآن وهذا مما قد نهى عنه جلة العلماء وأفاضل الفقهاء الأتقياء وكرهوا أن يضمن كلام الله تعالى شيئاً من ذلك أو يستشهد به في واقعة من الوقائع كقولهم لمن جاء وقت حاجتهم إليه ـ ثم جئت على قدر يا موسى ـ وأشباه ذلك لأن ذلك كله صرف لكلام الله عن وجهه وخروج له عن المعنى الذي أريد به. . فمن التضمين المنهي عنه قول عبد الله بن طاهر لابن السّدّي حين ملك مصر وقد ورد رسوله وهديته إليه ـ لو قبلتُ هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً بل أنتم بهديتكم تفرحون ـ وقال لرسوله ـ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلّةً وهم صاغرون ـ وأوحش من ذلك وأعظم منه في الشعر قول الشاعر:

يَستوْجبُ العفوَ الفتى إذا اعترَفْ ... بما جَناهُ وانتهى عما اقترَفْ

لقولِهِ قلْ للذين كفروا ... إنْ يَنتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سَلَف

. . وقول الآخر:

قمتُ ليلَ الصدود إلاّ قليلاً ... ثم رَتلت ذكرَهم ترتيلا

وجعلتُ السهاد كحلاً لعيني ... وهجرتُ الرقادَ هجراً جميلا

كلّما ضمنا محلُّ عتابٍ ... أخذتنا العيونُ أخذاً وبيلا

ضمن هذه القصيدة آخر كل آية من سورة المزمل. . هذا وما أشبهه مما يعدونه من الفصاحة والبلاغة وهو مما ينبغي أن تعاف النفوس مساغه وهو مندرج في التحريم لما فيه من عدم الاجلال لكلام الله عز وجل والتعظيم وكيف يليق أن يجمع بين المُحْدَث والقديم. . وقد رخص بعض أهل العلم في تضمين بعض آيات القرآن في خطبهم ومواعظهم وأكثر ما استعمل ذلك الشيخ ابن نباتة وابن الجوزي وقد استعمله كثير من الناس.

القسم الرابع عشر
التذييـــل

والكلام عليه من وجوه:

الأول في حده والمعنى الذي أتى به من أجله. الثاني في اشتقاقه. الثالث في أقسامه.

أما الأول: فقال علماء علم البيان أنه تذييل المتكلم كلامه بحرف أو جملة يحقق بها ما قبلها من الكلام وتلك الجملة على قسمين. قسم لا يزيد على المعنى الأول وإنما يؤتى به للتأكيد والتحقيق. وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله. مثال ما جاء من الكتاب العزيز متضمناً للقسمين معاً قوله تعالى: **﴿إنّ اللهَ اشترى مِن المؤمنينَ أنفسَهم وأمْوالَهُمْ بِأنّ لَهُمْ الجنّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فيَقتُلون ويُقتَلون وَعداً عليهِ حقاً في التّوْراةِ والإنجيلِ والقرآن ومن أوفى بعهدِهِ من اللهِ﴾** ففي الآية الكريمة تذييلان. أحدهما قوله تعالى: **﴿وَعْداً عليه حقاً﴾** فإن الكلام تم قبل ذلك ثم أتى سبحانه وتعالى بتلك الجملة ليحقق بها ما قبلها. والآخر قوله سبحانه: **﴿ومن أوفى بعهده منَ الله﴾** فأخرج هذا مخرج المثل السائر ليحقق ما تقدم وهو تذييل ثان للتذييل الأول. ومنه قوله عز وجل: **﴿ومن أحسنُ من الله قيلا﴾**. وكقوله تعالى: **﴿ذلك جزَيناهُم بما كفروا وَهل يجازى إلاّ الكفور﴾** ومثله في القرآن كثير. ومثال ما جاء منه من السنة قول النبي ﷺ: «من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ولا يهلك على الله إلا هالك» فقوله ولا يهلك على الله إلا هالك تذييل في غاية الحسن أخرج الكلام فيه مخرج المثل.. ومثال ما جاء من ذلك في الشعر قول النابغة:

ولستَ بمُستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعثٍ أيُّ الرجالِ المهذّبُ

فقـوله ـ أي الرجال المهذب ـ من أحسن تذييل وقع في شعـر. . ومنه قول الحطيئة:

نـزورُ فتًى يُعطي على المـدْح مـالَـهُ ... ومن يُعط أثمـانَ المحـامـدِ يُحْمَـدِ

فإن عجز البيت كله تذييل أخرج مخرج المثـل لأن صدر البيت كله قـد استقل بالمعنى. . وأما الحروف فستأتي أمثلته في الكلام على أقسامـه إن شاء الله تعالى.

وأما الثاني: فإن التذييل مصدر ذيل الشيء يذيله تذييلاً إذا جعل له ذيلاً مأخوذ من ذيل المرأة وهو ما يفضل عن قامتها ويزيد عليها فيبقى مجروراً على الأرض. قال الشاعر:

كُتبَ القتــلُ والقِتــالُ علينــا ... وعلى الغـانيات جـرُّ الذيـولِ

. . وفي الحديث أنه ﷺ سئل عن ذيل المرأة فقال يطهره ما بعده فكأنه شبه هذه الجملة لزيادتها وكون المعنى يتم بدونها بالزائد من ذيل المـرأة الذي ينجر على الأرض.

وأما الثالث: فالتذييل على ثلاثة أقسام قد تقدم منها قسمان والثالث هو أن تزيد إحدى الكلمتين على الأخرى بحرف فقط إما من آخـرها وإمـا من أولها. فمثال الزائد في آخر الكلمة قولهم فلان حام حاملٌ لأعبـاء الأمور كـاف كافـلٌ بمصالح الجمهور. وكقول أبي تمام:

يمـدُّون من أيدٍ عـواصٍ عَواصم ... تصولُ بأسيـافٍ قواضٍ قـواضبِ

. . ومثال الزائد في أولها قول تعـالى: **﴿والتَفَتْ الساقُ بالساقِ إلى ربِّكَ يومئذٍ المساق﴾** ومنه قول الشاعر:

وكم سبـقتْ مـنـهُ إليّ عــوارِفُ ... ثنائي على تلك العوارِف وارفُ[1]

وكـم غُــرَر مـن بـرهِ ولــطائـفٍ ... لشكري على تلك اللطائف طائفُ

---

(١) في هامش الأصل. . أي ممتد يقال ورف الظل إذا امتد.

القسم الخامس عشر

المغـالطـة

والكلام عليه من وجوه :

الأول في حقيقتها. الثاني في اشتقاقها. الثالث في أقسامها.

أما الأول: فقال علماء علم البيان أن المغالطة ذكر الشيء وما يتوهم مقابلاً له وليس كذلك.

وأما الثاني: فاشتقاقه من الغلط وهو من باب المفاعلة من واحد مثل طارقت النعلَ وعاقبت اللص لأن فاعله يذكر شيئاً يوقع به غيره في الغلط ويوهم ما ليس هو المراد وهو المشار اليه في الحديث المروي نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات وهي شرار المسائل.

وأما أقسامها: فأربعة. الأول أن يذكر الشيء وما يتوهم مقابلاً له ويسمى مغالطة النقيض وهو مثل قول الشاعر:

وما أشياءُ نَشريها بمالٍ   وإن نفَقَتْ فأكسدُ ما تكونُ

أوهم بنفقتْ النفاق السوقي وهو رواج السلعة ومراده الموت. يقال: نفقت الدابة إذا ماتت. وقد ورد منه عن العرب كثير. من ذلك ما روي أن حيَّين من العرب اقتتلا فقُتل من كل حي قتلى وأسر أسرى فقال أحد الحيين لأسير عندهم: أرسل إلى قومك رسولاً يقول لهم ليكرموا أسيرنا فإننا لك مكرمون. فقال: ائتوني برسول منكم أرسله اليهم فجاؤا برجل فسأله عن أشياء فقال: ما أراك إلّا عاقلاً أبلغ قومي السلام وقل لهم ليكرموا فلاناً فإن قومه لي مكرمون. وقال له: وقل لهم يحلوا عن ناقتي الحمراء ويركبوا جملي الأصهب بآية ما أكلت معكم حيساً، وسلوا الحارث عن خبري. فلما بلغهم الرسالة حلوا وثاق ذلك الرجل وقالوا والله ما له ناقة حمراء ولا جمل أصهب. فلما انصرف الرسول

استدعوا الحارث وقصوا عليه ما قال فقال أشار بقوله حلوا عن ناقتي الحمراء واركبوا جملي الأصهب ارتحلوا عن هذه الأرض الدهناء واصعدوا الجبل. وأشار بقوله بآية ما أكلت معكم حيساً إلى أن أخلاطاً من الناس اتفقوا على أن يغيروا على حيكم ليلاً فإن الحيس يجمع السمن والتمر والأقط فارتحلوا عن تلك الأرض وصعدوا الجبل فأغار عليهم أعداؤهم فلم يجدوهم في المكان الذي كانوا فيه فسلموا من اغتيال عدوهم لهم. وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

حُلوا عن الناقة الحمراءِ فأرحلَكُمْ　　والبازِل الأصْهَبَ المعقولَ فاصطنِعوا
إنّ الذئابَ قد اخضرَّتْ براثِنها　　والناس كُلهم بَكرٌ إذا شبعوا

ومثل هذا عن العرب كثير. . الثاني أن يذكر مع الشيء مثله ويسمى مغالطة المثل كقول المتنبي:

يشلُّهُمْ بكلِّ أقَبَّ نهدٍ　　لفارسهِ على الخيلِ الخيارُ
وكلِّ أصمَّ يَعسِلُ جانِباهُ　　على الكَعبينِ منهُ دَمٌ مُمارُ
يُغادِرُ كلَّ مُلتفِتٍ إليهِ　　ولَبّتُهُ لثعلبهِ وِجارُ

ـ والثعلب ـ الحيوان وطرف السنان ـ والوجار ـ بيت ذلك الحيوان. . وكقول الشاعر:

برَغمِ شبيبٍ فارَقَ السيفُ كفَّهُ　　وكانا على العِلّاتِ يَضطَجعانِ
كأنّ رِقابَ الناسِ قالتْ لسيفهِ　　رَفيقُكَ قيسيٌّ وأنت يماني

ـ فالسيف ـ يقال له يمان إذا كان صارماً ـ وشبيبٌ ـ من قيس وكان بين قيس ويمن محاربة. . ومنه أيضاً:

وخلَطتمُ بعضَ القرانِ ببعضهِ　　فجعلتمُ الشعَراءَ في الأنعامِ

ـ فالشعراء ـ جمع شاعر واسم سورة ـ والأنعام ـ الابل والبقر والغنم واسم سورة أيضاً وسبب حسن هذا الفن ما يحصل للنفس من الالتذاذ بفهم ما فيه

غموض والأول أحسن لزيادة غموضه . . الثالث من المغالطات الألغاز. واللغز الطريق المنحرف وسمي به هذا لانحرافه عن نمط الكلام ويسمى أيضاً أحجيّة لأن الحجى هو العقل وهذا النمط يقوي العقل عند التمرن والارتياض بالإكثار من حله وإعمال الفكر فيه ويسمى أيضاً المعَمَّى لما فيه من الخفاء. ومن هذا النوع في أشعار العرب والمخضرمين والإسلاميين وهو في أشعار المتأخرين منهم أكثر. . ومنه في القرآن العزيز ما جاء في أوائل السور من الحروف المفردة والمركبة التي دقَّ معناها وبعد غور مغزاها وحارت العقول في معانيها. ومنها قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين سئل لما كسَّر الأصنام وقيل له: ﴿أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعلَهُ كبيرُهم هذا﴾ قابلهم بهذه المغالطة ليقيم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة. . . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن النمرود لما جادل إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال ابراهيم: ﴿ربي الذي يُحيي ويُميتُ قال أنا أحيي وأميتُ﴾ حُكي أنه أتى باثنين فقتل أحدهما وأرسل الآخر وكان ذلك من النمرود مغالطة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لأن إبراهيم عليه السلام أراد إنّ الله يحيي الميت ويميت الحي بغير آلة لا يحيي ويميت كذلك إلّا هو. . ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سئل عن رسول الله ﷺ حين خرجا من مكة أعزها الله تعالى فقال أنه رجل يهديني الطريق. . ومنه قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأله الجبار عن زوجته سارة قال هي أختي أراد أخوةَ الدين ومثله كثير.

القسم السادس عشر
الإشارة. وتسمى الوحي أيضاً

والكلام عليها من وجوه:

الأول في حدها. الثاني في أقسامها. الثالث في الفرق بينها وبين الكناية.

أما الأول: فقد قال علماء البيان الإشارة أن تطلق لفظاً جلياً تريد به معنى

خفياً وذلك من ملح الكلام وجواهر النثر والنظام. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تَقُلْ لهما أفٍّ﴾ أشار بذلك إلى بر الوالدين وترك التعرض اليهما بيسير من الإيلام فضلاً عن كثيره. ومنه قوله تعالى: ﴿فيهنّ قاصِرات الطرفِ﴾ إشارة إلى عفافهن. ومنه قوله تعالى: ﴿وفرُش مرفوعة﴾ أشار إلى نساء كرام. ومن هذا النوع فلان طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إشارة بقوله ـ طويل النجاد ـ إلى تمام خلقته وبقوله ـ رفيع العماد ـ إلى أن بيته مرتفع يعرفه الأضياف والطرّاق وبقوله ـ كثير الرماد ـ إلى كثرة قراه الأضياف.. ويقولون أيضاً فلان جبان الكلب مهزول الفصيل أشاروا بقولهم ـ جبان الكلب ـ إلى أنه لكثرة طراقه أنست كلابه الطراق وصارت تلوي رقابها وتحرك أذنابها فرحاً بهم وأشاروا بقولهم ـ مهزول الفصيل ـ إلى كثرة سقيه الألبان ومداومة حلب مواشيه فتقل بذلك ألبانها فيهزل الفصيل بسبب ذلك. الإشارات في القرآن كثيرة خصوصاً على ما يراه أرباب الحقائق. وبعض أرباب هذه الصناعة يسمي هذا النوع الإيماء ومنه قول الشاعر:

بعيدةُ مَهوى القرطِ إما لنَهشلٍ ... أبوها وإما عبدِ شمسٍ وهاشمِ

أشار بقوله ـ بعيدةُ مهوى القرط ـ إلى طول عنقها.. ومنه قول امرىء القيس:

كأنّ المدامَ وَصوبَ الغمام ... وَريحَ الخُزامى ونشرَ العُطُرْ
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابِها ... إذا غرّدَ الطائرُ المستَحِرْ

أشار إلى طيب رائحة فيها وقت السحر وهو وقت تغير الأفواه.

وأما الثاني: فأقسامها أربعة. الأول ما قدمناه. والثاني أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكبير. ومنه قوله تعالى: ﴿فيها ما تَشتهِي الأنفسُ وتَلَذّ الأعينُ﴾ جمع ما تميل إليه النفوس من الشهوات وتلذه الأعين من المرئيات. ومنه قوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبدِهِ ما أوحى﴾. والثالث من أنواع الإشارة عمل أرباب هذه الصناعة المعميات والألغاز وقد تقدم بيانهما. الرابع

من أقسامها التورية وهي أن تكون الكلمة تحتمل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ومراده ما أهمله لا ما استعمله ولهذا مواضع نبينها وأمثلتها فيه إن شاء الله تعالى.

وأما الثالث: فالفرق بينها وبين الكناية أن الإشارة في الحسَنِ والكناية في القبيح وسيأتي بيانه.

* * *

القسم السابع عشر
في الكنـايـة

والكلام عليها من وجوه:

الأول في حدها. الثاني في المعنى الذي أتى بها من أجله. الثالث في أقسامها.

أما الأول: فقد قال علماء علم البيان إن الكناية هي إطلاق لفظ حسن يشير إلى معنى قبيح كقوله تعالى: ﴿**وأَوْرَثَكمْ أَرْضَهُمْ وديارَهُمْ وأموالَهُمْ وأَرْضاً لم تَطؤها**﴾ أراد بالأرض الثانية نساءهم اللاتي كن محل وطئهم وجهة استمتاعهم.. ومنه قوله تعالى: ﴿**وقالوا ما لِهذا الرسولِ يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق**﴾ يُريدون أنه يتغوَّط فكنوا عن التغوّط بأكل الطعام لأنه سببه.. ومنه قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نسائكم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهنّ**﴾ كنى بالرفث عن الحديث في الجماع وباللباس عن الوطء نفسه.. ومنه قوله تعالى: ﴿**وأصلَحْنا لهُ زوجَهُ**﴾ أي هيأناها للولادة بعد الكِبر. ومنه قوله تعالى: ﴿**ولمرأتهُ قائمةٌ فضَحِكت**﴾ أي حاضت.. قال بعض المتأخرين من الحذاق في هذا الفن الكناية في اللغة الستر وفي الصناعة أن تقصد مجازاً بعيداً مناسباً للحقيقة مع ضمنه أي إرادتها[1] وإذا استعمل اللفظ في ذلك كان ضرباً من الاستعارة وتقع الكناية في المفرد والمؤلف وسيأتي بيانه.

وأما الثاني: فالمعنى الذي أتى بها من أجله هو الإجمال في الخطاب والدفع بالتي هي أحسن والتجنب للهُجر من القول إذ هو أرسخ في الألفة وأمكن. قال الله تعالى: **﴿ادفعْ بالتي هي أحسن فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوَةٌ كأنه وَليٌّ حَميمٌ﴾**.

وأما الثالث: فقد اختلفت عبارات أهل هذه الصناعة فيها وآثرها ما ذكره ابن الأثير في جامعه قال إن الكناية على قسمين. قسم يحسن استعماله. وقسم لا يحسن استعماله. . فأما الضرب الأول وهو الذي يحسن استعماله فينقسم إلى أربعة أقسام. الأول التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع ألفاظ على معنًى آخر وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا ـ فلان نقي الثوب ـ أي منزّه عن العيوب وللكلام بهذا فائدة لا تكون لو قصد المعنى بلفظه الخاص به وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصوير المدلول عليه لأنه إذا صور في نفسه مثال ما خوطب به كان ذلك أسرع إلى الرغبة فيه أو الرغبة عنه. فمن بديع التمثيل قوله تعالى: **﴿أيحبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيهِ مَيتاً﴾** فإنه مثل الاغتياب بأكل الانسان لحم إنسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم لأخٍ ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدْت له مناسبة مطابقة للمعنى الذي وردت لأجله. فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة وأما قوله لحم أخيه فلما في الاغتياب من الكراهة لأن أرباب العقل والشرع قد أجمعوا على استكراهه وأمروا بتركه والبعد عنه. ولما كان كذلك كان بمنزلة لحم الأخ في كراهته ومن العلموم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله إلّا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه وهذا القول مبالغة في الاستكراه لا أمد فوقها. . وأما قوله ـ ميتاً ـ فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا

يحس بها. . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بأنها من أذم الحلال ومكروه الأفعال عند الله عز وجل والناس. . ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عنقك ولا تبسُطها كلَّ البَسْطِ﴾ فمثل البخل بأحسن تمثيل لأن البخيل لا يمدّ يده بالعطية كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده وإنما قال ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ـ ولم يقل ولا تجعل يدك مغلولة من غير ذكر العنق لأنه قد قال تعالى: ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾فناب ذكر العنق عن قوله كل الغل لأن غل اليدين إلى العنق هي أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد اليها. . ومن أمثال العرب ـ إياك وعقيلة الملح ـ وذلك تمثيل للمرأة الحسناء في المنبت السوء لأن عقيلة الملح هي الذرة. . ومن التمثيل قول ابن الدُّمينة:

أبيني أفي يُمني يديك تركتني فأفرَح أم صَيرتني في شمالكي

أي ابيني أمنزلتي كريمة عندك أم هينة عليك فذكر اليمين وجعلها مثالاً لإكرام المنزلة وذكر الشمال وجعلها مثالاً لهوان المنزلة لأن اليمين أشرف مكانة من الشمال وأكرم محلاً. وفي القرآن العظيم ما يدل على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمين في سِدرٍ مخضودٍ﴾ إلى قوله: ﴿وماءٌ مسكوب﴾ فلما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى: ﴿وأصحاب الشمالِ ما أصحابُ الشمالِ في سمومٍ وحميمٍ وظل منْ يحموم﴾ فاعرف ذلك. الثاني الأرداف وهو اسم سماه قدامة بن جعفر الكاتب قال اعلم أن أكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الأرداف في التمثيل وفي الفرق بينهما أشكال ودقة فأما التمثيل فقد سبق الاعلام به وهو أن يراد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ على معنى آخر فتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا ـ فلان نقي الثوب ـ أي منزه عن العيوب. وأما الأرداف فهو أن يراد الإشارة إلى معنى فيترك اللفظ الدال عليه ويؤتى بما هو دليل عليه ورادف له كقولنا ـ فلان طويل النجاد ـ والمراد طويل القامة إلّا أنه لم يتلفظه بطول القامة الذي هو الغرض ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة وليس نقاء

الثوب بدليل على النزاهة عن العيوب وإنما هو تمثيل لها فاعرف ذلك. واعلم أن الأرداف يتفرع إلى خمسة فروع. . الأول فعل البداهة كقوله تعالى: ﴿ومن أظلمُ مِمنِ افْتَرى على اللهِ كذباً أو كذَّبَ بالحقّ لمّا جاءهُ﴾ أي أنه سفيه الرأي بمعنى أنه لم يتوقف في كلامه وقت ما سمعه ولم يفعل كما تفعل المراجيح العقول المتثبتون في الأشياء فإن من سنماهتهم إذا ورد عليهم أمرٌ أو سمعوا خبراً أن لا يستعملوا فيه الروية وتأنوا في تدبره إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه. ألا ترى أن معنى قوله: ﴿كذّب بالحق لما جاءه﴾ أي أنه ضعيف العقل عازب الرأي فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ورادف له وذلك آكد وأبلغ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلاّ رجلٌ يُريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ ومثله في القرآن كثير. . الثاني من الأرداف باب المثل وهو أن العرب تأتي بمثل في هذا توكيداً للكلام وتشييداً من أمره يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبح ـ مثلي لا يفعل هذا ـ أي أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصداً للمبالغة فيسلك به طرق الكناية لأنه إذا نفاه عن مثله ومشابهه فقد نفاه عنه لا محالة. كذلك قولهم أيضاً ـ مثلك إذا سئل أعطى ـ أي أنت كذلك. وهو كثير في الشعر القديم والمولد وفي الكلام المنثور. . وسبب توكيد هذه المواضع بمثل أنه يراد أن يجعل نفسه من جماعة هذه أوصافهم تثبيتاً للأمر وتوكيداً له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ولم ترثب فيه قدمه. مثل ذلك قولهم لإنسان ـ أنت من القوم الكرام ـ أي لك في هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلاً فيه. . ومن هذا الباب في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿ليس كَمثله شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾ وهذا كقولك ـ مثلي لا يفعل كذا ـ فينفون البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذلك قصداً للمبالغة لأنهم إذا نفوه عن من يسد مسدَّه وهو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه. ونظير ذلك قولك للعربي ـ العرب لا تخفر الذمم ـ وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم وليس فرق بين قوله تعالى: ﴿ليسَ كمثْلِهِ شيءٌ﴾ وبين قوله ليس كالله شيءٌ إلا من الجهة التي نبهنا عليها فاعرفها. . الثالث من الأرداف ما يأتي في جواب الشرط وذلك من ألطف الكنايات وأحسنها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمانَ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾ كناية عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه وذلك رادف له. ونظيره قولك كنت تنكر حضور زيد فها هو أي فأنت كاذبٌ وهذا من دقائق الكناية. .
الرابع من الأرداف الاستثناء من غير موجب وذلك من غرائب الكناية كقوله تعالى: ﴿ليس لهم طعامٌ إلا مِن ضريع﴾ الآية. - والضريع - نبت ذو شوك تسميه قريش الشبرق في حال خضرته وطراوته فإذا يبس سمته الضريع والابل ترعاه طرياً ولا تقربه يابساً. والمعنى ليس لهم طعام أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الانس وهذا مثل قولك - ليس لفلان ظل إلّا الشمس - تريد بذلك نفي الظل عنه على التوكيد وذلك رادف لانتفاء الظل عنه كما ذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام. . وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم:

وتفرَّدُوا بالمَكرُماتِ فلم يكنْ لسواهمُ منها سوَى الحرْمانِ

فالمراد نفي المكرمات عن سواهم لأنهم إذا كان لهم الحرمان من المكرمات فما لهم منها شيء. . الخامس من الأرداف وليس مما تقدم بشيء وذلك نحو قوله تعالى: ﴿عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنْتَ لهمْ﴾ والمراد به إذا خوطب بمثل هذا غير النبيﷺ أنك أخطأتَ وبئس ما فعلت فقوله - لم أذنتَ لهم - بيان لما كنى عنه بالعفو أي ما لك أذنت لهم وهلا استأنيت فذكر العفو دليل ورادف له وإن لم يذكر. وكذلك قوله تعالى: ﴿فإنْ لم تَفعلوا ولَنْ تفعَلوا فاتَّقوا النارَ التي وَقودُها الناسُ والحجارَة أعِدَّتْ للكافرين﴾ قيل لهم أن أستندتم إلى العجز فاتركوا العناد فوضع قوله - فاتقوا النار - موضعه لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة من حيث أنه من نتائجه وروادفه لأن من اتقى النار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول الملك لحشمه - إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي - يريد فأطيعوني وأطيعوا أمري واحذروا ما هو نتيجة حذر السخط وروادفه. . ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قالت الأعرابُ آمنّا قلْ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية فإنها أفادت تكذيب دعواهم ودفع ما انتحلوه وفائدتها ها هنا أنه روعي في تكذيبهم أدب حسن لم يصرح بلفظه فلم يقل كذبتم لأن فيه نوع

استقباح في الخطاب فوضع قوله ـ قل لم تؤمنوا ـ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه لأن ذلك رادف له. . ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿قال المَلأ الذين استكبروا من قومه للذين اسْتضعِفوا لمن آمنَ منهم أتعلمون أنّ صالحاً مُرْسَلٌ من ربهِ﴾ أثبت العلم بإرساله وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة التي لا يدخلها ريب ولا يعتريها شك لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ورادف له وهو الإيمان به أعني صالحاً إنما صح عنهم بعد ثبوته عندهم والعلم بإرساله اليهم فالإيمان به أدنى دليل على العلم بأنه نبي مرسل وهذا من دقائق الأرداف ولطائفه. وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعرابية في حديث أم زرع تصف زوجها له إبلٌ قليلاتُ المسارح كثيرات المبارك إذا سمعن صوت المزاهر أيقَنّ أنهُنّ هوالك. . فإن الظاهر من هذا القول أن ابله يبركن عند بيته بفنائه ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للأضياف فإذا هُزت المزاهر للغناء نحرها لضيوفه فقد اعتادت هذه الحالة وأيقنتها وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه وإنما أتت بمعان دلت على ذلك من غير تصريح بمرادها. . وكذلك قال بعضهم:

وَدِدْتُ وما تغني الوَدَادة أنني ... بما في ضمير الحاجريّةِ عالمُ
فإن كان خيراً سَرّني وعلمتُهُ ... وإن كان شرّاً لم تلُمني اللوائمُ

أي أهجرها فأضرب عن ذلك جانباً ولم يذكر ذلك اللفظ المختص به لكنه ذكر ما هو دليل عليه ورادف له. . الثالث من الكناية وهو المجاورة وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء فيترك ذكره جانباً إلى ما جاوره فيقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود كقول عنترة:

فشكَكْتُ بالرمحِ الأصمّ ثيابَهُ ... ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

أراد ـ بالثياب ـ هنا نفسه لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب وفي ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة وقال أيضاً:

بـزجـاجـةٍ صفـراء ذاتِ أشعــةٍ   قُـرنَتْ بأزهـرَ في الشمالِ مُقـدّمِ

ـ الصفراء ـ ها هنا هي الخمرة والـذكر للزجـاجة حيث هي مجـاورة لها ومشتملة عليها. وذهب بعضُ المفسرين في قوله تعالى: ﴿وثيابَكَ فطهّـرْ﴾ أنه أراد بالثياب القلب أو الجسد أي وقلبك فطهر أو جسـدك. . ومنه قـول امرىء القيس:

فـإنْ تَـكُ قـد سـاءتــكِ مني خليقـةٌ   فسُلي ثيـابي من ثِيـابِـكِ تـنسُـلي

. . الرابع من الكناية ما ليس بتمثيل ولا أرداف ولا مجاورة كقوله تعالى:

﴿أو من ينشَؤ في الحليةِ وهو في الخصامِ غيرُ مُبين﴾ فكنى بـأنهم يتزينون في الحلية أي الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاراة الخصوم كان ـ غير مبين ـ أي ليس عنده بيان ولا بـرهان يحـاج به من خـاصمه وذلـك لضعف عقول النسـاء ونقصانهن عن فطرة الرجال. . ومن هذا الباب قال أبي نواس:

تقــولُ التي من بيتهــا خَفَّ مُحْملي   عــزيــزٌ عـلينـا أنْ نــراكَ تــسيــرُ

. . ألا ترى ما أحسن هذه الكناية فإنه أضربَ عن ذكر امرأته بقوله ـ من بيتها خف مركبي ـ فإنه من ألطف الكناية مذهباً. . وكذلك قول نصيب:

فعـاجُـوْا فـأثنـوا بـالـذي أنت أهلُهُ   ولـو سَكتـوا أثنتْ عليــك الحقـائبُ

. . وقـال الجاحظ نحن قـوم نسحر بـالبيان ونمـوه بالقـول. . الثاني من التقسيم الأول من الكناية وهو الذي يقبح ذكره ولا يحسن استعماله كقـول أبي الطيب المتنبي:

إني على شغفي بما في خُمْرِها   لأعِفُّ عمـا في سـراويـلاتِهـا

فإنّ هذه كناية عن النزاهة والعفة وعلم الله أن الفجور لا حسن منها. . وقد ذكر الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة فقال:

أحنُّ إلى ما يضمنُ الخُمرُ والحُلى   وأصدِفُ عما في ضمان المآزر

ألا ترى إلى هذه الكناية ما ألطفها والمعنيان سواء. وبهذا يعرف فضل الشاعرين أحدهما علس الآخر وذلك إذا أخذا معنًى واحداً فصاغه أحدهما أحسن صياغةً تميزه

القسم الثامن عشر

التعريض

وقد اختلف فيه مذاهب بعض علماء هذا الشأن فذهب بعضهم إلى أن الكناية والتعريض بمعنى واحد وبعضهم فرق بينهما. . قال ابن الأثير في جامعه في الكناية والتعريض أن لهذا النوع من الكلام موقعاً شريفاً ومحلاً كريماً وهو مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً وذلك نوع من علم البيان لطيف وقد تكلم جماعة من المؤلفين في هذا الفن وخلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما بل أوردوا لهما من النظم والنثر وأدخلوا أحد القسمين بالآخر وذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فمنهم أبو محمد بن سنان الخفاجي وأبو هلال العسكري والغانمي فأما ابن سنان فإنه ذكر في كتابه قول امرىء القيس:

وصِرْنا إلى الحُسنى ورَقَّ كلامنا   ورُضتُ فذلت صعبةٌ أيَّ إذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثال للتعريض. وسنورد لك أيها الناظر في كتابنا هذا فرقاً بين الكناية والتعريض ونميز أحدهما عن الآخر فنقول وبالله التوفيق. إن الكناية هي أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله عز وجل عن الجماع بالمس فإن حقيقة المس هي الملامسة يقال مسست الشيء إذا لمسته ولما كان الجماع ملامسة بالأبدان وزيادة أمر آخر أطلق عليه اسم المس مجازاً وضد الكناية التصريح. وأما التعريض فهو أن يذكر شيئاً

يدل به على شيء لم يذكره وأصله التلويح عن عُرض الشيء وهو جانبه وبيت امرىء القيس ضربه مثالاً للكناية وهو عين التعريض فإن غرضه من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لما استقبح ذكره لم يذكره بل ذكر كلاماً آخر ودل به عليه لأن المصير إلى الحسنى ورقة الكلام يفهم منها ما أراده امرؤ القيس من المعنى وذلك مما لا خفاء به وحيث تبين الفرق نشرع في أقسام كل واحد من الكناية والتعريض فنقول. . أن الكناية هي على قسمين. أحدهما ما يحسن استعماله وهو الذي نحن بصدد ذكره ها هنا والآخر ما لا يحسن استعماله وقد تقدم بيانهما. وأما التعريض فقد ميزه الله تعالى في خطبة النساء فقال جل من قائل: **﴿ولا جُناحَ عليكمْ فيما عَرّضتم به من خطبة النساء﴾** قال المفسرون التعريض بالخطبة أن يقول لها وهي في عِدّة الوفاة إنك لجميلة وإنك لحسنة وإني اليك لشيق وإن قدر الله شيئاً فهو يكون وما أشبه ذلك. ومما هو من التعريض قوله حكاية عن عبدة الأصنام حين كسرها إبراهيم عليه السلام: **﴿أأنتَ فعلتَ هذا بآلِهَتِنا يا ابراهيمُ قالَ بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾** يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار معه فكسرها فغرض ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم لأنه قال ـ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ـ هذا على سبيل الاستهزاء بهم. وهذا من رموز الكلام والقصد فيه أن ابراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم وتبكيتهم والاستهزاء بهم. ومن بديع التعريض قوله تعالى: **﴿قال الملأُ الذين كفروا من قومه ما نراكَ إلا بشراً مِثلَنا وما نراكَ اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا﴾** إلى قوله: **﴿بل نظنكمْ كاذبينَ﴾** فقوله: **﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾** تعريض أنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أ يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا هب أنك واحد من الملائكة وموازن لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنهم **﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾**. ومن مشكلات التعريض حديث عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال حكت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون أن النبي

ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون وإنكم لمن رَيْحان الله وإن آخر وطئة وطئها الله بوج». . اعلم أن ـ وج ـ وادٍ بالطائف والمراد غزاة حنين واد قبل وج لأنها آخر غزاة وقع بها رسول الله ﷺ على المشركين وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة أي قتال وإنما كانتا مجرد مخروج إلى الغزاة حَسْبُ من غير ملاقاة العدو أعني ولا قتال لهم ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله: «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ووفاته كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف وكأنه قال: «وإنكم من ريحان الله» أي من رزق الله وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» فكان ذلك تعريضاً لما أراده وقصده من قرب وفاته ومفارقته إياهم يعني أولاده وهذا من أغرب التعريضات وأعجبها. ومن هذا الباب قول الشميدر الحارثي:

بَنِي عَمنا لا تذكروا الشعرَ بَعدَما دَفنتمْ بِصحراء الغُمير القوافِيا

فإن ليس قصده الشعر بل قصده ما جرى بينهم بهذا الموضع من الغلبة لهم والقوة عليهم إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر ودفنه تعريضاً أي لا تفخرون بعد ذلك الواقعة التي جرت لنا ولكم بذلك المكان. ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن سعد إلى المأمون في حق بعض أصحابه. أما بعد فقد استشفع فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك بعد عن طاعته فوقع المأمون في كتابه قد عرفنا نصيحتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما.

* * *

القسم التاسع عشر

الاستطراد

وهو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره لمتعلق أو نفي عيب عن نفسه بذكر عيب غيره مثل قوله تعالى: ﴿وَسكنتمْ في مَساكنِ الـذينَ ظلموا أنفسهم وتَبينَ لكم كيف فعلنا بهمْ﴾ . ومثل قوله تعالى: ﴿فإنْ أعرضوا فقلْ أنذرْتُكم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمودٍ﴾. ومثل قوله تعالى: ﴿ألا بُعداً لِمدين كما بعدَت ثمودَ﴾ ومثل هذا في القرآن كثير. . ومنه في الشعر قول السموءل بن عاديا:

وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسَلولُ
يُقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهمْ فتطولُ

. . وقال آخر:

ولا عَيبَ فينا غيرُ عِرقٍ لمعشرٍ ... كرامٍ وإنا لا نخطُّ على الرّمل

يريدُ أنا لسنا مِجوْسٍ فإن المجُوسَ كانتْ تزعُمُ أن الرجلَ منهم إذا تزوج أخته أو ابنته فجاءت منه بولد أن ذلك الولد إذا خط بيده على داء النملة أبرأه.

القسم العشرون

في التورية

وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر وهو في القرآن العظيم كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿حتى نؤتى مثلَ ما أوتيَ رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾ الآية الجلالة الأولى مضاف اليها والثانية مبتدأ بها. وقوله تعالى: ﴿ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ . ومثله قوله تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أولِ يوم أحق أن تقوم فيه رجال﴾.

القسم الحادي والعشرون

الاحتجاج النظـري

وبعض أهل هذا الشأن يسميه المذهب الكلامي. . وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضرب من المعقول. ومنه قوله تعالى: ﴿أو ليسَ الذي خلقَ السموات والأرضَ بقادر على أن يَخلقَ مِثلَهمْ﴾. وقوله عز وجل: ﴿لو كان فيهما آلِهةٌ إلا الله لفسدَتا﴾. وقوله تعالى: ﴿قال من يحيي العظام وهي رَميمٌ قلْ يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ﴾. . ومنه قول الشاعر:

جَـرَى القضـاءُ بمـا فيـهِ فـلا تلم ... ولا مَلام على ما خُطَّ بالقلم

. . وقيـل إنّ الاحتجاج أن يخـرج الكـلام على طـريقـة الجـدل كقـول النابغة:

مُـلوكٌ وأخـوانٌ إذا مـا أتيتُـهُـمْ ... أحَـكَّمُ فـي أمـوالـهـم وأقـرّبُ

كفعلك في قومٍ أراك اصطنعتَهـم ... فلم تـرهُمْ في شُكر ذلـك أذنبـوا

يقول لا تلمني في مدح آل جفنة وقد أحسنوا إلي كما أحسنت إلى قوم فشكروك فلم نر ذلك ذنباً.

القسم الثاني والعشرون

حسن المطالع والمبادي. ويقال فيه حسن الافتتاح

قال علماء علم البيان. . ومن ضروب هذا العلم حسن المطالع والفواتح وذلك دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الأذهان فإنه أول شيء يـدخل الأذن وأول معنى يصل إلى القلب وأول ميدان يجول فيه تـدبر العقـل وهو في القرآن العظيم على قسمين. جلي وخفي. أما الجلي فكقوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ رَبِّ العـالمين﴾. وكقولـه تعالى: ﴿الحمـد للهِ الذي خلقَ السمـواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ﴾. وقوله: ﴿تبارك الذي بيدهِ الملكُ وهو على كلّ شيءٍ

قديرٌ﴾ وأكثر مطالع سور القرآن على هذا النمط. وأما الخفي فمثلُ قوله تعالى: ﴿المّ ذلك الكتابُ﴾. وقوله: ﴿المّ اللهُ لا إلهَ إلاّ هو الحيُّ القيومُ﴾. وقولـه: ﴿المّصّ﴾. وقوله: ﴿حمّ﴾. وقوله: ﴿قّ والقرآن﴾. وقولـه: ﴿نون والقلم﴾ ومـا يجري مجـرى ذلك من السـور التي افتتحت بالحـروف المفردة والمـركبة وسيأتي الكلام عليها في فصل مفرد.

القسم الثالث والعشرون

حسن المقطع

وهو عند أرباب هذا الشأن أن يختم المتكلم كلامه بكلام حسن السبـك بديع المعنى فإنه آخر ما يبقى في الذهن ولأنه ربما حفظ من دون سائر الكلام فيتعين أن يجتهد في رشاقته وحلاوته وجزالته وجميع خواتم سور القرآن في غاية الحسن ونهاية الكمال لأنها بين. أدعية. ووصايا. وفرائض. وقضايا. وتحميد. وتهليل إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى للنفوس بعدها تطلع ولا إلى مـا يعقبها تشوف ـ كالدعاء ـ التي ختمت به سورة البقرة ـ و الوصايا ـ التي ختمت بها سورة آل عمـران ـ والفـرائض ـ التي ختمت بهـا سـورة النسـاء ـ والتبجيـل. والتعظيم ـ اللذين ختمت بهما سورة المائدة ـ والوعد. والوعيد ـ اللذين ختمت بهمـا سورة الأنعـام ـ والتحريض ـ على العبـادة بوصف حـال الملائكـة الذي ختمت به سورة الأعراف ـ والحض على الجهاد. وصلة الـرحم ـ التي ختمت بهما سورة الأنفال. ووصف رسول الله ﷺ ومدحه وتسليته ووصيته بالتهليل التي ختمت به سورة براءة. وتسليته التي ختمت بها سورة يونس ومثلها خاتمة سورة هود. ووصف القرآن ومـدحه اللذين تمت بهمـا سورة يـوسف. والرد على من كذب الرسول ﷺ الذي ختمت به سورة الرعد. ومدح القرآن وذكر فائدته والعلة في إنزاله التي ختمت به سورة إبراهيم. ووصية الرسول التي ختمت بها سورة الحجر. وتسليته ﷺ وطمأنينته ووعد الله سبحانه الذي ختمت به سورة النحل. والتحميد الذي ختمت به سورة سبحان. وتحضيض الرسـول ﷺ على الابلاغ

والاقرار بالبشرية والأمر بالتوحيد الذي ختمت به سورة الكهف. وما ذكر في نصف القرآن مثال لمن نظر في بقيته إلى غير ذلك من فواصل القرآن.

القسم الرابع والعشرون
في براعة الاستهلال

وهو أن يذكر الانسان في أول خطبته أو قصيدته أو رسالته كلاماً دالاً على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه كما قيل لكاتب أكتب إلى الأمير وعرفه بأن بقرة ولدت حيواناً على شكل الإنسان فكتب. أما بعدَ حمد الله الذي خلق الأنام في بطون الأنعام. ومنه قوله تعالى: **﴿الٓمٓ غُلبت الرومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غلَبِهمْ سيغلبون﴾**. ومنه قوله تعالى: **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾**. ومنه في القرآن كثير.. وشرطه أن لا يبتدأ بشيء يُتطير منه كقوله الأخطل:

إذا مُتَّ ماتَ الجوْدُ وانقطعَ النّدى ... ولم يبقَ إلاّ من قليلٍ مُصَرّدِ

.. وإن يجتنب التشبيب بالاسْم المستكره كقول جرير:

وتقولُ بَوْزَعُ قد دَنيتُ لغيرنا ... هَلاّ هوَيتِ لِغيرنا يا بوزَعُ[1]

.. بل يبتدىءُ بالمديح مثل قول أبزون العُماني:

على منبر العلياءِ جدك يخطبُ ... وللبلدة العذراءِ سيفُكَ يَخطُبُ

وفي التهاني بمثل قول المتنبي:

المجدُ عوفي إذْ عوفيتَ والكرمُ ... وزال عنكَ إلى أعدائك الألمُ

.. وقولُ الآخر:

أبشرْ فقد جاءَ ما تريدُ ... وبَادَأ عداءك المُبيدُ

---

(١) هكذا في الأصل والمحفوظ
وتقول بوزع قد دبيت على العصا ... هلا حزنت بغيرنا يا بوزع

. . وفي التشبيب كمثل قوله:

زَمُّـوا الجمالَ فقـلْ للعـاذِلِ الجـاني　　　لا عـاصِمَ اليـوم منْ مـدرار أجفـاني

. . وفي المراثي بمثل قول أوس:

أيتهـا النفس أجملي جزعـا　　　إنّ الـذي تحـذرين قـد وقعـا

قال المصنف: عفا الله عنه هذا النوع قد قدمناه في فصل حسن المطلع لكن الزنجاني رحمه الله أفرد له باباً فأفردناه على حكم ما أفردهُ وكان في فصل حسن المطلع زيادات يحتاج إليها فذكرناها ها هنا وهذه الزيادة التي اقتضت افراده.

القسم الخامس والعشرون

الانتقال من فن إلى فن. ويسمى التخلص

والكلام عليه منْ وجوه:

الأول في حقيقته. الثاني في شرطه. الثالث في الفرق بينه وبين الاقتضاب. الرابع في المعنى الذي جيء به من أجله. الخامس في ذكر من هو أحق باستعماله..

أما الأول: فقال علماء علم البيان التخلص هو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سبباً إليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً.

وأما الثاني: فمن شرطه أن يكون انتقاله من فن إلى فن بديع وحسن رصف ووجازة لفظٍ ورشاقة معنى ليكون الذي انتقل اليه أقرب إلى القلب وأعلق بالنفس من المعنى الذي انتقل عنه.

وأما الثالث: فالفرق بينه وبين الاقتضاب أن التخلص لا يكون إلا لعلاقة

بينه وبين ما تخلص منه. وأما الاقتضاب فليس شرطه أن يكون بينه وبين ما قبله علاقة بل يكون كلاماً مستأنفاً منقطعاً عن الأول.

وأما الرابع: فالمعنى الذي جيء به من أجله شيئان. أحدهما معرفة حذق المتكلم وقوة ملكته في التلعب بالكلام وتصرفه فيه وطول باعه واتساع قدرته في الفصاحة والبلاغة. والثاني التفنن بحصول ملاذ كثيرة وتكون لذته بأمور اقتضاها عمال الفكرة فيما يتخلص به من بديع المعنى ورشيق اللفظ وحسن الفسق.

وأما الخامس: فالأحق باستعماله الشاعر فإن الشاعر تحصره القوافي والأوزان فيضيق عليه النطاق إذا اقتصر على معنًى واحد فتدعو حاجته إلى الخروج من فن إلى فن ومن معنى إلى معنى ليتسع نطاقه ويتحقق إرفاقه بخلاف الناثر فإنه مطلق العنان ممدود الباع منبسط البنان يمضي حيث شاء ويتفنن في الإنشاء. . وقد ورد في القرآن العظيم من هذا النوع آياتٌ كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿**قالَ هل يسمعونكم إذْ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوٌ لي إلاّ ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين**﴾ لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم إلى ذكر صفات الله عز وجل قال ـ إن أولئك أعداء لي إلاّ الله ـ فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل وهو خير من غيره من الكلام ومثله في القرآن كثير.

* * *

القسم السادس والعشرون
في الاقتضاب

والكلام عليه من وجوه:

الأول في حقيقته. الثاني في المعنى الذي أتى به من أجله. الثالث في أقسامه الرابع في أدواته. الخامس في الفرق بينه وبين التخلص. السادس في ذكر اختلاف الأئمة في الأبلغ منهما.

أما الأول: فقال علماء علم البيان أن الاقتضاب ضد التخلص وذلك أن يقطع الناظم كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مدح أو هجاءٍ أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول ولا تلفيق بينه وبينه وهو مذهب القدماء ولذلك قال أبو العلاء محمد بن غانم الغانمي أن كتاب الله العزيز خال من الاقتضاب والتخلص. وهذا القول فاسد لأنّ حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تناسب بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه وفي القرآن العظيم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير والانذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم إلى متشابه ومن صفة لنبي ونبإٍ منزل إلى ذم شيطان مرتد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذة بالقلب أنيقة . .

فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿واتلُ عليهم نبأ إبراهيمَ إذ قال لأبيه وقومِهِ ما تعبُدُون قالوا نعبُدُ أصناماً فنظَلُّ لها عاكِفين قال هل يسمَعونكم إذ تدْعون﴾** إلى قوله: **﴿فلو أنّ لنا كَرّةً فنكونَ من المؤمنين﴾** الآيات. هذا كلام يُذهل العقول ويحيّر الألباب وفيه كفاية لطالب البلاغة والمنتصب لهذه الصناعة فإنه متى أنعم فيه النظر وتدبر أنباءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك عنىً لمن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن. ألا ترى أيها المتأمل ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه الصلاة والسلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ثم أنحى إلى آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وإلى تقليد آبائهم الأقدمين فكشفه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذي لا تجب العبادة إلا له ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه فصور المسألة في نفسه دونهم لقوله: **﴿فإنهم عدوٌّ لي إلاّ ربَّ العالمين﴾** على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة العدوّ وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرتُ عبادةَ من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى لهم إلى

القبول وأبعث على الاستماع منه ولو قال: ﴿فإنهم عدوٌّ لكم﴾ لم تكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى وأجرى تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجو في الآخرة من رحمته ليعلم بذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة وواجب على الخلق الخضوع له والاستكانة من عظمته ثم خرج من ذلك إلى أدعية مناسبة فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الأوابين لأن الطالب من مولاه والراغب اليه إذا قدّم قبل سؤاله وضراعته الاعتراف بالنعمة والإقرار بالإحسان كان ذلك أسرع بالإجابة وأنجح لحصول القصد والطِلْبة ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث يوم القيامة ومجازات الله تعالى لمن آمن به باثابة الجنة ولمن ضل عن عبادته بالنار فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون من الأصنام سؤال موبخ لهم مستهزءٍ بهم وذكر ما يُدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا. . فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على لطيفة دقيقة حتى كأنه معنى واحد وخرج من ذكر الأصنام وتقريره لأبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي عليه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الألوهية وعظّم شأنه وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح إلاّ له ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله عز وجل وعقابه فتدبر هذه التخليصات اللطيفة وضم هذا إلى غيره من تضمين هذا الكلام بأنواع من صناعة التأليف وهي الإيجاز والكناية والتقديم والتأخير ثم إنابة الفعل الماضي عن الفعل المضارع. فأما الإيجاز فلا خفاء به على العارف بما أشرنا اليه في بابه الذي سبق ذكره أولاً وأن من جملة قوله تعالى: ﴿وأزلفَتِ الجنة للمتقينَ وبرزت الجحيم للغاوين﴾ فإنه جمع الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته مع عظمهما وفخامة شأنهما في هذه الكلمات اليسيرة. وأما الكناية فقوله: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ والغاوون هنا كناية عن أبيه وقومه ويدل على ذلك قوله: ﴿وقيل لهم: أين ما كنتم تعبدون

من دونِ الله﴾ لأن كلامه في الأول كان معهم في عبادتهم للأصنام. وأما التقديم والتأخير فإنه ذكر إبراهيم النعمة وتعديد الإحسان قبل الدعـاء وطلب الحاجـة. وأما إنابة الفعل الماضي عن المضارع فقوله: **﴿وأُزْلفت الجنة للمتقين وبرزتْ الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله﴾** بعد قوله: **﴿ولا تحزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مـال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم﴾** وفي ذلك من الفائدة ما أشرنا اليه في بابه وقد سبق ذكره.

وأما الثاني: فالمعنى الذي أتى به من أجله تشوف النفس بعد قطع الكلام الأول إلى الكلام الثاني الذي بعده ولا سيما إذا لم يكن بفاصلة فإنه يدل على تمكن المتكلم في البلاغة وقوة ملكته في التلعب بالكلام وجـودة فكرة المؤلف وحسن فطرة السامع وصحة ذهنه.

وأما الثالث: فقال علماء البيان هو على قسمين. منه ما يكـون بفاصلة. ومنه ما لا يكون بفاصلة وهو بالفاصلة أحسن لأن بها تتشوف النفس إلى المعنى الثاني فتكون له لذاذَةٌ أشد مما إذا ورد بغتة.

وأما الرابع: فأدواته فواصله وهي ـ أما بعد ـ وقيـل إنّ أول من تكلم بها رسول الله ثم تداولها الناس بعده ـ وهذا. وهـذه ـ وقد يـذكر لهمـا خبر كقـوله تعالى: **﴿هذا ذكـرٌ وإن للمتقين لحسنَ مآب﴾** وقـد لا يذكـر لهما خبـر كقولـه تعالى: **﴿هذا وإنّ للطاغين لشرَّ مآبٍ﴾** وكما قال الشاعر:

هــذا وكَمْ لي بـالجنينــة سَكـرةٌ   أنـا من بَقـايـا شُـرْبهــا مخمـورُ

وقد قال ابن الأثير في جامعـه في قولـه تعالى: **﴿واذكـر عبادَنـا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار﴾** إلى قوله: **﴿جناتُ عدْنٍ مُفتّحةً لهمُ الأبوابُ﴾** ألا ترى ما ذكرَ قبل هذا ذكرٌ من ذِكرِ مَن ذَكرَ من الأنبياء وأراد أن يذكر بعده باباً آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلهـا فقال: **﴿هـذا ذكرٌ﴾** ثم قـال: **﴿وإنّ للمتقين لحسن مآب﴾** ويدلّ عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال: **﴿هذا وإنّ للطاغين لشرُّ مآب﴾** وذلك من فصل الخطاب الذي

هو ألطف موقعاً من التخلص فاعرفه. . ومن بديع الاقتضاب قوله تعالى: ﴿**ويلٌ للمطفّفين**﴾ إلى قوله: ﴿**لربِّ العالمين**﴾ ثم اقتضب فقال: ﴿**كلّا إن كتابَ الأبرارِ لفي علّيين**﴾. . وهو في القرآن كثير جداً وأكثر ما يرد في ذكر القصص وهذا من النوع الأول من الاقتضاب لأنه بلا فاصلة. . وقال ابن الأثير ومما استطرف من هذا النوع قول ابن الزملكاني[1] :

وليلٍ كموج البر قعيدِيّ ظلمةً	وبَردِ أعانيهِ وطولِ قرُونهِ
سرَيتُ ونومي فيهِ نومٌ مشرَّدٌ	كعقلِ سُليمانَ بنِ فَهْدِ ودِينهِ
على أوْلقٍ فيه التفاتٌ كأنهُ	أو جابرٍ في خبطهِ وجُنونهِ
إلى أن بدا ضَوءُ النهارِ كأنهُ	سَناوَجهِ قِرْواشٍ وضوءِ جبينه

وقال إن هذه الأبيات لها حكاية وذلك أن هذا الممدوح كان جالساً في ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر كان البرقعيديّ مغنياً وسليمان بن فهد وزيراً وأبو جابر حاجباً فالتمس الممدوح من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه.

قال المصنف عفا الله عنه: هذا الذي ذكره ابن الأثير قد أورده علماء علم البيان في باب الاستطراد وهو به أمس وأليق.

---

(١) ابن الزملكاني هذا تصحيح منا اعتماداً على حفظنا وفي الأصل ابن الزمكلفة. . وقد أورد الأبيات التنوخي في كتابه الأقصى القريب في باب التخلص والاقتضاب ولم يسم القائل.

القسم السابع والعشرون
في التطبيــق
ويسمى المطابقة والطباق والتكافؤ والتضاد

والكلام عليه من وجوه:

الأول في حقيقته. الثاني في اشتقاقه. الثالث في أقسامه.

أما الأول: فقال علماء عِلم البيان هو أن يجمع في الكلام بين متضادين مع مراعاة التقابل بحيث لا يضم الاسم الى الفعل ولا الفعل إلى الاسم وهو كقوله تعالى: **﴿فليَضحكوا قليلاً وليَبكوا كثيراً﴾** وقوله تعالى: **﴿وتحسَبُهم أيقاظاً وهم رُقودٌ﴾**. وقوله تعالى: **﴿سَواءٌ منكمْ مَن أسرَّ القول ومَن جهرَ به ومَن هو مُستخفٍ بالليلِ وسارِب بالنهار﴾**. وقوله تعالى: **﴿قلِ اللهم مالك الملكِ تؤْتي الملكَ من تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتُعزّ من تشاءُ وتذلُّ مَن تشاءُ بيدِك الخيرُ﴾** إلى قوله: **﴿وترزُقُ من تشاءُ بغيرِ حساب﴾**. وقوله تعالى: **﴿وأنه هو أضحكَ وأبكى﴾** ومثله في القرآن كثير. ومن ذلك في أشعار العرب ومخاطباتهم كثير.. فمن بديع أشعار العرب قول الحارث بن حلزة:

بأنّا نوردُ الرّاياتِ بيضاً ونُصدِرُهنّ حُمراً قد رَوينا

جمع في هذا البيت بين الطباق والمقابلة.. وأبدع منه قول بعض المتأخرين:

فأورَدَها بيضاً ظِماءً صُدورُها وأصدَرَها بالرّيِّ ألوانها حُمرُ

.. قال ابن الأثير أجمع جماعة علماء من أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده كالبياض والسواد والليل والنهار وخالفهم في ذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصفة مختلفتين في المعنى وهذا الذي ذكره قدامة

هو التجنيس بعينه غير أن الآسماء لا مشاحة فيها إلا إذا كانت مشتقة ولننظر نحن فيما حمله على ذلك. والـذي حمل قـدامة على ذلـك ما اقتضـاه اشتقاق لفظ الطباق وسنبينه.

وأما الثاني: فاشتقاق الطباق وأصله في اللغة من طابق البعير في سيره إذا وضع رجله موضـع يده وهذا يقوى قول قدامة لأن اليـد غير الـرجل لا ضـدها والموضع الذي يقعان فيه واحد فكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحداً. . وأما الجماعة فيحتمل أن يكونوا رأوا أن الرّجل مخالفة لليد فراعوا المخالفة والضد مخالف للضد لا اجتماع لهما وهذا عين التضاد. ويجوز أن يكون الجماعة سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة لا اشتقاق لها ولا مناسبة وهذا هو الظاهر من هذا الأمر إلا أن يكونوا قدعلموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم، والصحيح هو الأول لأن بعضهم سماه التضاد وهذا دليل على مراعاة الاشتقاق.

وأما الثالث: فقـد قسم أرباب علم البيـان الطبـاق إلى قسمين. لفظيٌّ. ومعنويٌّ. أما اللفظي فهو على قسمين. الأول ما قدمناه. والثاني أن يجمع بين شيئين موافقين وبين ضديهما ثم إذا اشترطهما بشرط وجب أن يشرتط ضديهما بضد ذلك الشـرط كقولـه تعالى: **﴿فـأما مَن أعـطى واتقى وصدَّق بـالحسنى﴾** الآية. فكما جعل التيسير لليسرى مشترطاً بالاعطاء والتقى والتصديق جعل ضده وهو العسر مشتـرطاً بـأضداد تلك الأمـور وهي المنع وعـدم الاتقاء والاستغنـاء والتكذيب. . وأما المعنوي فعلى قسمين الأول أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحتري:

(١)

. . والثاني في النفي كقول البحتري أيضاً:

يُقيِّضُ لي من حيثُ لا أعلمُ النـوَى ويسـري إليّ الشوقُ غن حيثُ أعلم

(١) بياض في الأصل.

. . والطباق في القرآن كثير . . ومنه في السّنة قوله ﷺ: «عِلم الأنساب علم لا ينفع وجهل لا يضر» وقوله ﷺ في مدح الأنصار: «إنكم لتقِلون عند الطمع وتكثرون عند الجزع» . . ومن الطباق البديع قول الشاعر:

إنّ هــذا الــربيــعَ شيءٌ عجيبٌ ... تضحكُ الأرضُ من بُكاءِ السمـاءِ

القسم الثامن والعشرون

المقـابلـة

والكلام عليها من وجوه

الأول في حقيقتها. الثاني في اشتقاقها. الثالث في أقسامهـا. الرابـع في الفرق بينها وبين الطباق.

أما الأول: فقال جماعة من العلمـاء بهذا الشأن المقابلة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها. . وقال بعضهم المقابلة أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو مخالفة فتأتي في الموافق بما وافق وفي المخالف بما خالف وتشترط شروطاً وتعدد أحوالاً في أحـد المعنيين فيجب أن تـأتي في الثاني بمـا يوافقـه بمثل مـا شرطتَ وعـدَّدت وفيما يخـالفه بـأضـداد ذلك كقوله تعالى: **﴿فأما مَن أعطى واتَّقى وصدَّق بـالحسنى فسينسره لليسرَى وأما من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى فسنيسرُه للعُسْرى﴾** وكقول الشاعر:

فيـا عجبـاً كيف اتفقْنـا فنـاصــحٌ ... وفيٌّ ومطويٌّ على الغِلِّ غادِرُ

قال المصنف عفا الله عنه: قال الإمام فخر الدين رحمه الله هذا النوع في فصل الطباق وذكره الزنجاني في فصل المقابلة والذي اختاره العلماء المتقدمون في هذا الفن أن المقابلة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها كما تقدم.

وأما الثاني: فالمقابلة مصدر من قابل الشيءُ الشيء يقابله مقابلة إذا واجهه وصار ماثلاً أمامه وهو من باب المفاعلة كالمضاربة والمقاتلة وأصله في الاجرام يقال قابل الشخصُ الشخصَ والجبلُ الجبلَ إذا واجهه وناوحه إذا صار موازياً له ماثلاً أمامه ثم توسع فيه حتى استعمل في المعاني ولما وضع المؤلف الكلمة بإزاء الكلمة الأخرى والمعنى بإزاء المعنى الآخر حصلت المقابلة من جهة اللفظ تارة ومن جهة المعنى أخرى.

وأما الثالث: فأقسامها ثلاثة. مقابلة لفظية. وهي على قسمين وقد تقدم. ومقابلة معنوية. وهي على قسمين أيضاً. الأول أن يقابل معنًى بمعنى مثل: «إنّ لك أنْ لا تجوعَ فيها ولا تَعرَى وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضحى» وجهُ المقابلة في هذه الآية أن ـ الجوع ـ هو خلوّ الباطن ـ والعُرْي ـ خلوّ الظاهر ـ والظمأ ـ احتراق الباطن ـ والضحى ـ احتراق الظاهر. فقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق. والثاني أن يجيء في السلب كقول الفرزدق:

لعَمري لئن قلَّ الحصى في رِحالِكم   بني نهشَلٍ ما لؤمكم بقليلِ

. . والثالث المقابلة الفاسدة وهو أن يقابل الشيء بما لا يوافقه ولا يخالفه كقول الكميت:

وقد رأين بها حُوراً منعَّمة   بَيضاً تكامل فيها الدَّلُّ والشنَبُ

ـ والشنب ـ لا يشاكل الدل. وهذان القسمان ذكرهما الزنجاني في تكملته. والمقابلة قريب من الطباق للمشابهة من بعض الوجوه والمخالفة من وجهين نذكرهما بعد هذا القسم.

وأما الرابع: فالفرق بين المقابلة والطباق من وجهين. الأول أن الطباق لا يكون إلا ضدين غالباً مثل قوله تعالى: ﴿وهو الذي يُميتُكم ثم يُحييكم﴾ وأشباه ذلك. والمقابلة تكون غالباً بالجمع من أربعة أضداد. ضدين في أصل الكلام. وضدين في عجزه. وتبلغ إلى الجمع من عشرة أضداد. خمسة في الصدر. وخمسة في العجز. . الثاني لا يكون الطباق إلا بالأضداد والمقابلة

تكون بالأضداد وغيرها. وقد ورد في أشعار العرب والمتأخرين أبيات كثيرة يتضمن البيت منها مقابلتين وطباقين. . فمن ذلك قول الحارث بن حلزة:

بـانّا نـوردُ الرايـاتِ بيضاً ونُصدِرُهنّ حُمراً قـد رَوينا

. . ومن ذلك قول بعض المتأخرين:

فأوْرَدها بيضاً ظماءً صدُورها وأصدَرَها بالرّي ألوانها حُمرُ

. . قال ابن الأثير في جامعه أن الطباق أحد أنواع المقابلة لأنه لا يخلو الحال في ذلك من ثلاثة أقسام. أما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره أو بمثله وليس لنا قسم رابع. فأما الأول وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما أشبه ذلك كقوله تعالى: **﴿فليَضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾** ألا ترى إلى صحة هذه المقابلة البديعة حيث قابل الضحك بالبكاء والقليل بالكثير. وكذلك قوله تعالى: **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرَحوا بما آتاكم﴾** وهذا أحسن ما يجيء في هذا الباب. وقد قال رسول الله ﷺ: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» ومن هذا قول بعضهم في السحاب:

ولـهُ بـلا حُـزنٍ ولا فـرَحٍ ضحـكٌ يُـراوح بينـه وبكـا

فقابل الضحكَ بالبكاء والحزن بالسرور في بيت واحد إلّا أن في ذلك نظراً من حيث ترتيب التفسير لا من حيث المقابلة لأن ترتيب التفسير يقتضي أن كان قال ـ بلا حزن ولا مسرّة بكاء يراوح بينه وضحك ـ وهذا لا كبير عِيب فيه. وإنما الأوْلى والأليق ما أشرنا اليه فاعرفه. . وقال آخر:

فـلا الجودُ يُفني المـالَ والجَدُّ مقبـلٌ ولا البخـلُ يبقي المال والجَـدّ مُدْبـرُ

. . ومثله قول البحتري:

وأمـة كأن قبـحُ الجورِ يُسخطهـا دهراً فأصبح حسنُ العدلِ يُرضيها

فقابل القبح بالحسن والجور بالعدل والسخط بالرضا وذلك بديع في بابه فاعرفه.

وأما القسم الثاني وهو مقابلة الشيءَ بغيره فهو ضربان. أحدهما ما كان بين المقابل والمقابل له مناسبة وتقارب كقول بعضهم:

يجزون مِنْ ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوءِ إحسانا

والظلم ليس ضد المغفرة وإنما هو ضد العدل إلّا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل مناسبة له حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وأمثال هذا كثير. وأما القسم الثاني أن يقابل الشيءُ بالشيءِ وبينهما بُعدٌ ولا يناسبه بحال من الأحوال. أقول وذلك لا يحسن استعماله في التأليف. . ومما جاء منه قول بعضهم:

أم هَلْ ظعائنُ بالعلياءِ رافعةٌ وإن تكاملَ منها الدَّل والشنب

فإن ذلك غير مناسب لأنه إنما كان يحسن أن يكون مع الدل الغنج أو ما قاربه ومع الشنب اللعس أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم. وأما الثالث فهو أن يقابل الشيءُ بمثله وهو ضربان. أحدهما التقابل في اللفظ والمعنى. والآخر التقابل في المعنى دون اللفظ. أما التقابل في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى: ﴿ومَكرُوا مَكراً ومَكرنا مَكراً﴾. وقوله تعالى: ﴿فَنسوا الله فَنسيَهمْ﴾. وأما التقابل في المعنى دون اللفظ فهي مقابلة الجملة لمناب مستقبلة كانت أو ماضية فإن كانت ماضية قوبلت بالماضية وإن كانت مستقبلة قوبلت بالمستقبلة وربما قوبل الماضي بالمستقبل والمستقبل بالماضي وذلك إذا كان أحدهما في معنى الآخر. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قل إن ضللتُ فإنما أضل على نفسي وإنْ أهتدَيتُ فيما يوحي إليّ ربي﴾ فإن هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وإن اهتديت فإنما اهتديت لها. . وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى أن النفس كلما هو عليها فهو بها أعني أن كل ما هو وبالٌ عليها وصار لها فهو بسببها ومنها لأنها أمارة بالسوء، وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها وهذا حكم عام لكل مكلف وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به. ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿ألم يروا أنّا جعلنا الليلَ ليسكنوا فيه والنهار

مُبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإنه لم يراع التقابل في قوله ـ ليسكنوا فيه فيه. ومبصراً ـ لأن القياس يقتضي أن يكون والنهار ليبصروا فيه وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ وهكذا النظم المطبوع الغير المتكلف لأن معنى قوله مبصراً ليبصروا فيه طُرق التقلب في الحاجات. ومن مقابلة الشيء بمثله أنه إذا ذكر المؤلف ألفاظاً تقتضي جواباً فالمرضي عندنا أن يأتي بتلك

الألفاظ في الجواب من غير عدول عنها إلى غيرها مما هو في معناها. فمن ذلك قوله تعالى: **﴿وجزاء سيئةٍ مثلها﴾** ومما عيب في هذا الباب قول بعضهم من اقترف ذنباً عامداً أو اكتسب جرماً قاصداً لزمه ما جناه وحاق به ما توخاه. و الأليق إن كان قال لزمه ما اقترف، وحاق به ما اكتسَب ليكون أحسن طباقاً وإن كان ذلك جائزاً في الكلام من حيث أن معناه صواباً لكنه عدول عن الأليق والأولى في هذا الباب وأمثاله كثيرة فاعرفها. .

واعلم أن في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر وتدبر وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالاعجاز من أبيات الشعر.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى في حق المنافقين: **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا﴾** إلى قوله: **﴿ولكن لا يشعرون﴾**. وقوله تعالى: **﴿وإذا قيل لهم آمِنوا كما آمَن الناسُ قالوا﴾** إلى قوله: **﴿ولكن لا يعلمون﴾** ألا ترى كيف فصل الآية الأخيرة بيعلمون والآية التي قبلها بيشعرون وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة والعلم ولذلك قال: **﴿ولكن لا يشعرون﴾** وأما النفاق وما فيه من المعنى المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيويٌّ مبنيٌّ على العادات غعلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التجارب والتعاون فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال: **﴿يعلمون﴾** وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقاً فقال: **﴿لا يعلمون﴾** وآيات القرآن العظيم جميعها فصلت

هكذا كقوله تعالى: ﴿ألم ترَ أنّ اللهَ أنزل من السماءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مخضَرةً إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ﴾. وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرضِ وإنّ اللهَ لهو الغنيُّ الحميدُ﴾. وكقوله: ﴿ألم تر أن اللهَ سخّرَ لكم ما في السمواتِ والأرض والفلكَ تجري في البحرِ بأمرِه ويمسكُ السماءَ أن تقَعَ على الأرض إلا بإذنِهِ إنّ اللهَ بالناسِ لرؤفٌ رحيمٌ﴾ فإنه إنما فصلت الآية بلطيف خبير لأن ذلك في موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وإخراج النبات من الأرض ولأنه خبير بمنفعتهم ومضرتهم في إنزال الغيث وغيره.

وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغني حميد لأنه له ما في السموات وما في الأرض فعرف الناس أن جميع ما في السموات وما في الأرض له لا لحاجة بل غني عنها جواد بها لأنّ ليس غنيٌّ نافعاً بغناه إلّا إذا كان جواداً منعماً وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليه واستحق عليه الحمد فذكر ـ الحميد ـ ليدل على أنه الغني النافع بغناه خلقه.

وأما الآية الثالثة فإنها فصلت ﴿برؤف رحيم﴾ لأنه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم وإجراء الفلك في البحر لهم وتسييرهم في ذلك الهول العظيم وجعله السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع حسن أن يفصل ذلك بقوله: ﴿رؤف رحيم﴾.

القسم التاسع والعشرون

الاحتراس

وهو أن يذكر لفظاً ظاهره الدعاء بالخير والنفع وذلك بما في ضمنه مما يوهم الشر فيذكر فيه كلمة تزيل ذلك الوهم وتدفع ذلك الوهن مثل قوله تعالى: ﴿يُكلّم الناسَ في المهدِ وكَهلاً﴾. وكان في العادة أن من تكلم في المهد لا يعيش ولا يتمادى به العمر فحصل الاحتراس بقوله تعالى: ﴿وكهلا﴾ يريد أنه ليس يموت عاجلاً كأمثاله ممن تكلم في المهد بل يعيش إلى أن يبلغ الكهولة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وأدخِلْ يدَكَ في جيبك تخرج بيضاءَ من غير سوءٍ﴾ أزال بقوله: ﴿من غير سوء﴾ توهم أن بياض اليد من برص وغيره.

وقد ورد في أشعار العرب من هذا كثير. من ذلك قول بعضهم:

فسقا ديارَكِ غيرَ مُفسدِها صوْبُ الرّبيعِ وديمةٌ تهمِي

فاحترس بقوله: ﴿غير مفسدها﴾ لأن تكرار الماء على الديار مما يوجب الدمار. . وقال آخر:

ألا فاسلمي يا دارَ مَيّ على البِلا ولا زالَ مُنهَلاً بجرعائك القَطْرُ

فاحترس بقوله: ﴿ألا فاسلمي﴾ ومثله في القرآن والشعر كثير.

القسم الموفى ثلاثين

الاختصاص

وهو عند الأصوليين التخصيص واختلفت فيه عبارات أهل العلم. . فقال بعضهم هو إخراج صورة من حكم كان يقتضيها الخطاب به لولا التخصيص وهو شبيه بالنسخ من حيث اشتراكهما في اللبس ومن حيث أن كل واحد منهما يقتضي اختصاص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ إلا أنهما يفترقان من وجوه خمسة. الأول أن الناسخ أبداً لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ كذا وقع في جميع ما نسخ من الكتاب والسنة إلا في آيتين. إحداهما قوله تعالى: ﴿مَتاعاً إلى الحولِ غيرَ إخراجٍ﴾ فإنها منسوخة بما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿والذين يَتوَفون منكم ويذَرُون أزواجاً يَترَبصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ وهذا على خلاف الأصل وقد يعتذر عن هذا بأن آية الحول إنما نسخت بالسنة لكن لا يتأتى هذا إلاّ على قول من يقول إن السنة تنسخ الكتاب. وأما على قول أنها لا تنسخه فلا يتأتى هذا.

وقد يقال إن آية الحول نزلت قبل آية الأشهر ولكن آية الأشهر أثبتت في الصحف قبلها فكان آية الحول متقدمة في النزول متأخرة في التلاوة.

الثاني: أن النسخ لا يكون إلّا بخطاب رفع به حكم الخطاب الأول والتخصيص قد يقع بقول وفعل وقياس وغير ذلك.

الثالث: أن نسخ الشيء لا يكون إلّا بما هو مثله في القوة أو بما هو أقوى منه في الرتبة والتخصيص جائز بما هو دون المخصوص في الرتبة.

الرابع: أن التخصيص لا يقع في حكم واحد والنسخ جائز في مثله لا سيما على أصل من يبني نسخ الشيء قبل وقته.

الخامس: أن التخصيص ما أخرج من الخطاب ما لم يرد به والنسخ رافع ما أريد إثبات حكمه. والذي اعتمد عليه المحققون أن التخصيص إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام أو ما يقوم مقامه بدليل منفصل في الزمان إن كان المخصص لفظياً أو بالحس إن كان عقلياً قبل تقرير حكمه. فقولنا ـ أو ما يقوم مقامه ـ احتراز من المفهوم فإنه يدخله التخصيص. وقولنا ـ بالزمان - احتراز من المستثنى من الاستثناء. وقولنا ـ بالحس لأن العقلي المخصص مقارن. وقولنا ـ قبل تقرير حكمه ـ احتراز من أن يعمل بالعام فإن الإخراج بعد هذا يكون نسخاً. .
والتخصيص يسميه أرباب علم البيان الاختصاص عندهم ولا يحسن إلا أن يكون اختصاص الشيء بمعنًى ظاهر مثل قوله تعالى: **﴿وإنه هو رَبُّ الشّعْرَى﴾** اختصها دون سائر النجوم لأنها عُبدَت. وقيل أن النجوم تقطع السماء طولاً وهي تقطعها عرضاً. وقيل لأن المنجمين بطلوعها يتكلمون على المغيبات وما يحدثه الله في ملكه من الكائنات وينسبون ذلك إلى طلوعها وأن هذه الحادثات في كل عام من تأثيرها فرد الله ذلك عليهم بإعلامنا بأنها مدبرة بتدبيره مقدرة بتقديره متصرفة بمشيئته إذ هو ربها وربّ كل شيء وهو على كل شيء قدير. . ومن هذا النمط قوله تعالى: **﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورُمّانٌ﴾** وهذا لا يتأتى إلا على قول من يقول أن الرمان والرطب فاكهة. وأما على قول من يقول أنهما ليسا من الفاكهة فلا يكون من هذا النوع. . ومن ذلك قوله تعالى: **﴿مَن كان عدُوّاً للهِ وملائكتهِ ورُسلهِ وجبريلَ وميكالَ فإنّ اللهَ عدُوٌّ للكافرين﴾** أعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما إما لأمر اختص بعلمه بهما

اقتضى تخصيصهما أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته. وفي أشعار العرب كثير من ذلك نحو قول الخنساء أخت صخر:

يُذَكِّرُني طلوعَ الشمسِ صخْراً وأنـدُبُـه لكبِّ غـروبِ شمس

وإنما خصت هذين الوقتين لأن طلوع الشمس يذكرها بغارته على أعدائه وغروبها يذكرها باقرائه ضيفانه فاختصت لهذين الـوقتين من بين سائـر الأوقات لهذين المعنيين. وعبارات التخصيص ثلاثة. الأولى إنما جاءني زيـد. الثانيـة جاءني زيد لا عمـرو. والثالثـة ما جـاءني إلاّ زيد. فيفهم من الأولى تخصيص مـطلق المجيء أو تخصيص مجيء معين ظنه المخـاطب مخصوصـاً بغيـره أو مشاركاً غيره فيه فأفاد إثباته لزيد ونفيه عن غيره دفعة واحدة ومن الثانية في دفعتين والثالثة بأصل الوضع تفيد نفي التشريك ولهذا لا يصح ما زيد إلاّ قائم لا قاعد لأنك بقولك ـ إلا قائم ـ نفيت عنه كل صفة تنافي القيام فيندرج فيه نفي القعود فيقع ـ لا قاعد ـ تكراراً ويصح إنما زيد قائم لا قاعد فإن صيغة ـ إنما ـ موضوعة للتخصيص ويلزمه نفي الشركة فليس له من القوة ما يـدل عليه بـالوضـع ولهذا يصح زيد هـو الجائي لا عمـرو فدلالـة الأولبين على التخصيص أقوى ودلالـة الثالثة على نفي التشريك وقد تذكر الثالثة في مثل ما إذا ادعى واحد أنكَ قلت قولاً ثم قلت بخلافه فتقول ما قلت إلاّ ما قلته قبل. وعليه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام: **﴿ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتني به﴾** ليس المعنى أني لم أزد على ما أمرتني به أن أقوله شيئاً ولكن المعنى أني لم أدع مما أمرتني به أن أقوله شيئاً ولم يذكر ما يخالفه. . وحكم ـ غير ـ إذا وقع موقع ـ إلاّ ـ حكمُ إلاّ . . وأما ـ إنما ـ فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر فإذا قلت إنما ضرب عمراً زيـد فالاختصاص في الضارب كما قال سبحانه وتعالى: **﴿إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾** وإذا قلتَ إنما ضرب زيد عمراً فالاختصاص في المضروب وإذا قلت إنما هذا لك فالاختصاص في ـ لك ـ بدليل أنك تقول بعده لا لغيرك وإذا قلت

إنما لك هذا فالاختصاص في ـ هذا ـ بدليل أنك تقول بعـده لا ذاك. قال الله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحسابُ﴾ فإذا وقع بعدَها الفعل فالمعنى أن ذلـك الفعل لا يصـح إلا من المـذكـور كقـولـه تعـالى: ﴿إنمـا يتـذكـرُ أولـو الألباب﴾. وقد يجمع معها حرف النفي إما متأخراً كقولك إنما جاءني زيد لا عمرو وإما متقدماً كقولك ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو، فهناك لو لم تدخل ـ إنما ـ كان الكلام مع من ظن أيهما جاءك وإن أدخلها كان الكلام مع من غلط في الجائي ولو قلت أن عمراً جاءني فإن كانت المستغني عنهـا فظهـرت فائـدة دخول ـ ما ـ على ـ إنّ ـ في ـ إنما ـ. واعلم أن موضوع ـ إنما ـ أن يجيء في أمر لا يدفع المخاطب صحته كقوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أو ينزّل بعده منزلته كقول الشاعر:

إنمـا مصعبٌ شِهـابٌ من الله تجلّتْ عن وجهـهِ الـظُّلْمـاءُ

فادعى كونه بهذه الصفة مما لا ينكره أحد. ومثله قوله تعالى حكايـة عن اليهود: ﴿وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحنُ مُصلِحون﴾ الذي يدعون أنهم مصلحون أمر ظاهر معلوم فلذلك أكد الأمر في الرد عليهم فجمـع فيه بين ـ ألا ـ التي هي للتنبيه و ـ إن ـ التي هي للتحقيق ـ وهم ـ التي هي للتأكيد فقال: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾. وقال ابن الأثير وهم يرون بالتخصيص في أعمال العام في النفي والخاص في الاثبات مثال ذلك الحيوانية والانسانية فـإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانيـة وكذلـك نفي الحيوانية يوجب نفي الإنسانية ولا يجب من إثباتها إثبات الإنسانية. ومما يدخل في هذا الباب الأسماء المفردة الواقعة على الجنس الـذي يكون الفـرق بينها وبين واحدها تاء التأنيث فإنه متى أريد النفي كـان استعمال واحـدها أبلغ ومتى أريد الاثبات كان استعمالها في الجنس أبلغ. فالأول هو الخاص والعـام نحو قوله تعالى: ﴿مثَلهم كمثَلِ الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حولَه ذَهبَ الله بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم لأن ذكر النور في حالـة النفي أبلغ من حيث أن

الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب الله بضوئهم كان المعنى يعطي نفي تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً لأن الإضاءة هي فرط الإنارة دليله قوله تعالى: ﴿**هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً**﴾ فكل ضوء نور وليس كل نور ضوأ. والغرض من قوله: ﴿**ذهب الله بنورِهم**﴾ إنما هو إزالة النور عنهم رأساً فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء. وكذلك قوله تعالى: ﴿**ذهبَ اللهُ بنورهم**﴾ ولم يقل أذهب الله نورهم لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به لأن الذهاب بالشيء سو استصحابٌ له ومضي به وفي ذلك نوع احتياز للمذهوب به وإمساك له عن الرجوع إلى حالته والعود إلى مكانه وليس كذلك الاذهاب للشيء لزوال معنى الاحتياز وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل وإنعام نظر فافهمه وقس عليه ما أشبهه وبالله التوفيق.

القسم الحادي والثلاثون

الاختراع

قال علماء علم البيان.. الاختلاع هو أن يذكر المؤلف معنًى لم يسبق اليه واشتقاقه من التليين والتسهيل يقال نبت خَرِعٌ إذا كان ليناً فكأن المتكلم سهل طريقه حتى أخرجه من العدم إلى الوجود. ومنه في القرآن كثير.. من ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذين تدْعونَ من دُونِ اللهِ لنْ يَخلُقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يَسلبُهُمُ الذّبابُ شيئاً لا يَستنقذوهُ منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب**﴾ ولم يُسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن ولو سُمع لكان القرآن سابقاً ولا يكون مثله ولا قريباً منه وكذلك جميع أمثال القرآن ليس لها أمثال.. ومثال ذلك من السنة النبوية قوله ﷺ: «حَمِيَ الوطيس» فإن رسول الله ﷺ أول من تكلم بهذا حين قدَّم المسلمون خالد بن الوليد في غزوة مؤتة حين حمل خالد في العدوّ - والوطيس - هو التنور فعبز بشدة حميه ووقوده عن شدة الحرب واتقادها واتقاد نارها حين حمل خالد بن الوليد رضي الله عنه. ومن ذلك قوله ﷺ:

«السعيد من وُعظ بغيره». ومن ذلك قوله ﷺ: «أما بعد» ومثل هذه الكلمات في السنة كثير وليس هذا موضع إحصائها ولا محل استقصائها.

القسم الثاني والثلاثون

الهــدم

وهو أن يأتي غيرك بكلام تضمن معنًى فتأتي أنت بضده فكأنه قد هدم ما بناه المتكلم الأول كقول أبي تمام:

وبروحيَ القمر الـذي بمحَجَّرٍ ... أضحى مَصـوناً للنـوَى مَبذولاً

هدمه بعض الشعراء فقال:

وبـرُوحي القمـرَ الـذي لم يُبتـذَلْ ... بـلْ حَـلّ وَسطَ القلبِ لا بمحِجَّـرِ

. . وقال البلاذِريُّ:

وقـد يَـرفــعُ المرءُ اللئيمُ حِجـابَـهُ ... ضَعِـةً ودُونَ العُـرْفِ منــه حِجــابُ

هدمه الآخر فقال:

مَــلكٌ أغــرُّ مــحــجَّــبُ ... مَـعــرُوفُــهُ لا يـحــجَــبُ

ومنه في كتاب الله العزيز كثير. . من ذلك قوله تعالى: ﴿وقالتِ اليهـودُ والنصـارىَ نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبّـاؤهُ﴾ هدمـه الله تعالى بقـولـه: ﴿واللهُ لا يحبُّ الظالمين﴾. وقوله: ﴿ما اتّخذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فلِمَ يُعـذِّبُكم بذُنـوبكم﴾ تقديـره إن كنتم فيما ادعيتم صـادقين فلم يعـذبكم بذنوبكم. ومنـه قولـه تعالى: ﴿وقـالتِ اليهود عـزيزٌ ابنُ الله وقالتِ النصـارَى المسيحُ ابنُ الله﴾ هدمه الله عليهم بقوله: ﴿ذلك قولُهم بأفواهِهم﴾. وقوله: ﴿ما اتخذ اللهُ من وَلدٍ﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿إذا جاءكَ المنافقون قالـوا نشهَدُ إنـكَ لَرَسولُ الله﴾ هدمه الله بقوله: ﴿واللهُ يشهَدُ إنّ المنافقين لكاذبون﴾. . ومثله في القرآن الكريم كثير وفي الشعر هو كثير أيضاً.

القسم الثالث والثلاثون

الاستفهــام

وهو على قسمين استفهام العالم بالشيء مع علمه به. ومراده بذلك معان ستة.

الأول: التقرير ومرادك باستفهامك عن ذلك الشيء أن يقربه الفاعل كقوله تعالى حكاية عن قوم نمروذ: ﴿**أأنتَ فعلتَ هذا بآلِهتنا يا ابراهيم**﴾ ولا شبهة أنه ليس غرضهم أن يقر لهم بوجود كسر الأصنام ولكن غرضهم أن يقرّ بأن ذلك منه لا من غيره.

الثاني: يراد به الانكار وهو كقوله تعالى: ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أصطفي البناتِ على البنين**﴾ والانكار ها هنا في نفس الفعل أنكر الله عليهم كونهم جعلوا الملائكة إناثاً وقالوا هم بنات الله تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً. وكذلك قوله تعالى: ﴿**آللهُ أذِنَ لكم أم على الله تَفترُون**﴾ المقصود إنكار أصل الاذن لا إنكار أنه كان من غير الله وأضافوه إلى الله. وكذلك قوله تعالى: ﴿**آلذكرَينِ حرَّمَ أم الأنثيين**﴾ تقديره لو وجدتم التحريم لكان محرماً إما ذا أو ذاك ثم يستدل ببطلان الأصلين على بطلان القسمين على بطلان أصل التحريم. ومثله قولك للرجل الذي يدعي أمراً وأنت تنكره ـ متى كان هذا أفي ليل أم نهار ـ وتقديره لو كان لكان إما في ليل وإما في نهار ولما لم يوجد فيهما ثبت أنه ليس بموجود أصلاً. فكذلك تقول في الآية فإنها نفي لأصل الاذن لنفي أقسامه وذلك أبلغ في النفي. وكذلك قوله تعالى: ﴿**أنُلزِمكموها وأنتم لها كارِهون**﴾ حصل الانكار ها هنا بنفس الالزام.. وكذلك قول الشاعر:

أتقتُلني والمَشْرَفيّ مُضاجِعي

.. واعلم أن الاستفهام بمعنى الانكار حاصله راجع إلى تثبيت السامع على فساد ذلك الشيء حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتد عنه فعلى هذا لا يتصور إلاّ بالمحال على سبيل أن يقال له ـ أنت في دعواك كمن يدعي المحال ـ

وعلى هذا جعل قوله تعالى: ﴿أفأنت تسمِعُ الصمّ أو تهدي العُمْي﴾ وليس إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون لذلك الانكار وإنما المعنى فيه تنزيل من يحاول إسماعهم منزلة من يحاول إسماع الصم وإنما قدم الاسم في هذه الآية ولم يقل ـ أفتُسمع الصم . لمعنًى وهو اختصاصه ﷺ كأنه تعالى قال له ﷺ أنت خصوصاً تظن أنك تقدر على إسماعهم فتكون بمنزلة من ظن أن لنفسه قدرة على إسماع الصم. . واعلم أن حال المفعول في ذلك كحال الفاعل فإذا قدَّمتَ المفعول توجه الانكار إلى كونه بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل. فإذا قلتَ ـ أزيداً تضرب كان على هذا الحكم ولهذا قدّم ـ غير ـ في قوله تعالى: ﴿قلْ أغير اللهِ أتخذُ وليًّا﴾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أبَشراً منّا واحداً نتّبعُهُ﴾ وقد تقدم بيانه فإنهم بنوا كفرهم على أن البشر ليس بمثابة أن يتبع ويطاع. . واعلم أن صيغة المستقبل إما أن يكون الاسم مقدماً أو الفعل فإن كان الاسم مقدماً اقتضى شبيهاً بما اقتضاه في الماضي بمطالبته من الاقرار بكونه فاعلاً فالانكار لذلك. فمثال ذلك قوله تعالى: ﴿أهم يقسِمون رحمةَ ربك﴾ .

الثالث: الاستفهام للمبالغة في الاستحقار مثل قولك للرجل تستحقره ـ أنت تمنعني أنت تضربني ـ ومنه قوله تعالى: ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ . وقوله تعالى: ﴿قلْ أغيرِ اللهِ أتخذ ولياً﴾.

الرابع: يأتي للمبالغة في التعظيم كقولك ـ أهو يسأل الله أهو يمنعهم حقوقهم ـ ومنه قوله تعالى: ﴿أمّن جعل الأرضَ قراراً﴾ إلى قوله: ﴿أإلهٌ مع الله﴾.

الخامس: يأتي للمبالغة في بيان الحساسة كقولك ـ أهو يسمع لهذا أو يرتاح إلى الجميل ـ ومنه.قوله تعالى: ﴿أفتعبُدُون من دونِ الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم أفّ لكم ولما تعبُدُون من دونِ اللهِ أفلا تعقِلون﴾.

السادس: يؤتى بالاستفهام ليقع في النفس عذوبة المستفهم عنه واستحلاؤه كقول الشاعر: .

أيا ظبيةَ الوعثاءِ بين جُلاجل وبين النقا أأنتِ أم أمُّ سالمِ

تقديره أأنت الظبية أم أمّ سالم، أتى بالاستفهام ها هنا ليوقع في النفس موقعاً عظيماً من الحسن وبديع المحاسن حتى يشكل حالها كمثل محاسنها فيبقى عند ناظرها من ذلك تخييل لا يفرق بسببه بينها وبين الظبية. وهذا النوع يسمى عند أرباب الصناعة التجاهل. . ومن بديع التجاهل قول مهيار الديلمي:

أأنتِ أمرْتِ البدْرَ أنْ يَصدَعَ الدُّجى وعلّمتِ غصنَ البانِ أنْ يتميّلا

. . ومن بديعه أيضاً قول الآخر:

وعُقارٍ عيشُ مَن عاقرَها عيشٌ أنِيقُ
هِيَ للزَّهوِ نِظامٌ وإلى اللهوِ طَرِيقُ
قلتُ لمّا لاحَ لي منها شُعاعٌ وبَريقُ
أشقيقٌ أمْ عقيقٌ أمْ رَحيقٌ أمْ حَريقُ

. . وأما القسم الثاني من الاستفهام فهو أن يستفهم عن شيء لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم. ومنه في القرآن العظيم وفي الشعر كثير وهذا هو أصل الباب.

* * *

القسم الرابع والثلاثون

المزلزل

وهو أن يكون في الكلام لفظة لو غيّر وضعها أو إعرابها تغيرَ المعنى. ومنه في القرآن العظيم كثير. . من ذلك قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ﴾ لو كسرت الكاف لتغير المعنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أنعمتَ عليهم﴾ لو ضُمّت لاختل المعنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذِ ابتَلى إبراهيمَ ربّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿إنما يَخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾ لو غير إعراب ابراهيم وإعراب العلماء لاختل المعنى. . ومنه في الشعر قول الوطواط:

رسـولُ اللهِ كـذّبـهُ الأعـادي فـوَيـلٌ ثم ويـلٌ للمكـذّب

ان كسرت ذال المكذب كان حسناً وإن فتحت كـان قبيحاً وكفـراً. . ومن هذا المعنى قولـه تعالى: ﴿فَسـاءَ صباحُ المنْـذَرِين﴾ بفتح الـذال ولو كسـرت الذال كان قبيحاً وكفراً.

القسم الخامس والثلاثون

التعجب

ومنه في القرآن العظيم كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿فما أصبرَهُمْ على النارِ﴾ ـ ما ـ هـاهنا تعجبٌ والتقدير تعجبوا من صبرهم على النار وقيل هي الاستفهامية والتقدير فأيّ شيء صبَّرهم على النار. . ومن التعجب قوله تعالى: يا أيها الإنسان ما غَرَّك بربكَ الكريم﴾ والخلاف فيها كالخلاف في الأولى. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُتلَ الإنسانُ ما أكفرَهُ﴾ أي ما أشد كفره. ومثله في القرآن كثير. . ومنه في الشعر قول بعضهم:

أيـا شمْعـاً يُضيءُ بِـلا انطِفـاءٍ ويـا بَـدْراً يَلوحُ بِـلا مَحـاقِ
فـأنتَ البـدْرُ مـا سببُ انتقـاصي وأنتَ الشمْعُ ما سببُ احتراقي

* * *

القسم السادس والثلاثون

السلب والايجاب

قال علماء علم البيان هو أن يوقِعَ الكلام على إثبات شيء وينفيه في كلام واحد وخطبة واحدة أو بيْت واحد. وهو في القرآن العظيم كثير. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هو يُجيرُ ولا يجارُ عليه﴾. وقوله تعالى: ﴿هو يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾. . ومنه في الشعر قول السموءَل بن عادياء اليهودي:

ونُنكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قولَهمْ ولا يُنكِرونَ القولَ حين نقولُ

القسم السابع والثلاثون

الهزل الذي يراد به الجِد

وهو في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿فاليوْمَ الـذين آمنوا من الكفّـارِ يَضحكـون﴾ روي أن أهل الجنـة يُفتَح لهم بـاب من النار فيقـولون لمن كـان يضحك منهم في الدنيا من الكفار أتـدخلون الجنة فيقـولون نعم فيقـولون لهم هلموا فيتبادرون إلى الجنة فيغلق الباب دونهم ويضحك منهم المؤمنون ويردون خائبين وليس مراد المؤمنين بـذلك القـول الضحك منهم وإنمـا مرادهم بـذلك تبكيتهم وتشديد الحزن عليهم.. ومنه قوله تعالى: ﴿إنْ تَسخَرُوا منّا فإنّا نَسخَرُ منكم﴾ يعني يوم القيامـة.. ومنه في السنـة قولـه ﷺ للعجوز التي سـألته عن دخولها الجنة فقال: لا يدخل الجنة عجوز هزل بها وصـدق وقال حقـاً فإن الله تعالى أخبر عن أهل الجنة فقال: ﴿عُرُباً أتراباً لأصحابِ اليمين﴾ وترْب الانسان مساويه في العمر أو مقاربه.. ومنه في الشعر قوله:

إذا مـا تـميـميٌّ أتـاكَ مُـفـاخـراً فقـلْ عـدِّ عن ذا كيف أكلُك للضبِّ

.. وأما قوله ﷺ في وصف القرآن وهو الجد ليس بالهزل المراد به الهزل الذي لا يراد به الجد.

القسم الثامن والثلاثون

التلميـح

وهو أن يشير في فحـوى الخطاب إلى مثَـلٍ سائـر أو شعر نـادر أو قصة مشهورة من غير أن يذكره كقول بشار بن عدي:

اليـومَ خمـرٌ ويبـدو في غـدٍ خَبـرٌ والـدَّهـرُ مـا بين إنعـام وإبـآس

أشار به إلى قول امرىء القيس ـ اليوم خمرٌ وغدا أمرٌ ـ حين بلغه قتل أخيه[1] وهو يشرب فصار مثلاً . . وكقول أبي بكر الخوارزمي :

كأنكِ لا تروين بيتاً لشاعرٍ سِوَى بيتِ مَن لا يظلمِ الناسَ يُظلَم

. . وكقول أبي فراس :

ولا خيرَ في دَفعِ الأذَى بمذلَّةٍ كما رَدَّها يوماً بسوْءتِهِ عمرو

أشار بذلك إلى قصة عمرو بن العاص مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . . وقد يسمى أخذ بعض ألفاظ المثل اقتباساً وإيراد المثل كما هو تضميناً . . ومما جاء من التلميح في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿واذكر أخا عادٍ إذْ أنذَرَ قومهُ بالأحقاف﴾ . وقوله تعالى : ﴿ألا بُعداً لمديَنَ كما بَعِدَتْ ثمود﴾ . وقوله تعالى : ﴿صاعقةً مثلَ صاعقة عادٍ وثمود﴾ الآية . . من ذلك قوله تعالى : ﴿أم كنتمْ شهَداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموتُ إذْ قال لبنيهِ ما تعبُدُون من بَعدي﴾ إلى قوله : ﴿فإنما هم في شقاقٍ﴾ . ثم قال : ﴿صِبغةَ الله ومَنْ أحسنُ من اللهِ صِبغةً﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هذا نذيرٌ من النذُرِ من النذُرِ الأولى أزِفتِ الآزِفة﴾ ثم قال : ﴿ليس لها من دُونِ اللهِ كاشفةٌ﴾ . . ومثله في القرآن كثير .

القسم التاسع والثلاثون

النسخ والسلخ والمسخ

فأما النسخ ففي القرآن العظيم كثير . وهو على ثلاثة أقسام . منه ما نسخ لفظه وحكمه . ومنه ما نسخ لفظه وبقي حكمه . ومنه ما نسخ حكمه وبقي لفظه . .

---

(١) ليس هو من قول امرىء القيس وإنما هو من قول مهلهل حين بلغه قتل جساس أخاه كليباً . وامرؤ القيس لم يقتل له أخ فإن كان قاله حين بلغه قتل بني أسد أباه حجراً فربما اهـ . كتبه محمد بدر الدين .

أما ما نسخ لفظه وحكمه فقد روي عن قتادة وغيره قالوا كنّا نقرأ سورة على عهد رسول الله ﷺ: **﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾** وقالوا كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: **﴿لو أعطى ابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب﴾**.

وأما ما نسخ حكمه وبقي لفظه ففي القرآن العظيم منه كثير.

وأما السلخ والمسخ فليس في القرآن العظيم منهما شيء لأنه لم يسبق قبله كلام فيسلخ منه ولم يتقدم معانيه فيقصر عنها فيمسخ لأنه الكلام القديم الذي لم يشبهه كلام ولم يتقدم عليه نثر ولا نظام وسنذكر في القسم الذي ليس القرآن منه شيء ما قاله أهل هذه الصناعة في السلخ والمسخ إن شاء الله تعالى.

القسم الأربعون

التعديد. ويسمى أيضاً سياق الاعداد

وهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد فإن روعي في ذلك ازدواج أو لزوم تجنيس أو مطابقة أو نحوها فذلك الغاية في الحسن كقولهم وضعنا في يده زمام الحل والعقد. القبول والرد. والأمر والنهي. والاثبات والنفي. والبسط والقبض. والابرام والنقض، والهدم والبناء. والمنع والعطاء.. ومنه قول المتنبي:

الخيلُ والليلُ وَالبيْداءُ تعرفني والحربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلم

ومنه في القرآن كثير.. من ذلك قوله تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المُهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ﴾**. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وأنّ إلى ربّكَ المنتهى وأنهُ هو أضحكَ وأبكى وأنه هو أماتَ وأحيا وأنه خَلقَ الزوجينِ الذَّكرَ والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأةَ**

الأخرى وأنه هو أغنى وأقْنى وأنه هو رب الشّعرى وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ مماأبقى وقوم نوحٍ من قبلُ أنهم كانوا هم أظلَم وأطغى﴾. . ومنه قوله: ﴿والله يقبضُ ويَبسط﴾.

القسم الحادي والأربعون

المُوَجَّــهُ

وهو أن يمدح بشيء يقتضي المدح لشيءٍ آخر كقول المتنبي:

نهبتَ من الأعمار ما لو حويتَهُ   لهنئتِ الدّنيا بأنّك خالِدُ

أول البيت مدح بفرط الشجاعة وآخره بعلوّ الدرجة. وفي القرآن العظيم منه كثير. . ومنه قوله تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معه أشداءُ على الكفار رُحماءُ بينهم تراهمْ رُكعاً سُجداً يبتغونَ فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وُجوهِهمْ من أثر السجودِ﴾ مدحهم في أول الآية بالشدة على الكفار ثم بالرحمةِ بينهم ثم بالخشوع والخضوع ثم بالتذلل وحسن المسألة ثم حسن السيماء وصباحة الوجوه. ومثله قوله تعالى: ﴿التائبونَ العابدونَ الحامدونَ السائحون الرّاكعون الساجدونَ الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾. . ومن هذا النوع قوله تبارك وتعالى: ﴿ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا من عندكَ بيّتَ طائفةٌ منهم غير الذي تقول﴾ يجوز أن تكون ـ تقول ـ راجعة إلى ـ الطائفة ـ ويجوز أن تكون عائدة على النبي ﷺ.

القسم الثاني والأربعون

المحتمل الضدين

وهو أن يكون الكلام محتملاً للشيءِ وضده. ومنه في القرآن العظيم كثير. . من ذلك قوله تعالى: ﴿وكان وراءهمْ ملك يأخذ كلّ سَفينةٍ غصباً﴾ يحتملُ أن يكونَ أراد بورائهم ـ أمامهم ويحتمل أن يكون ـ وراءَهم ـ وهو

يطلبهم. ومنه قوله تعالى: ﴿والمطلقاتُ يترَبَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قروءٍ﴾ - والقرءُ - يطلق على الحيض والطهر. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قال أنه يقولُ إنها بقرةٌ صفراء﴾ قال المفسرون أراد سوداءَ. ومثله في الشعر قول الشاعر:

يغادِرُ الجونة أن تغيبا

- والجون - الأسود - والجون الأبيض وهو من الأضداد. ومنه قول بشار في رجل خاط له قِباءٍ وكان الخياط أعور:

خَاطَ لي زيدٌ قباءً ليتَ عينيه سواء
فأحاجي الناسَ طُرًّا أمديحاً أم هجاء

وكان سبب ذلك أن بشاراً خاط له زيد قباءً فقال هذا إن شئت لبسته على وجهه وإن شئتَ لبسته على بطانته فقال له بشار وأنا أقول فيك شعراً إن شئت جعلته مدحاً وإن شئت جعلته ذمّاً وأنشده البيتين. . قد أخذ المتنبي هذا المعنى فقال:

أيا ابنَ كرَوَّسٍ يا نصفَ أعمى وإن تفخُرْ فيا نصفَ البصيرِ

وكان ابن كروَّسٍ أعور. . وينخرط في هذا السلك قوله تعالى: ﴿إنكَ لأنتَ الحليم الرّشيدُ﴾ إذا جعل هذا من باب التهكم به والإزراء عليه كان ذماً. ولهذا قال بعض المفسرين أرادوا - أنك لأنت الأحمق السفيه - وإن أريد به المدح فالتقدير - أنك أنت الكامل الحليم الرشيد فكيف يبدو منك مثل هذا لأنه ذكر الحليم والرشيد بالألف واللام التي هي لاستغراق الجنس أو للعهد.

ومثله في السنة قول النبي ﷺ: «من جُعل قاضياً ذُبح بغير سكين» فإن أريد له الذم يكون التقدير من جُعل قاضياً فقد قتِلَ بغير سكين لأنه ليس في قدرته إقامة الحق على وجهه وإجراء الأحكام على القانون المستقيم فيكون قد كلف ما لا طاقة له به ومن كلف ما لا طاقة له به فهو في ألم شديد يشبه ألم من ذبح بغير سكين ومن أراد المدح قال أنه لشدة تحرزه في أحكامه واجتهاده في

نقضه وإبرامه إنعامه النظر فيما يحدث من الوقائع ويتجدد من خفايا الأحكام والنظر في أمر الوصايا ومال الأيتام إلى غير ذلك من الأمور المشقة يحصل له من الألم مقدار ألم من ذبح بغير سكين بل أشد لأن من ذبح بغير سكين يقاسي الألم في حال ذبحه ثم يستريح والحاكم بهذه الأمور مستمرّ التعب دائم النكد مشتغل القلب منقسم الفكر دائم النظر. فنسأل الله اللطف بنا وبه إنه على ما يشاء قدير.

القسم الثالث والأربعون

التجريد

وهو على قسمين.. الأول خطاب الغير والمراد به المتكلم وهو أولى باسم التجريد وفائدته مع التوسع في الكلام أن يثبت الإنسان لنفسه ما لا يليق التصريح بثبوته له وذلك قد يكون فضيلة كقول الحيص بيص:

إلامَ يراكَ المجدُ في زيّ شاعرٍ ... وقد نحِلتْ شوقاً فرُوعُ المنابرِ
وأنتَ نصبتَ الشعْرَ علماً وحكمةً ... ببعضهما يَنقادُ صَعبُ المفاخرِ
أما وأبيك الخيرُ إنك فارسُ الـ ... ـمقالِ ومحي الدَّارِساتِ الغوائرِ
وإنكَ أتعبتَ المسامعَ والنُّهي ... بقولكَ عما في بُطونِ الدَّفاترِ

.. وقد تكون لنقيصة ولكن يؤثر إبداؤه إما لتشكّ كقول النابغة:

حننتَ إلى رَيَّا ونفسُكَ باعدَتْ ... مَن اَرَكِ من ريَّا وشِعْباً كما معا
فما حسنٌ أن تأتيَ الأمر طائعاً ... وتجزَعَ إن دَاعي الصبابةِ أسمعا
وأذكرُ أيامَ الحمى ثم أنثني ... على كبدِي من خَشيةٍ أن تَقطّعا
بنفسيَ تلك الأرض ما أطيبَ الرُّبا ... وما أحسنَ المصطافَ والمتربعا

.. أو لا يكون لغير التشكي وذلك كالاعتذار كما قال المتنبي:

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ ... فليُسْعِدِ النطقُ إنْ لم تسعد الحالُ

واجـز الأميـر الـذي نعْمَـاه بـاديـة بغيـر قـول ٍ ونعمى القـوم ٍ أقـوالُ

. . القسم الثاني خطاب المتكلم لنفسه مخيلاً لها أنّ معه غيره كما قيل.

أقـولُ لـلنفس تـأسـاءً وتـعـزيـةً إحـدَى يَـدَيَّ أصـابتني ولم تـرِدِ

وهذا النوع في القرآن العظيم منه كثيرٌ وسنذكرُه في فصل تلوين الخطاب إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا منه طرفاً في أنواع الالتفات فانظره هناك فهو كثير.

* * *

القسم الرابع والأربعون

الرجوع والاستدراك

وهو من أنواع الاعتراض ولكن علماء هذا الشأن أفردوا له باباً. وهو على قسمين. . الأول أن تذكر شيئاً وترجع عنه كقولهم والله ما معه من العقل شيءٌ إلّا مقدار ما يوجب الحجة عليه كقول زهير:

قفْ بـالـديـارِ التي لم يعفهـا القِـدمُ بـلى وغيـرهـا الأرواحُ وِالـدسِيمُ

. . القسم الثاني من الاستدراك وهو أن يبتدىء كلامه بما يوهم السامع أنه هجو ثم يستدرك ويأخذ في المدح كقول أبي مقاتل الضرير:

لا تقـلْ بشـرى ولكن بشـريـانْ غرّة الدّاعي ويومُ المهرَجان

وهذا النوع غير مستحسن عند الحذاق فإنّ السـامع ربمـا يتطيـر من أول الكلام فيتأذى ولا يلتذ بما بعده والاستدراك في الكتاب العزيز كثير كقوله تعالى: **﴿بَلى مَن كسبَ سيئـة وأحاطت بـه خطيئتـه﴾**. وقولـه تعالى: **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾**. وقوله تعالى: **﴿ليسَ البرّ أن توَلوا وُجوهكم قِبلَ المشرقِ والمغربِ ولكنِ البرُّ﴾** على قراءة من خففَ فرفَع ـ البرُّ ـ وقوله تعالى: **﴿وإنْ من شيءٍ إلا يسبح بحمدِهِ ولكن لا تَفقهـونَ تسبيحهم﴾** وقولـه تعـالى: **﴿قـال أو لمْ تؤمن قالَ بلى ولكنْ ليطمئن قلبي﴾**. . وفي القرآن كثير.

القسم الخامس والأربعون

السؤال والجواب

وهو أن يحكي كلاماً بقال ثم يجيبه بقال أيضاً. وهو في القرآن العظيم كثير. . من ذلك قوله تعالى: **﴿وإذْ قال مُوسى لقومِهِ إنّ الله يأمُرُكم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخِذُنا هزواً قالَ أعوذُ باللهُ أن أكونَ من الجاهلين﴾** إلى قوله: **﴿فذَبحوها وما كادوا يفعلون﴾**. ومنه قوله تعالى: **﴿قالَ فرعون وما ربُّ العالمين قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حَولَه ألا تستمعونَ قالَ ربُّكم ورَبُّ آبَاءِكم الأولين قال إنّ رسولَكم الذي أرسِلَ إليكم لمجنونٌ قال رَبُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إنْ كنتم تعقلون قالَ لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنكَ من المسجونينَ قال أوَ لو جئتك بشيءٍ مبينٍ قالَ فأتِ به إن كنتَ من الصادقين﴾**. وفي الشعر منه كثير من ذلك قولُ امرىء القيس:

ويومَ دخلتُ الخِدرَ خِدْرَ عنيزةٍ ... فقالت لكَ الويلاتُ إنكَ مُرْجِلي

فقلتُ لها سِيري وارْخي زِمامَها ... ولا تمنعينا من جَناكِ المعللِ

ومن بديعه قول بعض المتأخرين:

وكامِلة الأوصافِ وَافِرَةِ الحيا ... إذَا افتخرَتْ بالحسن اعجزَها المثلُ

شكوتُ إليها ما أجِنُّ من الجوى ... فقالت إذا اشتدّ الجفا عَذُبَ الوصل

فقلْتُ أصمَّ العاذلون مسامعي ... فقالت إذا صحَّ الهوى بَطلَ العذْلُ

فقلتُ فماذا عندَكم لمُدَلَّةٍ ... فقالت له إما الحياة أو القتلُ

إذا شئتَ أنْ تحظى لدينا فكن لنا ... فريداً لا مالُ لديكَ ولا أهلُ

فكم هَلكتْ في حُبّنا من معاشر ... وما نهِلوا صفوا الحياةِ ولا عَلُّوْا

ولا ظفروا مِنا بأيسرِ طائل ... اتطمعُ بالتفريط في وَصلِنا جَهلُ

. . ومن ذلك قول الباخِرزي:

قد قلتُ لها هجرتِني ما العِلّهْ ... صدَّتْ وتمايلتْ وقالتْ قلْ لَهْ

قال علماءُ البيان أحسن هذا النوع ما كثرتْ فيه القلقلة.

القسم السادس والأربعون

التوهم. ويسمى الإيهام أيضاً

وهو أن يجاءَ بكلمة توهم أخرى. ومنه قوله تعالى: ﴿**يومئذٍ يُوفيهم الله دِينَهم الحقَّ**﴾ يوهم من لا يفهم أو يعلم العربية أن دينهم حق لأن دينهم إذا قرأها بالرفع من لا يفهم ولا يعلم العربية اقتضى ذلك أن دينهم حق وليس كذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿**قل ما عندَ الله خيرٌ من اللّهوِ ومِنَ التجارةِ**﴾ من لا يفهم العربية ولا يفهم المعنى يعتقد أن ما نافية وأنه ليس عند الله خير من اللهو ومن التجارة. ومنه قوله تعالى: ﴿**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**﴾ من لا يعرف العربية إذا سمع هذه الآية اعتقد أن الله تعالى يخشى العلماء والعارف بالعربية والقراءة ينصب الجلالة ويرفع العلماء فيظهر له أن العلماء همُ الذين يخشون الله. ومنه قوله تعالى: ﴿**فويلٌ للمصلينَ**﴾ من لا يعلم المعنى اعتقد أن الويل لاحقٌ بالمصلين ولهذا قال بعض الجهال:

ما قالَ ربُكَ ويلٌ للذين سهوا ... بل قال رَبك وَيلٌ للمصلينا

.. وقد يقع من ذلك في الشعر كثير. ومنه قول سُحَيْم:

فجالَ على وحشيّةٍ وتخالُهُ ... على ظهره سَبًّا جَديداً يمانيا

فقوله ـ يمانياً ـ يوهم أنه شبًّا بالشين. وكذلك قول المتنبي:

فإنّ الفِئامَ الذي حولَهُ ... لتحسد أرجلها الأرؤسا

فقوله ـ أرجلها ـ يوهمُ أنه القيام بالقاف وإنما هو بالفاء والفئام الجماعات.

القسم السابع والأربعون

التشعيب

وهو أن يكون في صدر الكلام كلمة من عجزه مثل قوله تعالى: ﴿قدْ نرَى تقلب وجهكَ في السماءِ فلنولينكَ قِبلةً ترضاها فولّ وجهكَ شطرَ المسجد الحرام﴾. وقوله تعالى: ﴿ولئن أتيتَ الذينَ أوتوا الكتابَ بكلّ آية ما تبعوا قِبلتَكَ وما أنت بتابعٍ قِبلتهمْ وما بعضهم بتابع قِبلَةَ بعض﴾. ومثل قول الشيخ أبي العلاء:

قد أورَقتْ عُمْدُ الخيامِ وأعشبتْ ... شُعَب الرحالِ ولَوْنُ رأسيَ أغبرُ
ولقدْ سَلوْتُ عن الشباب كما سلا ... غيري ولكن للحزينِ تذكّرُ

..وقال آخر:

وما هجرْتكِ النفسُ يا عَزُّ أنها ... قَلَتْكِ ولكنْ قلَّ مِنك نصيبُها
ولكنهم يا أحسنَ الناس أولعوا ... بقولٍ إذا ما جئتُ هذا حبيبها
أهابُكِ إجْلالاً وما بك قدْرةٌ ... عَليَّ ولكن مِلءُ عينٍ حبيبها

* * *

القسم الثامن والأربعون

الاستثناء

وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه أو يدخل شيئاً ثم يخرج منه بعضه. أما الاستثناء ففي القرآن منه كثير. فمنه قوله تعالى: ﴿حرّمتْ عليكم الميتة والدَّمُ ولحم الخِنزيرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إلاّ ما اضطررتم إليه﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿قلْ لا أجدُ في ما أوحي إليّ محرّماً على طاعِم يطعَمُهُ إلاّ أن يكونَ ميتةً أو

دماً مَسفوحاً أو لحمَ خِنزير﴾. ومثله في القرآن كثير. وأما الرجوع فلا ينبغي أن يكون في القرآن منه شيءٌ لأن المتكلم به لا يليق بجلاله أن يوصف بالرجوع عن شيء. وأما ما سوى القرآن ففيه منه كثير من ذلك في الاستعمال قولهم ـ ليس له عقل إلا ما تقوم عليه به الحجة ـ. وأما في الشعر فقد ورد في أشعار كثيرة.. منها:

أليسَ قليلاً نظرَةٌ إن نظرتها إليكِ ولكن ليسَ منكِ قليل

.. ومنه قول الآخر:

وَما بي انتصار إن عَدَا الدّهرُ ظالماً عليّ بَلى إنْ كانَ من عندك النصر

.. ومنه قول النابغة:

ولا عيبَ فِيهم أن سيوفَهُمْ بهنّ فُلُولٌ من قِراعِ الكتائب

* * *

القسم التاسع والأربعون

الغرابة. والظرافة. والسهولة

أما الغرابة فقال ابن قدامة.. هي أن يكون المعنى مما لم يسبق اليه على جهة لاستحسان فيقال ظريف وغريب إذا كان عديم المثال أو قليله والقرآن العظيم كله سهل ممتع ألفاظه سهلة ومعانيه نادرة وأسلوبه غريب قد مازجت القلوب عذوبته وحلت في العيون طُلاوته وراق في الأسماع سماعه واستقر في الطباع انطباعه فلهذا لم يُسأم على ترداده ولم تملهُ النفوس على دوام إيراده فكل آية منه حسنة الساق وكل كلمة منه عذبة المذاق وكل معنى منه دقّ ورقّ.. ومن هذا النوع في أشعار العرب والمخضرمين والمتأخرين كثير لا يحصى.. فمن ذلك قول بعض العرب:

هوى صاحِبي ريحُ الشمالِ إذا جرتْ وأشفى لقلبي أن تهبَّ جَنوبُ
يقولونَ لوْ عَزَّيْتَ قلبك لارعوى فقلت وهل للعاشقَينْ قلوب

. . وقال آخر:

ولا تحسِبا هنداً لها الغدرُ وحدها سَجيةُ نفسٍ كلّ غانيةٍ عِندُ

فما خَلفَ أجفاني شؤونٌ بخيلة ولا بَينَ أضلاعي لها حَجرٌ صَلدُ

. . وقال آخر:

تقولُ نساءُ الحيّ تأملُ أن ترى محاسنَ ليلى مُتْ بِداءِ المطامع

وكيفَ ترى ليلى بعينٍ ترى بها سِواها وما طهَّرتَها بالمدامع

وتلتذّ منها بالحديثِ وقد جرى حديثُ سواها في خروقِ المسامع

. . وقال آخر:

لا خيرَ في الحبّ وقفاً لا تحركهُ عوارضُ اليأسِ أو يرتاحهُ الطمعُ

لو كان لي صَبرها أو عندها جزعي لكنتُ أملك ما آتي وما أدَع

إذا دَعى باسمِها داعٍ ليُحزنني كادتْ له شُعبةٌ من مُهجتي تقع

لا أحملُ اللومَ فيها والغرامَ بها ما كلفَ اللهُ نفساً فوقَ ما تسعُ

. . وقال مسلم بن الوليد:

عيني لِعينكِ حينَ تنظرُ[1] لكنّ عينكِ سَهمُ حَتفٍ مُرسَلُ

ومن العجائبِ أنّ معنًى واحداً هو منك سهمٌ وهو مني مَقتَلُ

. . وقال آخر:

وماذا عسى الواشُوْنَ أنْ يتحدّثوا سِوى أن يقولوا إنني لكِ عاشقُ

نعم صدَقَ الواشونَ أنتِ عزيزةٌ عليّ وإنْ لم تصفُ منكِ الخلائقُ

. . وقال أبو تمام:

أقولُ وقد قالوا استرحتَ بموتها من الكرب روحُ الموتِ شرٌّ من الكربِ

. . وقوله أيضاً:

وقالوا عَزاءُ الموتِ للنفس مدفع فقلتُ ولا للحزْنِ مُذْ ماتَ مدفع

---

(١) كذا في الأصل ولم نقف عليه في المطبوع من شعره.

ومن الغريب السهل الظريف قول أبي تمام في قصيدته التي أولها:

مـا في وقـوفـكَ سـاعـةً من بـأس	تـحيـي بـقـايـا الأربُـع الأدراس
إقـدامُ عمـرو في سمـاحـةِ حـاتِم	في حِلم أحنفَ فـي ذكـاءِ إيـاس
لا تـنكـروا ضَـربـي لـه مـن دُونهُ	مثـلاً شـروداً في النـدَى والبـاس
فـالله قـدْ ضـربَ الأقـلَّ لنـورِه	مـثـلاً من الـمشـكـاة والنِّبـرَاس

وهـذه الأبيات على غـاية من الغـرابة وعلى نهـاية من الـظرافة والإطـابة وأغرب ما فيها أن أبا تمام لما أنشد قوله:

إقـدامُ عمرو في سمـاحـة حـاتم	في حلم أحنفَ في ذكـاءِ إيـاس

قال بعض من حضر في مجلس الخلافة شبه أمير المؤمنين بكل بوال على عقبيه فأنشد في الحال بديهاً *لا تنكروا ضربي له من دونه * البيتين. فقال له الخليفة تمنَّ فقال تمنيت الموصل فكأن الخليفة توقف عن ذلك فقال له حكيم عنده أعطها له فإنه لا يصل اليها فإنني من قوة فكرته شممت رائحة كبده فتوجه اليها فمات في الطريق. وهذا النـوع القرآن كله منه فإنـه من غرابـة الأسلوب وبداعة السياق وجودة الاتساق على غاية لا تدرك وطريقة لعد مثالها لا تسلك.. ومن هذا النوع قول زهير:

ومـا كـان من خيـر كبيـر فـإنمـا	تـوارثَـهُ بَـاءُ آبـائِهـم قـبْـلُ
وهـل يُنْبِتُ الخِـطيّ الأوشيجُـهُ	وتُغـرَسُ إلاّ في منـابتهـا النخـلُ
على مُكْثِريهـم حقّ من يعتـريهم	وعنـد المقلين السماحـة والبـذلُ

قال المصنف عفا الله عنه: هذا البيت قد ذكر أربـاب هذه الصنـاعة أنـه أمدح بيت قالته العرب وقد طعن عليه بعض الحذاق منهم وذكر فيه عيوباً. منها أنهم لـو كانـوا كرمـاءَ ما كـان فيهم مقل. ومنهـا أنه جعـل حق المعتري على المكثرين واجباً عليهم ولم يـوجبه على المقلين فكـان المكثرون عليهم إكـرامُ الضيف واجبـاً ولم يكن واجبـاً على المقلين فاقتضى ذلـك أن يكـون إعـطاء المكثـرين عن كظم واعـطاء المقلين عن كـرم فصـار المقلون أحسن حالاً من

المكثرين وأكرم أنفساً وعليه مآخذ غير هذه ولسنا بصدد استيفائها وهذا الباب واسع جداً وما ذكرناه فيه مقنع.

القسم الموفى خمسين
ما يوهم فساداً. وليس بفساد

وهو أن يقرن الناظم أو الناثر كلاماً بما ليس يناسبه أو يقدم التشبيه على ذكر المشبه. . ومنه في القرآن كثير وكذلك في أشعار العرب. . أما القرآن. فمنه قوله تعالى: ﴿**حافِظوا على الصلوات والصلاةِ الوسطى**﴾ قرنها بقوله: ﴿**وإنْ طَلقتموهنّ من قبل أنْ تمسوهنّ**﴾ الآية. واتبعها بقوله: ﴿**والذين يتوفوْن منكم ويذرونَ أزواجاً وصية**﴾ الآية فليس قبلها وبعدها ما يناسبها. ومنه قوله تعالى: ﴿**إنّ لكَ أنْ لا تجوع فيها ولا تعرَى وأنّكَ لا تظمأ فيها ولا تضحي**﴾ الذي يقتضيه المعنى المناسب ظاهراً أن يقول أنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ وإنك لا تعرى فيها ولا تضحي. ومنه قوله تعالى: ﴿**فإنْ خفتمْ أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ**﴾ وغير العالم المطلع على خفايا معاني القرآن العظيم يظن في ذلك كله عدم المناسبة وليس الأمر كذلك بل ما ورد به القرآن العزيز هو الأحسن وسنذكر إن شاءَ الله المناسبة في ذلك.

فأما آية اليتامى فقد ذكر أئمة التفسير في المناسبة وجوهاً. أحدها ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت هذا في اليتيمة تكون عند وصيها فيعجبه حسنها ومالها فيمنعها عن الأزواج ليتزوجها بمهر دون مهر مثلها ويحوز مالها فأعلم الله المؤمنين أن من خشي منهم أن يقع في مثل ذلك مع اليتامى فلينكح ما طاب له من النساءِ من غير اليتامى. وقيل المعنى فإن كنتم من التقوى على حد تخشون أن تلوا مال اليتيم خشية عدم الاقساط فانكحوا ما طاب لكم من النساء يعني اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً فإنّ من كان بهذه المثابة من خوف الله والتقوى لا يخشى عليه من الجور والميل وعدم العدل بين نسائه بدليل ما عقبه به من قوله: ﴿**فإنْ**

خفتم أنْ لا تعدلوا فواحدةً﴾ وقد ذكر أئمة التفسير في الجمع غير ذلك اقتصرنا على هذا خشية التطويل. وأما آدمَ عليه السلام فقد تقدم في المناسبة أنها تارة يُقصد فيها مناسبة اللفظ والمعنى وتارة يراعى فيها مناسبة اللفظ فقط وتارة يراعى فيها مناسبة المعنى وهذه الآية منه وهو الذي أزيد لأن ـ الجوع ـ خلو الباطن عن الغذاء ـ والتعري ـ خلو الظاهر عن الثياب ـ والظمأ ـ احتراق الباطن بالحرارة ـ والضحى ـ احتراق الظاهر فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها. .

وأما آية الصلوات والمحافظة عليها فقد سئل عنها بعض أجلة أهل العلم رضي الله عنهم فقال لما أمر الله تبارك وتعالى بالمحافظة على حقوق الخلق ذكر لهم حقوقه وهو الصلاة ليجمع لهم في التعليم بين مراعاة حقوق الخلق والحق ليحصل لهم الكمال ثم لما كانت حقوق الآدميين منها ما هو متعلق بالحياة وقد ذكر ذلك قبلها ناسب أن يذكر الحقوق المتعلقة بالممات بعدها. وقد ذكر أهل التفسير رضي الله عنهم فيها أجوبة كثيرة اقتصرنا على هذا منها. وقد وقع في أشعار العرب الأقدمين والمتقدمين من الإسلاميين والمتأخرين من هذا النوع كثير. ومن ذلك قول امرىء القيس:

كأني لم أركب جَواداً لِلذةٍ ولم أتبطّن كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزق الرّويَّ ولم أقل لخيلي كرِّي كرّة بعد إجفال

. . قال بعض النقاد أن هذا فاسد لأنه جعل التغزلَ مُجاوراً للشجاعة في البيتين والأجود أن يجاور الشجاعة بالشجاعة والغزل بالغزل فيقول:

كأني لم أركب جوداً ولم أقل لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال
ولم أسبأ الزِّقَ الروي للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

. . ومن هذا النوع قول المتنبي:

وقفت وَما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الرّدى وهو نائم
تمرّ بك الأبطالُ جَرحى هزيمةً ووجهك وضّاحٌ وثغركَ بَاسمُ

. . وهذا الذي ذكره النقاد قد رده جماعة من الحذاق بما حكي أن سيف

الدولة قال للمتنبي هذا فاسد المجاورة لأنك أتيت بالتشبيه قبل ذكر المشبه والأجود أن تقول:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ووجهكَ وَضاحٌ وثغرك باسمُ
تمرّ بك الأبطالُ كلمي هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

.. فقال المتنبي أيّد الله مولانا الأمير إن صح الذي استدرك صح الذي أستدرك على امرىء القيس وهو أعلم بالشعر مني فقد أخطأ امرؤ القيس وأسأت أنا ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز كمعرفة الناسج لأن البزّاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية.. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة ركوب الخيل للصيد وقرن السماحة في سباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء. وأنا ذكرت الموت في أول البيت فأتبعته بذكر الردى وهو الموت لتجانسهما ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو وجهه من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت ـ ووجهك وضّاح وثغرك باسم ـ لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجمعهما فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً.. ومن ذلك قول بعضهم:

فإنكَ إن تهجو تتيماً وترْتشي سرابيلَ قيسٍ أو سُحوقَ العمائم
كمهْرِقِ ماءٍ في الفَلاةِ وغَرَّهُ سـرَابُ أذاعتهُ رياحُ السمائم

.. وقال آخر:

إني وتركي ندا الأكرَمين وقدْحي بكفّي زِناداً شِحاحا
كتاركةٍ بيضها بالعَرا ءِ ومُلبسة بَيضَ أخرَى جَناحا

يجب أن يكون كل بيت من الأولين مع بيت من الآخرين لأنه أجود وأنسب.. ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر:

فيا أيها الحيرانُ في ظلمة الدّجى ومَن خافَ أنْ يَلقاهُ بغيٌ من العِدا
تعالَ إليهِ تلْقَ من نورِ وجههِ دَليلاً ومن كفّيهِ بحراً من النّدا

قال النقّاد هذا فاسد التفسير لأنه قابل البغي بالسماحة وكان يجب أن يقابل بغير ذلك فيقول تنظر أسداً حامياً وليثاً مانعاً. وقد قيل في هذا البيت أنه دل على الشجاعة يلازمها لأن الشجاع لا يكون بخيلاً ولذلك قال الشاعر:

لا تـطلبنّ من البخيـلِ شجـاعـة   إنّ البخيل يخافُ أسبابَ الرّدَى
مَن لا يجـودُ بمـالِـه يـومَ النـدا   أنّى يجـود بنفسـهِ يـوم اللقـا

وقد تعسف لهذه الأبيات وجوه من المعاني وضروب من التصحيح تخرج بها عن أن تكون فاسدة ليس هذا موضع استيفائها وفيما ذكرت كفاية ومقنع والله الهادي والموفق.

القسم الحادي والخمسون

في النادر والبارد

فأما البارد فليس في القرآن العظيم منه شيء وسيأتي بيانه في الفن الثالث الذي ليس في القرآن العظيم منه شيء. . وأما النادر فالقرآن مشحونٌ به فإن أكثر ألفاظه نادرة الوجود ومعانيه مستوفيةٌ للمقصود كل كلمة منه جامعة لمعان شتى وكل آية تحتوي على معانٍ لغير المتكلم به لا تتأتى وكل سورة إحكام أحكامها لا ينحصر وإعجاز إيجازها قد أعجز البشر وفيه النادر الحسن والأحسن. .فمن الآيات التي لم ينسج على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها قوله تعالى: **﴿فلما جاء أمرُنا وفارَ التنورُ﴾** إلى قوله: **﴿وقيلَ بُعداً للقـومِ الظالمين﴾** ولهذا إنّ ابن المقفع لما عارض القرآن ووصل إلى هذه الآية قال هذا مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله وترك المعارضة ومزق ما كان اختلقه. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: **﴿وأوحينا إلى أمّ موسى أن ارْضِعيه فإذا خِفتِ عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوهُ إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** جمعت هذه الآية أمرين ونهيين وخبرين ووعدين. . ومن هذا النوع في القرآن كثير بل القرآن كله حسن وأحسن

وليس هذا موضع استقصاء الأحسن وفي أشعار العرب من هذا كثير وقد تقدم بيانه.

* * *

القسم الثاني والخمسون

المساواة والتقصير

وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص. والقرآن العظيم جُلهُ بل كله على هذا النمط. وأما التقصير فليس في القرآن منه شيءُ وسيأتي بيانه في الفن الثالث.

القسم الثالث والخمسون

التصريح بعد الابهام. ويسمى التفسير

قال أئمة هذا الشأن المراد بالتفسير بعد الابهام تفخيم المبهم وإعظامه لأنه هو الذي يطرق السمع أولاً فيذهب السامع فيه كل مذهب كقوله تعالى: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمرَ أنّ دابر هؤلاءِ مقطوع مُصبحين﴾** فسر ذلك الأمر بقوله: **﴿أن دابر هؤلاءِ مقطوع مصبحين﴾** وفي إبهامه أولاً وتفسيره بعد ذلك تفخيم للمبهم وتعظيم لشأنه فإنه لو قال تعالى: ـ وقضينا اليه أن دابر هؤلاءِ مقطوع مصبحين ـ لما كان بهذه المثابة من الفخامة فإنّ الابهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه فيتشوف إلى معرفة كنهه والاطلاع عليه وعلى حقيقته..

ومن هذا الباب قوله تعالى: **﴿إهدِنا الصراط المستقيم صِراط الذي أنعمت عليهم﴾** لما جاءَ في الأول من التنبيه والأشعار بأن ـ الصراط المستقيم ـ هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول ـ هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ـ ثم تقول ـ فلان ـ فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم والأفضل لأنك بدأت بذكره مجملاً ثم بينته

مفصلاً فجعلته علماً في الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين جميعاً فعليه بفلان. وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى: ﴿**وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرّشاد**﴾ إلى قوله: ﴿**يرزقون فيها بغير حساب**﴾ ألا ترى كيف قال ـ أهدكم سبيل الرشاد ـ فأبهم سبيل الرشاد فلم يبين أي سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها لأن الاخلاد اليها أصل الشر كله ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن المستقر ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف ويُنشط لما يزلف فكأنه قال سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة والامتناع عن الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة إلى الأعمال الصالحة رجاءَ المجازاة عليها. . وكذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ يرفع ابراهيمُ القواعدَ من البيت**﴾ ولم يقل قواعد البيت لما في إبهام القواعد ولما في تبيينها بعد ذلك من الايضاح وتفخيم حال المبهم بما ليس في الاضافة. .

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً**﴾ إلى قوله: ﴿**فأطلعَ إلى إله موسى**﴾ الآية لما أراد تفخيم ما التمس من بلوغه أسباب السموات أبهمها أولاً ثم فسرها ثانياً ولأنه لما كان بلوغهما أمراً عجيباً أراد أن يورده على صورة مشوقة اليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه لتتشوف اليه نفس هامان ثم أوضحه بعد ذلك. . ومما يدخل في هذا الباب الابتداءُ بذكر الضمير ثم الافصاح بذكر صاحبه وحده كقوله تعالى: ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن**﴾ فإنه لما أتى بالضمير الذي هو منه قبل صاحبه الذي هو في القرآن كان ذلك تفخيماً له وتعظيماً من أمره ولو قال ـ وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن ـ ولم يذكر الضمير لما كان للكلام تلك الفخامة التي كانت له مع ذكر الضمير. . ومثل هذا قولهم الكريم العالم الفاضل ـ ثم يقال ـ فلان ـ وقد سبق الكلام عليه. . وأما الابهام من غير تفسير فكثير شائع في القرآن العزيز كقوله تعالى: ﴿**إنّ هذا القرآنَ يَهدي للتي هي أقوَمُ**﴾ أي الطريقة أو الحالة أو الملة التي هي أقومها وأشدها وأيّ ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة

الـذي تجده مـع الابهام وذلـك لذهـاب الوهم فيـه كل مـذهب وإيقـاعـه على محتملات كثيرة وهذا لا يخفى على العالم برموز صناعة التأليف فاعرفه. . ومما يدخل في هذا الباب الاستثناء العددي وهو ضرب من التأليف لطيـف المـأخذ عجيب المغزى وإنما يُفعل ذلك طلباً للمبالغة لأن له تأثيراً شديداً في القلب وموقعاً عظيماً في النفس وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد في العدد فيكبر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرنا من الابهام ثم التفسير بعدهما يسوّي بينهما. . فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامـاً﴾ فإنه إنمـا قال ـ ألف سنـة إلا خمسين عامـاً ـ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً لفـائدة حسنـة وهي ذكر مـا ابتلي به نـوح عليه الصـلاة والسلام من أمّته وما كابده من طول المقام ليكون ذلـك تسلية لـرسول الله ﷺ وتنبيهاً له فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع قوّة صبره وما لاقاه من قومه. . ومن بديع التفسير بعد الابهام قوله تعالى: ﴿إنما أعِظُكم بـواحـدةٍ أن تقومـوا لله مَثنى وفُرادَى﴾ ولـو حذف ـ واحدة ـ كان الأمر كما ذكرنا وذهبت تلك الفخامة التي في الابهام وزال ما فيه من الغموض وانقطع شوق النفس إلى التفسير وفسر ـ الواحدة ـ بقوله أن تقـوموا لله مثنى وفـرادى. . ومنه قـوله تعـالى: ﴿والمؤتَفِكةُ أهـوَى فغشّاهـا ما غشّى﴾. ومنـه قولـه تعالى: ﴿فغشيَهم من اليمّ مـا غشيَهمْ﴾. ومنـه ﴿وفعَلت فَعْلَتَكَ التي فعلتَ﴾. ومنه في الاستعمال قولهم فؤاد فيـه ما فيـه. . ومنه قـول الشاعر في وصف الخمر:

فقد مضى ما مضى من عقلِ شاربها ... وفي الـزجـاجـةِ بـاقٍ يَـطلُبُ البـاقي

. . ومنه قول الآخر:

مضى ما مضى حتى علا الشيبُ رأسَهُ ... فلمـا عـلاهُ قـال للبـاطِـلِ ابعُـدِ

. . وقال آخر:

سـأغسِلُ عني العـارَ بالسيف جـالبـاً ... عليّ قضـاءُ اللهِ مـا كـان جـالبـاً

فاعرف ذلك وقس عليه.

القسم الرابع والخمسون

التعقيب المصدري

وإنما يُعمد إلى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدّمه والأشعار بتعظيم شأنه أو بالضد من ذلك. . مثال الأول قوله تعالى: ﴿ويومَ يُنفخُ في الصُّورِ ففزعَ مَن في السموات ومَن في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿هلْ تُجزَوْنَ إلاّ ما كنتم تعملون﴾ فقوله ـ صُنعَ الله ـ من المصادر المؤكدة لما قبلها وهو كقوله: ﴿وَعْدَ الله. وصبغة الله﴾ ألا ترى أنه لما جاء ذكر هذا الأمر العظيم الدال على القدرة الباهرة من النفخ في الصور وإحياء الموتى والفزع وإحضار الناس للحساب وتسيير الجبال كالسحاب في سرعتها وهي عند الرؤية لها والمشاهدة كأنها جامدة عقّبَ ذلك بأن قال ـ صُنعَ الله ـ أي هذا الأمر العجيب البديع صنع الله والمعنى ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت من الأشياء الباهرة وإثابة الله المحسنين ومعاقبة المجرمين فجعل هذا الصنع من جملة الأمور التي هي أنفسها وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال ـ صنع الله الذي أتقن كل شيء ـ يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من إحكام الأشياءِ وإتقانه لها وإجرائه إياها على الحكمة أي أنه عالم بما يفعل العباد وبما سيرجعون اليه فيكافئهم على حسب أفعالهم ثم لخص ذلك بقوله: ﴿من جاء بالحسنةُ﴾ إلى آخر الآيتين. فانظر أيها المتأمل إلى بداعة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إيجازه وفصاحة تفسيره وأخذ بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ إفراغاً واحداً ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب الكلام كان كالشاهد بصحته والمنادي على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا ما قد كان ألا ترى إلى قوله ـ صبغة الله. وصنع الله. ووعد الله. وفطرة الله ـ بعدِ ما وسمها بإضافتها اليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله ـ الذي أتقن كل شيء ـ. وأما الثاني وهو ضد الأول وذلك ما يراد به تصغير الشأن كقولهم إذا ذكر إنساناً يريدون ذمه ـ قد ركب هواه. واستمر على غيه. وتمادى على جهله. وسحب

ذيل عجبه ـ وما أشبه ذلك ثم يقول ـ صنع الشيطان الذي غلب النفوس وميل الألباب ـ ومثل هذا كثير فاعرفه.

* * *

القسم الخامس والخمسون

النفي والإثبات

وهو أعلى ضرب من البلاغة كثير الفوائد عذب الموارد. قد تكلم فيه أرباب علم الكلام وأرباب علم البيان وقالوا إن نفي الخاص يدل على ثبوت العام ولا يدل نفيه على نفيه. وقد بينا أن زيادة المفهوم في اللفظ توجب زيادة الالتذاذ به لحصول جملة من الملاذ دفعة واحدة ولذلك كان نفي العام أحسن من نفي الخاص وإثبات الخاص أحسن من إثبات العام. أما الأول فكقوله تعالى: **﴿مَثلُهم كمثل الذي استوقَدَ ناراً فلما أضاءَتْ ما حولهُ ذهب الله بنورهم﴾** ولم يقل بضوئهم لأن النور أعمّ من الضوءِ إذ يطلق على الكثير والقليل **وإنما يقال الضوءُ على القدر الكثير. ولذلك قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾** وها هنا دقيقة وهو أنه قال ـ ذهب الله بنورهم ـ ولم يقل أذهب نورهم لأن الاذهاب بالشيءِ لا يمنع من عود ذلك الشيءِ بخلاف الذهاب إذ يفهم من ذلك استصحابه في الذهاب ومقتضى ذلك منعه من الرجوع. وكذلك قوله تعالى: **﴿قال الملأ من قومهِ إنّا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾** معناه لا ضلالة واحدة بي ويلزم من ذلك أن لا يثبت له فرد من الضلال البتة ولا كذلك لو قال ليس بي ضلال لأن اسم الجنس يقال على الكثير والقليل فيجوز أن يكون المنفي هو الكثير. ومما يشبه ذلك قوله تعالى: **﴿ولا تقلْ لهما أفٍّ﴾** فإن هذا يدل على النهي عن الضرب أيضاً لا على أن التأفيف أعم بل لأن المقصود من منع التأفيف هو الاكرام وعدم الإهانة والإهانة بالضرب أكثر من الإهانة بالتأفيف. الثاني كقوله تعالى: **﴿وجنةٍ عرضها السمواتُ والأرض﴾** ولم يقل طولها لأن العرض أنقص إذ كلما له عرض فله طول ولا ينعكس. ومما يتعلق بهذا أنه إذا كان الشيء يشبه أشياء بعضها أتم

في التشبيه أو أوفق من بعض فالأولى والألأم الاقتصار على ما هو أتم وأوفق فإن ذكر الكل فالأولى الابتداء بالأدنى والأضعف ليكون انتقال الذهن إلى الأعلى بتدريج ولأن التشبيه بالأعلى ألذّ والانتقال من لذّة إلى ما هو دونها غير مُلذّ ولا مستحسن فلذلك قال الأشتر النخعي:

حَمى الحديدُ عليهمُ فكأنه لمعانُ برق أو شعاعُ شموس

.. وإذا كان للشيء صفة يغني ذكرها عن ذكر صفة أخرى أو يدل عليها كان الاقتصار عليها أولى من ذكرهما لأن ذكرهما كالتكرار وهو ممل وإذا ذكر فالأولى تقديم المدلول عليها وتأخير الدالة حتى لا تكون الأخرة قد تقدمت الدلالة عليها وقد يخل بذلك لمقصود آخر كما في قوله تعالى: **﴿وكان رسولاً نبياً﴾** فإنه أخر نبياً لأجل السجع. وإذا كان ثبوت شيء أو نفيه يدل على ثبوت آخر أو نفيه كان الأولى الاقتصار على الدال على الآخر فإن ذكرا فالأولى تأخير الدال وقد يخل بذلك لمقصود كما في قوله تعالى: **﴿ما لهذا الكتاب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها﴾** وعلى قياس ما قلنا ينبغي أن يقتصر على صغيرة وإن ذكرت الكبيرة فلتذكر أولاً. ومثله قوله تعالى: **﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾** وعلى ذلك القياس يكتفي بقوله: **﴿ولا تقل لهما أف﴾** وإن ذكرا فيقول: **﴿ولا تنهرهما ولا تقل لهما أفّ﴾**.. وإذا تكررت الصفات فإن كان للمدح فالأولى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ليكون المديح مزيداً لتزايد الكلام وإن كان للذم فقد قالوا ينبغي الابتداء بالأشد ذماً وهو مشكل. وقد يجوز أن يستعمل نفي الخاص لنفي العام ويسمى هذا عكس الظاهر وهو من المجاز البديع. ومثاله قول علي رضي الله عنه في وصفه لمجلس رسول الله ﷺ - أنه لا تنثى فلتاته - أي تذاع والمراد أنه لا فلتات له البتة وإنما يعرف ذلك لأنه نكرة في معرض المدح وإنما يكون كذلك إذا كان المراد ما ذكرناه. ومنه - ليس بها ضب فينجحر - والمراد أنه لا ضب بها.. وكذلك قول بعضهم:

تردين جلبابَ الحياء فلم يرى لذيولهنّ على الطريق غُبارُ

والمراد أنهن لا يخرجن ولا يمشين. وهذا ينبغي أن يكون من باب تنسيق الصفات لكن فيه زيادة اقتضت إفراده.

القسم السادس والخمسون
في الضمائر وما يتعلق بها

إعلم وفقنا الله وإياك أن الضمير لا يخلو إما أن يكون معلوماً أو لا يكون كذلك. فالأول تأكيده بضمير آخر وعدم تأكيده بذلك سواء في البلاغة كما في قوله تعالى: ﴿**بيدك الخيرُ إنكَ على كلّ شيءٍ قدير**﴾ مع قوله تعالى: ﴿**تعلمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسِكَ إنكَ أنتَ علاّمُ الغيوب**﴾ وذلك لأن قدرة الله تعالى وعلمه معلومان فاستوى حذف الضمير المؤكد وإثباته معهما. والثاني الأولى فيه والأفصح تأكيد الضمير بضمير آخر وذلك إذا أريد تقوية المتعلق به وحينئذ إما أن يكون الضميران متصلين أو منفصلين أو أحدهما متصل والآخر منفصل. أما المتصلان فكقوله تعالى: ﴿**قال أقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِنفسٍ لقد جئتَ شيئاً نكراً قال ألم أقل لكَ إنكَ لن تستطيعَ معيَ صبراً**﴾ وإنما أكد هنا دون قصة السفينة لإرادته في قصة الغلامَ زيادة النكر. وأما المنفصلان فكقول المتنبي:

فإنكَ أنتَ أنتَ وأنتَ منهم ... وجدُّكَ بِشرٌ المَلِكُ الهُمامُ

والغرض المبالغة في زيادة المدح. وأما إذا كان أحد الضميرين منفصلاً والآخر متصلاً فكقوله تعالى: ﴿**قلنا لا تخفْ إنكَ أنتَ الأعلى**﴾ وها هنا دقائق. أحدها الإتيان بلفظة ـ إنّ ـ المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها. وثانيها تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به. وثالثها ذكر ـ الأعلى ـ معرّفاً يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف عالي وأعلى. ورابعها أن ـ الأعلى ـ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو. وخامسها حذف لام العلة يفيد زيادة علة لعدم الخوف لأن

قوله ـ لا تخف ـ علة لعدم الخوف لأنه نهى عنه واشتقاقه بعد ذلك بقوله: ﴿**إنكَ أنت الأعلى**﴾ منع أيضاً من الخوف لأن الأعلى لا يخاف الأدنى.

* * *

القسم السابع والخمسون

الفصل والوصل

وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها وهو من أعظم أركان البلاغة حتى قال بعضهم حد البلاغة معرفة الفصل والوصل.. واعلم أن فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلاّ هذا القدر وهو الواو وهو المراد بالذكر ها هنا والعطف والمعطوف عليه على ثلاثة أقسام. الأول عطف مفرد على مفرد وهو يقتضي التشريك فيما يوجب الاعراب. الثاني عطف الجمل التي في قوة الأفراد ويقتضي التشريك أيضاً. الثالث الجمل التي ليست في قوة المفرد. وهي على قسمين. قسم يكون فيه معنى أحد الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الأخرى كما إذا كانت كالتوكيد لها فلا يجوز إدخال العاطف لأن التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكد والموصوف لذاتيهما والتعلق الذاتي يغني عن لفظ بدل عليه فالتأكيد كقوله تعالى: ﴿**ومن الناس مَن يقولُ آمنّا باللهِ وباليوْمِ الآخر وما همْ بمؤمنين**﴾. وكقوله تعالى: ﴿**وإذا تُتلى عليه آياتنا وَلّى مُستكبراً كأنْ لم يَسمَعْها كأنّ في أذنيهِ وَقْراً**﴾ ولم يقل وكأن لأن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقر التشبيه بمن لا يسمع إلا أن الثاني أبلغ.. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وما علّمناه الشعرَ وما ينبغي له إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ**﴾. وقوله تعالى: ﴿**وما يَنطِقُ عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يُوحَى**﴾. الإثبات في الآيتين جميعاً تأكيد لنفي ما نفى.. وأما قوله تعالى: ﴿**إنْ هذا إلاّ مَلَك كريم**﴾ فيحتمل أن يكون تأكيداً لقوله: ﴿**ما هذا بشَراً**﴾ إذ المرتفع عن البشرية من المخلوقات إنما هو الملك ولأن الناس إذا شاهدوا في الإنسان من الخلق الحسن والخلق الجميل ما يعجبوا

منه قالوا ما هذا بشرٌ لأن غرضهم أن يقولوا أنه ملك فلما كان ذلك مفهوماً قبل التصريح به كان التصريح به تأكيداً ويحتمل أن يكون صفة له فإن إخراجه عن جنس البشرية يتضمن دخوله تحت جنس آخر لا تحت الملك على الخصوص فإن القسمة غير مخصورة في النوعين فجعله مَلكاً تعيينٌ لذلك النوع وتمييز لـه عن غيره. الثاني أن لا يكون بين الجملتين تعلق ذاتيٌّ فإن لم يكن بينهما مناسبة فيجب ترك العطف ولذلك عابوا أبا تمام في قوله:

لا والـذي هـو عـالمٌ أنَّ الهـوَى صبـرٌ وأنَّ أبـا الحسينِ كـريمُ

إذ لا مناسبة بين مرارة الهوى وبين كرم أبي الحسين. ثم إن كان المحدث عنه في الجملتين شيئين لغير المناسبة في الذي أخبر بهما والذي أخبر عنهما والمراد بالمناسبة أن يكونا متشابهين كقولك زيد كاتب وعمر وشاعر أو متضادين تضاداً على الخصوص كقولك زيد طويل وعمرو قصير وكقولك العلم حسن والجهل قبيح. فلو قلتِ زيد طويل والخليفة قصير أخلَّ المعنى عند السامع إذ لم يكن لزيد تعلق بحديث الخليفة ولو قلت زيد طويل وعمرو شاعر اختل اللفظ إذ لا مناسبة بين طول القامة والشعر. وإن كان المحدث عنه في الجملتين شيئاً واحداً كقولك فلان يقول ويفعل فيجب الإتيان بالعاطف فإن الغرض جعله فاعلاً للأمرين وترك العاطف يوهم أن الثاني رجوع عن الأول والاجتماع لزيادة الإشتراك كقولك العجب من أنك تنهي عن شيء وتأتي مثله. وكقول الشاعر:

لا تَـطمَعـوا أن تهينـونـا ونُكـرِمَكم وأن نكُفَّ الأذَى عنكم وتؤذونا

أي لا تطمعوا أن تروا إكرامنا إياكم يوجد مع إهانتكم إيانا ويجامعها في الحصول.

والعاطف تارة يجب إسقاطه وتارة يجب إثباته وتارة يخير بين إسقاطه وإثباته.

أما الذي يجب إسقاطه فهو إذا كان إثباته يخل بالمعنى كقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحنُ مُصلحون ألا أنهم هم المفسِدُون﴾ فقوله: ﴿ألا أنهم هم المفسدون﴾ كلام مستأنف وهو اخبارٌ من الله تعالى فلو أتى بالواو العاطفة لكان اخباراً عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم مفسدون فيختل المعنى ويتناقض الكلام.. وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مُستهزِؤن الله يَستهزِىءُ بهم﴾ فهذا اخبار من الله تعالى وفي الحقيقة جواب سؤالٍ مقدر لأنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت تشوَّف السامعون إلى العلم بمصير أمرهم فكأنه قيل فماذا فعل الله بهم فقال: ﴿الله يستهزِئُ بهم ويَمدُّهُمْ في طُغيانهمْ يعمهونَ﴾.

وأما ما يجب إثبات العاطف فيه فقوله تعالى: ﴿يخادِعونَ الله وهو خادِعُهم. ومكَرُوا ومَكَرَ الله﴾ فإن كل واحدة من الجملتين خبر من الله تعالى. ومثله في القرآن العظيم كثير. وأما الذي يخير بن إسقاطهُ وإثباته هو إذا كان إسقاطه لا يخل بالمعنى وإثباته لا يفيد معنى زائداً. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

* * *

فصل

يشتمل على ذكر جمل عُطف بعضها على بعض بالواو. والفاء. وثم. واختلاف معانيها

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هو يُطعِمُني ويَسقين وإذا مَرضتُ فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين﴾ عطف أولاً بالواو لأن الاطعام والاسقاء ليس فيهما ترتيب واجب مع أن تأخير الاسقاء أولى ولذلك أخره في الذكر وعطف ثانياً بالفاء إذ لا مهلة بين المرض والشفاء وعطف بثم لما بين الأماتة والاحياء من المهلة

ومـع ذلك نسب المـوت إلى الله لما في ذلـك من إظهار القـدرة والقهر ونسب المرض إلى نفسه لأن الأدب أن لا ينسب إلى الله تعالى إلّا ما يحمـد والموت وإن كان مذموماً لكنه عند قاتل هذا محمود لأنه على يقين من السعادة الأخروية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فحملتُه فانتبذَتْ به مكاناً قصياً فأجاءها المخـاض إلى جِذع النخلة﴾ إنما عطف بالفاء مع أن بين مجيءِ المخـاض والحمل مهلة لأن المهلة التي بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة، قيل كانت يوماً وقيل كانت ثلاث ساعات وعليه أكثر المفسرين حتى يتميز حملها عن سائر النسـاءِ ويكون ذلك كرامة لها فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك.. وجميع أفعال المطاوعة إذا كانت على معانيها فإنما يعطف عليها بـالفاء لا الـواو وتقول دعـوته فـأجاب وأعطيته فأخذ ولا يحسن أعطيته وأخذ ولا دعوته وأجاب قال الله تعالى حكـاية عن ابليس: ﴿ومـا كان لي عليكم من سُلطان إلا أن دعـوتكم فـاستجبتم لي﴾ وكـذلك يقـول كسرتـه فانكسر ولا تقول كسـرته وانكسـر. وأما إذا كـان فعـل المطاوعة على غير معناه فقد يحسن العطف عليه بالـواو كما في قـوله تعـالى: ﴿ولا تطعْ من أغفلنا قلبهُ عن ذكرنا واتبعَ هواهُ﴾. ومن المعطوف بـالواو أيضـاً قوله تعالى: ﴿وإنّا أو إياكم لَعلى هُدى أو في ضَلال مُبين﴾ ولو قال لفي هدي أو على ضلال لم يحسن لأن ـ على ـ تفيد الاستعلاء وهو منـاسب للحق ـ وفي ـ تفيد الوعاء والكافر كأنه مغموس في الضلال.. ومن هـذا النوع قـوله تعـالى: ﴿إنمـا الصدَقـاتُ للفقراءِ والمسـاكين والعاملين عليهـا والمؤلفـة قلوبهم وفي الرقاب والغارميـن وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ ما عدل عن اللام في الأصناف الأخيرة إلا لبيان أن تلك الأصناف أحق بالصدقات ينبغي أن توضع فيهم وضع الشيء في الوعاء وكرر في البيان أن سبيل الله أولى بذلـك فتأمله فهـو كثير في القرآن.

* * *

القسم الثامن والخمسون
في الوصـف

والوصف أصله الكشف والاظهار من قولهم ـ وصف الثوب الجسم ـ إذا لم يستره ونم عليه . . وأحسنه ما يكاد يمثل الموصوف عيـانـاً ولأجل ذلك قال بعضهم أحسن الوصف ما قلب السمع بصراً . . منه في القرآن العظيم كثير مثل قوله تعالى في وصف البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها لما سألـوا أن توصف لهم بقولهم : **﴿أدعُ لنا ربَّك يُبين لنا ما هي قال إنه يقول أنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بين ذلك﴾** وقوله لما سألوه أن يصف لهم لونها : **﴿قال ـ إنه يقول أنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين﴾** وقوله لما سألوه بيان فعلها قال إنه يقول : **﴿إنها بقرةٌ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شِيَةَ فيها﴾** فجمع في هذه الآيـة جميع الأحـوال التي يُضبط بهـا وصف الحيـوان فإن الحيوان عنـد البيـع والإجارة وسائر وجوه التمليكات يحتاج فيه إلى معرفة سنه ولونه وعمله ثم يفتقر فيه إلى معرفة عيوبه فنفى الله سبحانه وتعالى عن تلك البقرة كل عيب بقوله ـ لا شية فيها ـ فجمع في هذه الآية جميع وجوه الوصف فـإنـه في الأول وصف سنها وفي الثاني وصف لونها وفي الثالث وصف خلقها وعملها . . ومن ذلك قوله تعالى : **﴿مَثَلُ الجنةِ التي وُعدَ المتقونَ﴾** . أي صفة الجنة التي وُعدَ المتقون كيت وكيت . ومنـه قولـه تعالى : **﴿مثـلُ ما ينفقـونَ في هذه الحيـاة الدنيـا﴾** . وقولـه تعالى : **﴿الذين ينفقون﴾** الآية . وقوله تعالى : **﴿مثل الحياة الدنيا﴾** الآية .

ومن هذا الباب في القرآن كثير لا يحصى وكذلك في السنة النبوية وكذلك في الشعر . . ومن بديع ما ورد في الشعر قول أبي تمام في وصف سحابة :

ديمـةٌ سحت العهـاد سكـوب ... مستغيثٌ بها الثرى المكـروب
لـوسعت بُقعة لا عـظام أخرى ... لسعى نحوها المكان الجديب

. . والـوصف قريب من التشبيـه إلاّ أن الفـرق بينهمـا أن التشبيـه مجـاز والوصف راجع إلى حقيقتـه وذاتـه . وفي القرآن العظيم والكـلام الفصيح منـه كثير .

* * *

القسم التاسع والخمسون

تنسيق الصفات بغير حرف نسق

وهو أن تصف الشيء بصفات عديدة متوالية. أما لتعظيمه. وأما لتحقيره.

وأما لبيان خصوصية فيه. ومنه في الكتاب العزيز كثير. . أما في التعظيم فمثل قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيبِ والشهادةِ هو الرحمنُ الرحيمُ﴾ إلى آخر السورة. وأما في التحقير فكقوله تعالى: ﴿ولا تطِعْ كلَّ حَلاّفٍ مهين همازٍ مَشّاءٍ بنميمٍ مَنّاع للخيرِ معتدٍ أثيم عُتلٍّ بعد ذلك زنيم﴾. وما لبيان الخصوصية وإظهار الكرامة فكقوله تعالى: ﴿عسى رَبهُ إن طلقكن إنْ يُبدِ لهُ أزواجاً﴾ الآية. ومنه في السنة النبوية قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون» ومن الذم: «ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون».

ومن هذا النوع في الشعر كثير. من ذلك قول العباس يمدح رسول الله ﷺ:

وأبيض يستسقي الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

. . وقول حسان:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابهم شمُ الأنوف من الطراز الأول

القسم الستون

حسن النسق

وهو أن تأتي بكلمات من النثر أو النظم متتاليات ومتعاقبات منسوقة بعضها على بعض بحرف العطف كل كلمة إذا أفردت كانت تقوم بمعنًى مفرد مستقل وكل بيت إذا جرد من تلوه استقل معناه ولم يفتقر إلى غيره وإن ضم إليه تلوه

صارا كأنهما بيتاً واحداً . . ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى: **﴿وقيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أقلِعي وغيض الماء وقضى الأمرُ واستوَتْ على الجـودِيّ وقيل بُعداً للقوْمِ الظالمين﴾** فأنت ترى هذه الجمل معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنـه سبحانـه بدأ بـالأهـم إذ كان المراد إطلاق أهـل السفينة من سجنهـا ولا يتهيأ ذلـك إلّا بانكشـاف الماء عن الأرض فلذلـك بدأ بالأرض فأمرهـا بالانقـلاع ثم علم سبحانـه أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها ولم تنقطع مادة السماء تأذّى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها وربما ينزل من السماء أكثر مما تبتلع الأرض فأمرها بالاقـلاع بعد أن أمـر الأرض بالابتلاع ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض وانقطعت مـادة السمـاء وذلك يقتضي أن تكـون ثـالثـة الجملتين المتقـدمتين ثم قـال تعـالى: **﴿وقضي الأمر﴾** أي هلك من قدر هلاكه ونجى من قضيت نجاته وهذا كنه الآية وحقيقة المعجزة ولا بد أن تكون معلومة لأهل السفينة ولا يمكن علمهم بها إلّا بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم وبذلك اقتضت البـلاغة أن تكـون هذه الجملة رابعـة الجمل وكـذلـك استـواء السفينـة على الجـودي أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقـراراً لا حركـة معه لتبقى آثـارها عبرة لمن يأتي بعد أهلها وذلك يقتضي أن تكون بعد ما ذكرنا. وقـوله سبحـانه وتعالى: **﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾** وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق فدعا الله سبحانه وتعالى على الهالكين وسماهم ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال وذلك يقتضي أن يكون بعد كـل ما تقدم والله أعلم. فانظر إلى حسن هذا النسق كيف وقـع القول فيـه وفق الفعل سواء. . وقد حكى أن ابن المقفع العبذي عارض آي القرآن فلما بلغ إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة وقال هذه الفصاحة التي لا تبـارَى والبلاغـة التي لا يسايق المتكلم بها ولا يجاري والقول الفصل الذي لا يختلف فيه ولا يتمارَى. وهذا في الشعر كثير. . ومن أحسنه قول ابن شرف، القيرواني:

جـاوِزْ عليًـا ولا تحفَـلْ بحـادثـةٍ إذا ادَّرَعتَ فـلا تسـأل عن الأسـلِ

سَلْ عنه وانطِقْ بهِ وانظرْ إليه تجدْ مِلْءَ المسامعِ والأفواهِ والمقلِ

القسم الحادي والستون

المدح والذم

وفي كتاب الله تعالى منه كثير. المدح للمؤمنين. والذم للكافرين. ومدحه هو المدح على الحقيقة. وذمه هو الذم على الحقيقة.. وقد مدح الله تعالى نفسه بقوله: ﴿اللهُ لا إلهَ إلا هو الحيُّ القيومُ﴾. وقوله تعالى: ﴿قلْ هو اللهُ أحدٌ اللهُ الصمَدُ لم يلد ولم يُولَدْ ولم يكن له كفواً أحدٌ﴾ حتى قال بعض العلماء لكل أحد نسبة ونسبة الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ ومدح الله عز وجل نبيه بآيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى اللهِ بإذنهِ وسِراجاً منيراً﴾ ومدَح نبيه ﷺ والمؤمنين في آيات كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدّاءَ على الكفّارِ رُحماءُ بينهم تراهُمْ رُكّعاً سُجّداً﴾ ومدح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿التائبونَ العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدونَ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾. وذم سبحانه وتعالى الكافرين بآيات كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿إنّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله﴾ الآية. وذم المنافقين بقوله: ﴿ومَنِ الناسِ مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليومِ الآخرِ وما هُمْ بمؤمنين يُخادِعونَ اللهَ والذين آمنوا وما يخادعون إلاّ أنفسَهم وما يشعرُون في قلوبهم مَرَضٌ فزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ولهمْ عذابٌ أليمٌ﴾. وأما مدح الناس بعضهم بعضاً فينبغي لمن أراد أن يمدح أحداً أن يمدحه بألفاظ حسنة مستعذبة واضحة المعنى رائقة اللفظ غير حوشية ولا قلقة وأن تكون القصيدة أو الرسالة حسنة المطلع بديعة التخلص عذبة المقطع وأن يكثر في وصف الممدوح ونشر مآثره وتعديد مكارمه ونحو ذلك ويكثر من ذكر النوع الذي يميل إليه من المكارم ويجب أن يوصف به من المآثر ونحو ذلك.

وقد قال قدامة الأوصاف التي يمدح بها أربعة. الأول العقل ويدخل فيه الحياء والثبات والسياسة والكفاءة وثقافة الرأي والصدع بالحجة والحلم عن سفاهة السفهاء وأمثال ذلك. الثاني الشجاعة ويدخل فيها المهابة والحماية والدفاع والأخذ بالثأر والنكاية في العدوّ وقتل الأقران والسير في المهامة وأشباه ذلك. الثالث العفة ويدخل فيها القناعة وقلة الشرَه وطهارة الإزار ونحو ذلك. الرابع العدل ويدخل فيه السماحة والاطلاق والتبرُّع بالنائل وإجابة السائل وقراه الضيف. ويحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات والوفاء بالوعد. ومع العفة ترك الشره والرغبة عن المسألة والاقتصار على أدنى معيشة. ومع العدل البر وإنجاز الوعد ويحدث. من تركيب الشجاعة مع الصفة إنكار الفواحش والغيرة على الحريم. ومع العدل الائتلاف وترك الخلاف. ويحدث من تركيب العفة مع العدل الاسعاف بالقوة والإيثار على النفس ونحو ذلك. . واستوعب زهير الأقسام الأربعة فقال:

أخي ثِقـةٍ لا تهلِكُ الحمرُ مـالـهُ   ولكنـهُ قـد يُهلكُ المـالَ نـائله

وصفه بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وبالسخاء، ووصفه بالشجاعة والعقل فقال:

ومَن مثْلُ حِصنٍ في الحروبِ ومثله   لإذهـاب ضيمٍ أو لخصمٍ يجادِلـه

وأما قوله ـ أخي ثقة ـ فهو وصف بالوفاء وهو داخل فيما ذكرنا. . وفي الذم يأتي بأضداد ما تقدم. وقيل أحسن الهجاء ما لا تستحي العذراء من إنشاده. وقيل في الذم أن تأتي بالألفاظ المنكية والمعاني المشجية والمقاصد المؤلمة المبكية ويتوخى أقبح معائب المهجوّ وأعظم وجوه الازدراء به ولهذا المعنى حرّمه الله ورسوله وعم بالذم والإنكار كل من يحفظه أو يقوله.

* * *

القسم الثاني والستون

الحمـد والشكر

وقد اختلف العلماء فيهما فقال قوم وهم الجمهور الحمد هو ذكـر ما في الانسان من المآثر الحسنة والصفات المستحسنة والشكر ثناءٌ يقصـد به مجـازاة المنعم. . وقال بعض أهل العلم أن الحمد وصف الخلال كقول الخنساء أخت صخر:

ومـا بلغت كـفُّ امـرىء متنـاوَلاً ... من المجـدِ إلاّ والـذي نلتَ أطـولُ
ومـا بلغ المهـدون للنـاس مِـدْحـةً ... وإن أطنبـوا إلا التي فيـكَ أفضـلُ

والشكر وصف الأفعال كقول الشاعر:

وإنـكُـم بـقـيـةُ حـيّ قـيس ... وهضبتُـهُ التي فـوقَ النصـابِ
تبـارونَ الـريـاح إذا تبـارت ... وتمتنُـون أفعـالَ السحـابِ
يـذكـرني مقـامي في ذراكم ... مقـامي أمس في ظلّ الشبـاب

. . وقيل أن الحمد والشكر سواءٌ. وقال أهل اللغة ـ حمدتُ الرجلَ ـ إذا شكرتَ له صنيعه ـ وأحمدته ـ إذا وجدته محموداً. . وقال ابن الأنباري ـ حمد ـ مقلوب مـدح وقد قيـل كيف يكون الحمـد والشكر سـواءً والحمد نقيضـه الذم والشكر نقيضه الكفران والذي أختاره أن الحمد أعمُّ من الشكر وأنه قـد يحمد الشخص على ما فيه من الأخلاق الجليلة والصفات الجميلة ويحمد على حسن خلقه من الصباحة والجمال والكمال ويحمد على ما فيه من الفصاحة والبـلاغة والنجابة ويحمد على كثرة إنعامه وإحسانه والشكر إنما يكون للمنعم عليك فقط فإذا حمدت أحداً إن نويت بالحمد الشكر له على مـا أسدى اليـك من الأنعام والاحسان كان هذا الحمد هو الشكر لأنه مجازاة لصنيع ومكافـأة لإحسان فقـد أتيتَ بأعلى درجات الشكر هو الذي أشار اليه رسول الله ﷺ بقوله الحمد رأس الشكـر وهو الـذي يجوز إطـلاقه على الشكـر وإطلاق الشكـر عليه وإن أردت بالحمد الثناء على صفاته الجميلة الكاملة التي خلقه الله عليها فهذا أخو المدح

وهو إعلاء ويجوز إطلاقه على المدح وإطلاق المدح عليه وإن أردت بالمدح وصفه بكمال الجمال والجلال وحسن الشيم والخلال والثناء عليه بما أسدى اليك وإلى غيرك من الأنعام والافضال فهذا هو الحمد الكامل ولا يجوز أن يطلق عليه الشكر والمدح فهذا هو الحق.. وقد تكلم المفسرون في الحمد والشكر والفرق والجمع بينهما وبين المدح ومن علم ما ذكرته هنا سهل عليه الاختلاف والائتلاف والله الموفق للصواب لا رب غيره.

* * *

القسم الثالث والستون

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهو كقولهم بحار العلم إلا أنهم جبال الحلم.. ومنه قول بديع الزمان:

هــو البـدْرُ إلا أنــه البحــرُ زاخــراً   سِـوَى أنـهُ الضّـرْغـامُ لكنـهُ الـوَبــلُ

وهذا من نوع الغلوّ والإغراق وسيأتي بيانه عقيب هـذا القسم إن شاء الله تعالى. وهذا النوع في القرآن كثير.

* * *

القسم الرابع والستون

(المبالغة) وتسمى الإفراط والغلوّ والايغال

ومعنى هذه الأسماء متقاربة وبعضها أرفع من بعض

قال علماء علم البيان المبالغة الزيادة على التمام وسميت مبالغة لبلوغها إلى زيادة على المعنى لو أزيلت تلك الزيادة وأسقطت كان المعنى تاماً دونها لكن الغرض بها تـأكيد ذلـك المعنى في النفس وتقريـره. وفي القرآن العـظيم والكلام الفصيح والاشعار منه كثير.

أما الكتاب العزيز فقوله تعالى: ﴿إذْ جاؤكم من فوْقِكم ومن أسفَلَ منكم وإذْ زاغت الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنونَ باللهِ الظنونـا﴾. ومنه قـوله تعـالى: ﴿وقد مكَـرُوا مكْرَهم وعنـدَ الله مكرُهمْ وإنْ كـانَ مكرُهُمْ لتـزول منه الجبالُ﴾ وقد قيل أن هذه الآية ليست من باب المبالغة بل حكاية عما وقع. ومنه قوله تعالى: ﴿تكادُ السموات يتفطّرْنَ منهُ وتنشَقُّ الأرضُ وتخِرُّ الجبالُ هَدًّا﴾. وقوله تعالى: ﴿ولو أنّ قرآناً سُيِّرت به الجبـالُ أو قطّعتْ بـه الأرضُ أو كلّمَ به الموْتى﴾ الآية.. وأما الكلام الفصيح فقد رُوي عن العرب أنهم قالوا فلان يهُدّ الجبال ويصرع الطير ويفزّع الجن ويزوي الماء..

وقال بعض العرب في فرسه ـ يحضر ما وجد أرضاً وإن الـوابل ليصيب عجزه ولا يبلغ معرفته حتى أنال حاجتي ـ. وذم أعرابي رجلاً فقال ـ يكاد يعدي لؤمه من تسمى باسمه ـ. وقالت سكينة ـ ما لبسَتْ بنتي الدرّ إلاّ لتفضحه ـ ومنه في الشعر كثير.. فمن ذلك:

أضـاءَتْ لهم أحسـابُهُمْ ووُجـوهُهُمْ　　　دُجَى الليلِ حتى نظّمَ الجَـزْع ثاقِبـه

.. وقال المتنبي:

لقيتُ الـرَّوابي والشنـاخيبَ دُونَـهُ　　　وجبتُ هجيـراً يَتْـرك المـاءَ صـاديـا

.. وقال آخر:

لـو كان يَقعُـدُ فوقَ النجمِ من كـرَمٍ　　　قـوْمٌ لقيـلَ آقعُـدُوا يـا آلَ عبـاسِ

.. وقال آخر:

فكنتُ إذا مـا جئتُ ليلى بـأرضِهـا　　　أرَى الأرضَ تَطوَى لي ويَدْنو بعيدُهـا
من الخفِـرَاتِ البيضِ وَدَّ جليسُهـا　　　إذا مـا مضتْ أحدُوثـةٌ لـو تُعيـدُهـا
وكـيـف يــوَدُّ الـقـلبُ مـن لا يَـوَدُّهُ　　　بلى قـد تريـدُ النفسُ من لا يُريـدُها

.. وقال آخر:

وحـديثهـا السحْـرُ الحـلالِ لـوَ انـهُ　　　لم يُجنِ قتْـلَ الـمسـلمِ المتحـرِّزِ

إنْ طـال لم يُملَلْ وإنْ هي أوْجـزَتْ وَدَّ المـحـدّثُ أنهـا لـم تـوجـزِ
شـرَكُ النفـوسِ ونـزهـةٌ مـا مثلُهـا لـلمـطمئنّ وعُـقْـلةُ المسـتـوْفـزِ

والأشعار في هذا الباب كثيرة لا تحصى.

* * *

القسم الخامس والستون

الرثاء والتعزية

فأما الرثاء فهو مدح الميت بما كان فيه من المناقب المذكورة والمحاسن المأثورة. ومنه قوله تعالى في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **﴿وتركْنا عليهِ في الآخرين سلاَمٌ على إبراهيمَ كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾**. وقوله تعالى: **﴿إنّ إبراهيمَ كان أمّةً قانتاً للهِ حنيفاً ولم يَكُ من المشركين﴾**. وقوله تعالى في حق نوح عليه الصلاة والسلام: **﴿وتركنا عليه في الآخِرين بسلام على نوح في العالمين إنه من عبادنا المؤمنين﴾**.. وأما التعزية فهو أن يذكر ما يُتوصل به إلى تسلية مخلفي الميت وتصبيرهم وإطفاء نارِ ثكلهم. وفي القرآن من ذلك كثير وهي كثيرة في أشعار المتقدمين والمتأخرين.

أما القرآن فقوله تعالى: **﴿لقد كْان لكم في رسولِ الله أسوَةٌ حَسنةٌ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبلهِ الرّسلُ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وكأيّن من نبيٍّ قُتلَ معهُ رِبّيّونَ كثير فما وهَنوا لما أصابَهم في سبيلِ الله وما ضعَفوا وما استكانوا﴾**. وقوله تعالى: **﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت وإنما توَفّونَ أجورَكم يومَ القيامةِ﴾** وقوله تعاالى: **﴿أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتم في بُرُوجٍ مشيَّدَةٍ﴾**. وقوله تعالى: **﴿والصابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحين البأسِ﴾**. وقوله تعالى: **﴿﴿والذين إذا أصابتهمْ مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنا إليهِ راجِعون أولئكَ عليهمْ صلوات من ربهِم ورحمةٌ وأولئكَ هُمُ المُهتَدُون﴾**.

وقوله تعالى: ﴿ولئن صَبرتمُ لهوَ خير للصابرين﴾ وأما الأشعار فقد ورد منها في هذا كثير لا يحصى. . فمن أحسن ذلك قول بعضهم:

مضى ابنْ سعيدٍ حيثُ لم يَبقَ مشرقٌ ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفّهِ على الناسِ حتى غيَّبتهُ الصفائحُ
وأصبحَ في لحدٍ من الأرضِ مُفرَداً وكانت به حيّا تضيقُ الصحاصحُ
لئن عظمتْ فيهِ المرائي وحسنُها لقد عظُمتْ من قبْلُ فيه المدائحُ

. . ومن بديع التعزية قول بعضهم.

أيتها النفسُ أجملي جَزَعاً إنّ الذي تحذرين قد وَقَعا

. . وقول بعضهم:

قِسمةُ الموتِ قِسمةٌ لا تجورُ كلُّ حيٍّ بكاسِها مخمورُ

. . وقول الخنساء:

يُذَكّرُني طُلوعُ الشمسِ صخراً وأندُبُه لكلِ غُروبِ شمسِ
ولوْلا كثرَةُ الباكينَ حوْلي على إخوانِهمْ لقتلتُ نفسي
وما يَبكونَ مثلَ أخي ولكنْ أسَلّي النفسَ عنهُ بالتأسّي

* * *

القسم السادس والستون

في الشكاية

وهي في القرآن على قسمين. ملفوظ بها. وغير ملفوظ بها. . أما الملفوظ بها ففي قوله تعالى: ﴿إنما أشكو بثي وحُزني إلى الله﴾. . ومن الشعر قول بعضهم:

إلى اللهِ أشكو لا إلى الناسِ أنني أرَى الأرضَ تُطوَى والاخلّاءُ تذهَبُ

.. وقال آخر:

ولا خير في شكوَى إلى غير مُشتكي ... ولا بُـدّ من شكوَى إذا لم يكن صبرُ

.. وأما غير الملفوظ بها ففي القـرآن منه كثيـر. من ذلك قـوله تعـالى: **﴿قال ربِّ إنّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾**. وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه الصلاة والسلام: **﴿قالَ ربِّ إني دعَـوْتُ قوْمي ليلاً ونهاراً فلم يَزِدْهُمْ دُعائي إلاّ فِراراً﴾** إلى قوله: **﴿وأسرَرْتُ لهم إسراراً﴾**. وقوله تعالى: **﴿وأفوِّضُ أمري إلى اللهِ إن اللهَ بصيرٌ بالعِبادِ﴾** ومثله في القرآن كثير وفي الشعر كثير. فمن بديعه قول الشاعر:

يـا إلهي قـد أثقلَتني الـذنـوبُ ... فـاعفُ عني فالعَفـوُ منـكَ قـريبُ
وتجـاوزْ عن مُـذنبٍ بخـطايـا ... ه عن الخيـر قلبُـه مَحجـوبُ
كـل يـوم يمضي عليـه ويـدري ... أنـه مـن حيـاتـه محسـوب
وهـو في غفلة بعيـدٌ من الـخـ ... ـير قريبٌ منه الخطا والـذنـوب

.. ومن بديعه أيضاً قول بعضهم:

يـا من يُناجي بـالضميرِ فيسمـعُ ... أنتَ المعـدّ لكـلٍّ مـا يُتـوقـع
يـا من يُنـاجي للشـدائـد كـلهـا ... يـا من إليـه المشتكى والمفـزعُ
يـا من خزائـنُ جـوده في قـولِ كن ... أمنن فـإن الفضـل عنـدك أجمـعُ
مـا لي سـوى قـرعي لبابـك حيلةٌ ... فـإذا رددت فـأيَّ بـاب أقـرعُ
ومن الـذي أدعـو وأهتف بـاسمـه ... إن كـان بِـرُّك عن فقيـرك يمنـع
حـاشى لجـودك أن يـقنط راجيـاً ... الفضـلُ أجـزلُ والمـواهبُ أوسـع

.. وفي هذا الباب أشعار كثيرة لا تحصى.

* * *

القسم السابع والستون

الحكـايـة

وهو أن يحكي كلام المتكلم أما بلفظه أو بمعناه والقرآن العظيم مشحون بذلك. وهو على قسمين. ظاهر. ومقدر. . أما الظاهر فكما حكاه الله سبحانه وتعالى من قول الملائكة: ﴿قالوا أتجعـلُ فيها من يفسـدُ فيها ويَسفـكُ الدِّمـاءَ ونحنُ نسبحُ بحمدِكَ ونقدسُ لك﴾. ومنه قولـه تعالى: ﴿وقـالتْ اليهود ليستِ الـنصارى على شيء وقالـت النصارى﴾ وكذلك كل مـا حكاه الله تعـالى من أقوال القرون الخالية والأمم الماضية. وأما المقدر فكقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنةٍ فمنَ الله وما أصابكَ من سيئَةٍ فمن نفسك﴾ التقدير يقولون ـ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابكَ من سيئة فمن نفسك ـ دليل ذلك أنـه ردّ عليهم بقـوله: ﴿قـلْ كلٌّ من عنـدِ الله فما لهؤلاء القـومِ لا يكادونَ يفقهـون حديثـاً﴾ ومثله في القــرآن العــظيم كـثيــر.

* * *

القسم الثامن والستون

الاقتضــاء

وهو طلب الموعود بالوعد السالف. وهو على ضربين. حسن. وخشن.

فالحسن مرغوب فيه لأنه يحصل المقصود وينجز الموعود. . وأمـا المذموم فهو سبب الحـرمـان وحسم لمـادة الاحسـان. وقـد وقـع منـه في الكتـاب العـزيـز القسمان. . أما الحسن فمثلُ قوله تعالى: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رُسلك ولا تخزنا يومَ القيامة انّكَ لا تخلِف الميعاد﴾. وقوله تعالى: ﴿قل رَبِّ احكم بالحقّ ورَبنا الرّحمن المستعانُ على ما تصفون﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ربنا أفـرغْ علينا صَبراً وثبتْ أقدامنا وانصرْنا على القوم الكافرين﴾ استنجزوا وعده الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾. . وأما الخشن فورد منه في

القرآن كثير أيضاً. فمنه قوله تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قِطنا قبلَ يومِ الحساب﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأتنا بما تَعدُنا إن كنتَ من الصادقين﴾. وفي الشعر منه كثير.

القسم التاسع والستون

التذكير

وهو التنبيه لمن غفل أو سهى عن شكر نعمة أسديت اليه ومنن أزلفت لديه نسيها أو تناساها لتقوم عليه حجة المنعم وليوقظ من نوم غفلته في ليل نسيانه أو تناسيه المظلم. وفي الكتاب العزيز منه كثير من ذلك قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾. وقوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين﴾. وقوله تعالى: ﴿فقُولا له ليّناً لعله يتذكرُ أو يخشى﴾ ومعناه لعله يتذكر سترنا له وإنعامنا عليه في أمر النيل إذ تضرع الينا فأجرينا له النيل لما التمس قومه منه إجراء النيل أو يخشى انتقامنا منه في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق.. والفرق بين الاقتضاءِ والتذكير أن التقاضي لاستبعاد حصول المطلوب لطول مدة انتظار المرغوب. والتذكار إنما يكون عن غفلة أو نسيان كقول بعضهم:

جئتك للاذكارِ مُستحرضاً	لالتقاضِيكَ وَحُوشِيتا
ولسْتَ بالمهمل لكنما	لكثرةِ الاشغالِ أنْسِيْتا

* * *

القسم الموفى السبعين

الوعـد والوعيـد

. . أما الوعد فهو إطماع بإحسان في المستقبل وهو على قسمين متحقق الـوقوع وهـو وعد الله سبحـانه وتعـالى لقولـه تعالى: ﴿وعـدَ الله لا يخلف الله وعدَه﴾. وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ ووعد مرجو وقوعه وهو وعد العباد. والوعد يكون في الخير والشر لكن استعمـاله في الخيـر أكثر قـال الله تعالى: ﴿جنات عدنٍ التي وَعد الرحمنُ عباده بالغيب إنه كـان وعدُه مـأتياً﴾. وقـال تعـالى: ﴿الشيطانُ يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاءِ والله يعدكم مغفرةً منه وفضـلاً﴾. وفي هـذه الآيـة شـاهـد للمعنيين. وقد ورد في القرآن العظيم وفي الشعر منه كثير. أما القرآن فمنه ما قدمنا. ومنه قوله تعـالى: ﴿وعد الله الـذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾. وقوله تعالى: ﴿وعـدكم الله مغـانم كثيرةً تـأخذونهـا﴾. وقـولـه تعـالى: ﴿ربنـا وآتنـا مـا وعـدتنـا على رُسلك﴾. . وأما الوعيد فهو تخويف بسوءِ المجـازاة في المستقبل تحـذيراً من الوقوع في المخالفات. وفي القرآن العظيم منه كثير. فمن ذلـك قولـه تعالى: ﴿آمِنوا بما نزلنا مُصدقاً لما معكم من قبل أن نطمسَ وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحابَ السبت وكان أمر الله مفعولا﴾. وقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضبَ الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾. وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يُدخِلهُ نـاراً خالداً فيها وله عذابٌ مهين﴾. وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كلّ كفور﴾ إلى قوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾.

* * *

القسم الحادي والسبعون

العتابُ والإنـذار

وهو دليل بقاء المودة ودوام عقد الألفة والصحبة. والغرض به إزالة ما في النفوس من الوحشة لأن بجريـانه يظهر ما في القلوب من آثار الجناية ويبدو ما في البواطن من تأكيد أسباب العناية إذ لـولا بقاء المـودة الخفية لحصلت القـطيعة بالكلية ولم يحتج إلى عتاب ولم يرغب في الاعتاب ولهذا قيل:

ويَبقى الوُدّ ما بقيَ العتابُ

ومنه في القرآن العظيم كثير. . فمن ذلك قوله عز وجل: **﴿عفا اللهُ عنك لِمَ أذنت لهمْ﴾**. وقوله تعالى: **﴿يا أيها النبي لمَ تحرِّمُ ما أحلّ الله لك﴾**. وقوله يعالى: **﴿عَبسَ وتولّى أنْ جاءَهُ الأعمى﴾**. وقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جـاءَكم فاسقٌ بنبـأٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قومـاً بجهـالـةٍ﴾** إلى قـولـه: **﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾**. . . وفي القرآن من جميل العتاب شيء كثير. . وأما الانذار ففي القرآن منه كثير لا يحصى. فمنه قوله تعالى: **﴿إنّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذَرْتَهُمْ أمْ لم تنذِرْهُمْ لا يؤمنون﴾**. ومنه قوله تعالى: **﴿وأنذِرْهُمْ يومَ الآزِفةِ إذِ القلوبُ لدَى الحناجرِ﴾** الآية. وقوله تعالى: **﴿وأنذِرْهُمْ يومَ الحسرَةِ إذْ قضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لا يؤمنون﴾**.

القسم الثاني والسبعون

الاعتـــاب

وهو رجوع الإنسان عما عتبت عليه بسببه يقال عتبته فاستعتب أي أرجعته فارتجع. ومنه قوله تعالى: **﴿فإنْ يصبروا فالنارُ مثوًى لهمْ وإنْ يَستعتبوا فما هم بمعتبين﴾**. وفي الحديث ـ أما محسِناً فيزداد وأما مسيءاً فيستعتب. . ومنه قول الشاعر:

عَتبتُ عليــه فـمــا أعـتبــا   وعنــه اعتــذرْتُ وقــد أذنبــا

* * *

القسم الثالث والسبعون

الاعتــذار

وهو التوسل إلى محو الذنب وإزالة أثر الجرم مأخوذ من قـولهم اعتذرتِ المنازل إذا درَستْ. . ومنه قوله تعالى: **﴿يَعتذرونَ إليكم إذا رجعتم اليهمْ قلْ لا تعتذروا﴾**. الآية. وقوله تعـالى: **﴿وإذْ قالت أمّـةٌ منهم لِمَ تَعِظونَ قـوماً الله مُهلِكهمْ أو مُعذّبهم عذاباً شديداً قالوا مَعذرة إلى ربكم ولعلهم يَتقون﴾**. وقوله تعالى: **﴿تبرّأنا إليك مـا كانـوا إيّانـا يَعبدون﴾**.

* * *

القسم الرابع والسبعون

تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل

يُفعل ذلك لضرب من المبالغة. وفي القرآن العظيم منه كثير. . من بديع مـا جاء منـه قولـه تعالى: **﴿قـالوا يـا موسى إمّـا أنْ تُلقَى وإمّا أن نكـونَ نحن الملْقين﴾** قولهم ـ يا موسى إما أن تلقي ـ تخيير منهم له وحسن أدب راعوه معه كما يفعل أرباب الصناعات إذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال وإنما قالـوا ـ وإما أن نكـون نحن الملقين ـ ولم يقولوا وإما أن نلقيَ كما قالوا ـ يا موسى إما أن تلقي ـ لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوفهم إلى التقدم عليه وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل: . ومما يجري على هذا المنهاج قوله عز وجل: **﴿فأوْجسَ في نفسه خيفـةً موسى قلنا لا تخفْ إنك أنتَ الأعلى﴾** فتوكيد الضمير ها هنا في قولـه ـ لا تخف إنك أنت الأعلى ـ نفي الخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه الغلبة والقهر ولو قال

لا تخف إنك الأعلى أو ـ وأنت الأعلى ـ لم يكن في التأكيد لنفي الخوف من قلب موسى كما له من القوة في تقرير الغلبة ونفي الخوف بقوله ـ إنك أنت الأعلى ـ وذلك لأن في هذه الثلاث كلمات وهي قوله تعالى ـ إنك أنت الأعلى ـ ست فوائد. الأولى إنّ المشددة التي من شأنها التأكيد لما يأتي بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول إنّ زيداً قائم ففي قولك إن زيداً قائم من الاثبات لقيام زيد والتقرير له ما ليس في قولك زيد قائم. الثانية تكرير الضمير في قوله تعالى ـ إنك أنت ـ ولو قال فأنت الأعلى لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى والاثبات لقهره. الثالثة لام التعريف في قوله . الأعلى ـ فلو قال إنك أنت أعلى فنكره وكان صالحاً لكل واحد من جنسه كقولك رجلٌ فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال وإذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علماً فيهم. وكذلك قوله ـ إنك أنت الأعلى ـ أي أنت الأعلى دون غيرك. الرابعة لفظ أفعل الذي هو من شأنه التفضيل ولم يقل العالي. الخامسة إثبات الغلبة من عالٍ. السادسة الاستئناف في قوله ـ إنك أنت الأعلى ـ ولم يقل لأنك أنت الأعلى لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه لأنه عال وإنما نفى الخوف عنه أولاً بقوله ـ لا تخف ـ ثم استأنف الكلام بقوله ـ إنك أنت الأعلى ـ فكان ذلك أبلغ في تقرير الغلبة لموسى عليه الصلاة والسلام وإثبات ذلك في قلبه ونفسه. فهذه ست فوائد في هذه الكلمات الثلاث فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة التي تحيّر العقول وتذهب الألباب ومعجز هذا الكلام العزيز الذي أعجز البلغاء وأفحم الفصحاء ورجّل فرسان الكلام.

فإن قيل: لو كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه في كتابه حيث هو أحق بما هو أبلغ من الكلام وقد رأينا في الكتاب العزيز مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله تعالى: ﴿قلِ اللهمّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ من تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتعزّ مَن تشاءُ وتذلّ من تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنك على كلّ شيءٍ قدير﴾ فما الموجب لذلك إن كان تأكيد الضمير

المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الاقتصار على أحدهما دون الآخر فقد كان يجب عند ذكر الله تعالى نفسه لأنه أحق بالأبلغ من العلاء وإن كان الأمر بخلاف ذلك فكيف قلنا أن توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ.

الجواب عن ذلك أنا نقول توكيد المتصل بالمنفصل أنما يرد في الكلام التقرير المعنى وإثباته ي الذهن وما يختص بـالله تعالى لا يفتقـر إلى تقريـر ولا إثبات لأنه إذا قيل عنه إنه على كل شيء قدير لم يحتج في ذلك إلى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير بل علم وعرف أنه على كل شيء قدير وأن قدرته جارية على كل مخلوق فصار هذا من الأمر المعروف الذي لا يعتريه شك أولا يعترضه ريب وما هذا سبيله في الوضوح والبيان فلا حاجة فيه إلى التوكيد إذ كان التوكيد من شأنه التقرير للمعنى المراد إثباته في النفس وكون الله سبحانـه على كل شيء قدير ثابت في النفوس فلم يحتج إلى تقرير وإثبات.

فـإن قيل فقـد ورد في القرآن العـزيز عنـد ذكر الله تعـالى نفسه التـأكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصـل كقولـه تعالى: **﴿وإذ قـال الله يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذوني وأميَ إلهينِ من دونِ اللهِ﴾** إلى قولـه: **﴿إنكَ أنت علاّمُ الغيوبِ﴾** كما أنك على كل شيء قدير. فما السبب في هذا وهلا كان الجميع شرعاً واحداً.

فالجواب على ذلك أنا نقول توكيد الضميرين أحـدهما بـالآخر في هـذه الآية لا ينقض علينا ما أشرنا اليه أولاً لأنه إن وقع الاقتصار على أحدهمـا دون الآخر فإن القول في ذلك ما تقدم في الآية الأولى وإن جيء بهما معاً فإن ذلك أبلغ في بابه وآكد والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد. ولنمثل لك في استعمال الضميرين معاً والاقتصار على أحدهما دون الآخر مثالاً تتبعه فنقول إذا كان المعنى المقصود أمراً معلوماً قـد ثبت في النفس ورسخ في الألبـاب فأنت بالخيار بين أن توكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهمـا دون الآخر لأنـك إن وكدت الكـلام فيه أعـطيت المعنى حقه وإن لم

توكد فإنه لا يحتاج إلى تأكيد لبيانه وظهوره فإن كان المعنى المقصود خفياً ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى توكيد أحد الضميرين بالآخر لتقرره وتكسبه وضوحاً وبياناً. ألا ترى إلى قوله لموسى عليه السلام ـ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ـ فإنه كان ظهور موسى عليه السلام على السحرة وقهره لهم أمراً مستقراً في ضمن الغيب لا يعلم ولا يعرف وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك ليذهب عنه الخوف والحذر بالأبلغ من الكلام ليكون ذلك أثبت في نفس موسى وأقوى دليلاً عنده في انتفاء الخوف عنه فوكد الضمير المتصل بالمنفصل فجاء المعنى كما ترى ولو لم يؤكد كان ذلك أيضاً إخباراً لموسى عليه الصلاة والسلام بنفي الخوف عنه واستظهاره على السحرة ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى عليه الصلاة والسلام ما لقوله إنك أنت الأعلى فاعرف.

وَعلى نحو من ذلك قوله تعالى: ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين**﴾ فإن إرادة الإلقاء قبل موسى لم يكن معلوماً عنده لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقالة خطابهم لموسى إلى ما هو توكيد ما هو لهم بالضميرين علم أنهم يريدون التقدم عليه والالقاء قبله لأن من شأن مقابلة خطابهم لموسى عليه الصلاة والسلام بمثله أن يقولوا أما أن تلقي وأما أن نلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم ـ وإما أن نكون نحن الملقين ـ استدل بذلك على إرادتهم الالقاء قبله فهذه معان لطيفة ورموز غامضة لا ينتبه لها إلّا الفطن اللبيب فاعرفها.

* * *

القسم الخامس والسبعون

الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية المؤكدة بإنّ المشددة وتفضيل إحداهما على الأخرى

وذلك كقولنا قام زيد وإن زيداً قائم فقولنا قام زيد معناه الاخبار عن زيد بالقيام وقولنا إن زيداً قائم إخبار عن زيد بالقيام أيضاً إلّا أن في الثانية زيادة ليست في الأولى وهي توكيده بأن المشددة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها من الكلام. . ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلوْا إلى شياطينهمْ قالوا إنا معكم إنما نحن مُستهزؤن﴾ فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإن المشددة فقالوا في خطاب المؤمنين ـ آمنا ـ ولإخوانهم ـ إنا معكم ـ لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبُعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وكان ذلك مُتقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم وما قالوه للمؤمنين فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خزياً ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عندهم إلّا رواجاً ظاهراً لا باطناً ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قويٌّ على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به أخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين بخلاف ما قالوه في خطاب أخوانهم وصرّحوا في كلامهم لأخوانهم أن ما خاطبوا به المؤمنين إنما هو هزء فقالوا: ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾. . وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لا توجد في نوع من الكلام العربي إلّا في القرآن الكريم وما أكثر ذلك وأمثاله في آياته وأوفره مودعاً في غضونه فاعرفه وقس عليه ترشد.

القسم السادس والسبعون

في لام التأكيد

اعلم وفقنا الله وإياك أن علماء علم البيان وعلماء العربية اتفقوا على أن هذه اللام تدخل في الكلام لنوع من المبالغة وذلك أنهم إذا عبروا عن أمر يعز وجوده أو يعظم أمر إحداثه ووقعه جيء بها محققة لذلك وشاهدة. . فمن ذلك قوله تعالى: **﴿أفرأيتم ما تحرُثون أأنتم تزرعونَهُ أم نحن الزارعون لو نشاءُ لجعلناهُ حطاماً﴾**. وقوله تعالى: **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاءُ جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾** ألا ترى كيف دخلت اللام في آية المطعوم دون آية المشروب وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماءِ العذب ملحاً ليس بعظيم ولأن كثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة احالتها إلى الملوحة والمرارة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق وأما المطعوم فإن جعله صعب فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده. وكونه هكذا يفعل بكل كلام فيه نوع خصوصية.

القسم السابع والسبعون

في الاقتصاد والافراط والتفريط

قال ابن الأثير رحمه الله الاقتصاد أن يكون المعنى المضمن في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته. . وأما التفريط والافراط فهو أن يكون المعنى المضمن في العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه إمّا لانحطاطه دونها وهو التفريط وإمّا تجاوزاً عنها وهو الافراط لأن أصل التفريط في وضع اللغة من فرط في الأمر إذا قصر فيه وضيعه وأصل الافراط في وضع اللغة من أفرط في الأمر إذا تجاوز عنه. . والتفريط عيب في الكلام فاحش كقول الأعشى:

وما مزبدٌ من خَليجِ الفرا ... تِ جَوْنٍ غواربُهُ تلتطِمْ

بـأجـوَدَ منـه بمـاعُـونـهِ إذا مـا سمـاؤهُم لـم تَـغِـمْ

فإنه قد مدح ملكاً يجود بماعونه ـ والماعون ـ هو كل ما يستعمل من قدوم أو فاس أو قصيعة أو قدر وما أشبه ذلك فلا سبيل إلى جعله مدحاً البتة بل هو إلى الذم أقرب منه إلى المدح فهذا من أقبح التفريط فاعرفه، وأما الافراط فهو بمنزلة ما روي عن النبي ﷺ وذلك أن رجلاً جاءه فكلمه فقال ما شاء الله وشئتَ فقال له رسول الله ﷺ أجعلتني لله ندًّا قل ما شاء الله وحده. . ومن هذا البـاب قول عنترة:

وأنـا المنيّـةُ في المـواطنِ كلِّهـا والـطعنُ مني سـابقُ الآجـالِ

فإن الطعن لا يسبق الأجل لأن الأجل لا يتقـدم ولا يتأخـر ويروى بـالياء باثنتين من تحتها وهو أقرب أمراً من كونه بالباء الموحدة غير أن كليهما إفراط. . واعلم أن علماء علم البيان في استعمال الافراط على ثلاثة أضرب. فمنهم من يكرهه ولا يراه صوابـاً كأبي عثمـان الجاحظ فيمـا روي عنه ومنهم من يختـاره ويؤثره كقدامة بن جعفر الكاتب فإنه كان يقول الغلوّ عندي أجود المذهبين فإن أحسن الشعـر أكذبـه. ومنهم من يذهب إلى التـوسط بين الغلوّ والتفريط وهـو الاقتصاد وذلك أن يجعل الغلوّ وهو الافراط مثلاً ثم يستثني فيه بأو أو يكاد أو ما جرى هذا المجرى فيدرك مراده ويسلم من عيب عائب أو طعن طاعن وذلك كقول بعضهم في مدح الحسين:

يكـادُ يمسكـه عِـرفـانَ راحتـه رُكنُ الحـطيمِ إذا ما جـاءَ يستلمُ

. . وكقول أبي عبادة البحتري:

ولـوَ انّ مُشتـاقـاً تكلّفَ فـوقَ مـا في وُسعـهِ لسعى اليـكَ المِنبَـرُ

وهـذا المذهب المتـوسط أليق المـذاهب الثـلاثـة وأدخلهـا في الصنعـة فاعرفه.

قال المصنف عفا الله عنـه أما الاقتصـاد والافـراط فقد ورد في الكتـاب العزيز منه شيء كثير وقد تقدم بيانه، وأما التفريط فليس في القرآن منه شيء.

القسم الثامن والسبعون

الغــزَل

وهو من محاسن النظم والغزل التصابي والاشتهار بمودة النساء ولهذا قال بعضهم:

أيام تدعـونني الشيطانَ من غـزَل ⁂ وكن يهـوينني إذ كنتُ شيطانـاً

واشتقاقه من الـرقة لأن المتغـزل يرقق ألفـاظه حتى يستميـل بها القلوب ويعدها للرسائل والـوسائـل بين المحب والمحبوب. وينبغي أن تكـون ألفاظـه مُستعذبة ومعانيه مُلهية مُطربة. وينبغي أن يكثر فيـه من ذكر الأجـرع والحمى. ولعلع. والنقي. وطويلع. وقبا. والعقيق. وحاجر. والمنحني وما أشبه ذلك من الألفاظ مثل ذكر المنازل التي تترشف ذكرها القلوب وتصبو اليها النفوس من غير أن تراها وكذلك يُكثر فيه من ذكر الحنين والتشويق والتحزين. وقد يحتـاج في بعض المواضع إلى ذكر الكرم والشجاعة والفصاحة والبراعة ليميل بذلك قلب المحبوب ويكون مدعاة إلى نيل المطلوب ألا ترى إلى قول بعض الشعراء:

يَــوَدُّ بـأن يُمسي عليـلاً لعلهـا ⁂ إذا سمعت منه بِشكـوى تـراسِله

ويهتـزُّ للمعروفِ في طلبِ العُلى ⁂ لتحْمَـدَ يومـاً عند سلمى شمـائله

. . ومثل قول المتنبي:

أيقنتُ أن سعيـداً آخــذٌ بـدمي ⁂ لمـا بصرتُ بـه بـالـرمـح مُعتقـلا

أراد أنها إذا رأته على هذه الصورة المليحة هويته فنالها من هواه كما نال المتنبي من هواها فكأنه أخذ بثأره. . ومنه قوله في هذه القصيدة أيضاً:

عـلَّ الأميـرَ يـرى ذلّي فيشفـعَ لي ⁂ إلى التي جِعلتني في الهوى مَثار

يشير إلى أنها إذا أحبت الأميرَ علمتْ مقدارَ المحبة وعزرت من يحبها كما قيل:

إنما يَرحم المحبّ المجبو ... نَ ويحنو على المشوقِ المشوقُ

والقرآن العظيم من جملة إعجازه كثرة الشجا وترقيقه للقلوب واستمالته للنفوس بحيث أنه لا يسمعه أحد إلاّ ومال اليه قلبه وامتلأت به جوانحه وانطوت على مثل جمر الغضا ضلوعه وجرت على صفحات خده دموعه وفيه من وصف الجنة ونعيمها ومنازل الزلفى وطيب رسومها ما يشوق القلوب إلى لقائها ويسوق النفوس إلى الحلول بفنائها مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الجنةِ التي وُعدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طعمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى ولهم فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من ربّهمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إنّ المتقين في جنّاتٍ ونهرٍ في مَقعَدِ صدْقٍ عندَ مَليكٍ مقتدِرٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون نُزلاً من غفورٍ رَحيم﴾. وقوله تعالى: ﴿إنّ الأبرارَ يشربون من كأسٍ كانَ مِزاجُها كافوراً﴾ إلى آخر السورة. وقوله تعالى: ﴿ولمن خافَ مقامَ ربهِ جنّتان ذَواتَا أفنانٍ﴾ إلى آخر السورة. وفي القرآن العظيم من هذا النوع كثير.

القسم التاسع والسبعون
في التشبيب

وهو اللفظ الدال على محاسن النساء ومحاسن أخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن ويدخل فيه الشوق والتذكر لمعاهد الأحبة وتغيرها بالرياح الهابّة والبروق اللامعة وأمثالها.. ومن محاسن التشبيب قول بعضهم:

لَوْ جادَهنَّ غداةَ رُمنَ رَواحا ... غيثٌ كدَمعي ما أرَدْنَ بَراحا
ماتتْ بفَقْدِ الظاعنينَ ديارُهمْ ... فكأنهمْ كانوا لها أرواحا
النائياتُ النافذاتُ نواظراً ... والنافذين أسِنّةً وسلاحا
وأرى العيونَ ولا كأعْينِ عامرٍ ... قدَراً مع القدَرِ المتاحِ مُتاحا
مُتوارثي مَرَضِ العيونِ وإنما ... مرَضُ العيونِ بأنْ يكنَّ صِحاحا

لا عيبَ فيهمْ غيرَ شُحّ نِسائهم ... ومن السماحةِ أنْ يكنّ شحاحا
طرَقتْهُ في أترابها فجلتْ له ... وَهْناً من الغُرَرِ الصِّباحِ صَباحا
ويَسمْنَ عن بَرَدٍ تألّفَ نظمُهُ ... فرأيتُ ضوْءَ البرْقِ ثمَّتَ لاحا
أبرَزْنَ من تلكَ العيون أسِنّةً ... وهزَزْنَ من تلك القدودِ رِماحا
يا حَبّذا ذاك السلاحُ وحبّذَا ... وقتٌ يكونُ الحسنُ فيهِ سلاحا

والأشعار في مثل هذا كثيرة. وفي القرآن العظيم من وصف النساء كثير مثل قوله تبارك وتعالى: **﴿عسى ربُّهُ إنْ طلّقكنّ أن يُبْدِلهُ أزْواجاً خيراً منكنّ مُسلماتٍ مؤمنات قانِتات تائبات عابداتٍ سائحاتٍ ثيّباتٍ وأبكاراً﴾**. وقوله تعالى: **﴿حورٌ مَقصورات في الخيام﴾**. وقوله تعالى: **﴿قاصراتُ الطَّرْفِ﴾** الآية. وفي القرآن العظيم كثير.

* * *

القسم الموفى ثمانين
الاستدراج

قال ابن الأثير وهو التوصل إلى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به. وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يؤنق السامع ويطربه لأن بناء صناعة التأليف عليه ومنشأها. . ومن هذا الباب قوله تعالى: **﴿واذكر في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صدّيقاً نبيّاً إذْ قال لأبيهِ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدْ﴾** إلى قوله: **﴿فتكونَ للشيطانِ وَليًّا﴾** هذا الكلام يهز أعطاف السامعين ويبهج نفوس المتأملين فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة إمعانَ النظر في مطلوبه وتردادَ الفكر في أثنائه واتخاذه قدوة لكَ ونهجاً تعتقبه ألا ترَى حين أراد إبراهيم أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل كيف رتب الكلام معه في أحسن سياق وانتظام مع استعمال المجاملة

واللطف واللين والأدب الجميل والخلق الحسن مستصحباً في ذلك نصيحته وذلك أنه طلب منه أولاً نقله عن خطيئته طلب منبه على تماديه موقظ له من إفراطه وقلة تناهيه لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقدراً على الثواب والعقاب إلا أنه بعض الخلق لا يُشَك في نقص عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ولو كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقاً به ومتلطفاً فلم يتهم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكن قال إن معي لطائف وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتّبعني أنجّك من أن تضل فتنبه ثم ثلّث بتنشيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدوّك وعدوّ أبيك آدم هو الذي ورَّطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضلالة إلا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لإمعانه في الخلاص لم يذكر من جناية الشيطان إلا الذي يختص منها بالله عز وجل وهي عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وبنيه ثم ربع ذلك بتخويفه سوء العاقبة وما ينتج عليه من الوبال ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب حيث لم يصرح بالعقاب اللاحق بأبيه ولكنه قال **﴿إني أخافُ أن يمسّك عذابٌ من الرحمن﴾** فذكر الخوف والمس إعظاماً لهما وترك العقاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه أكثر من العذاب وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ـ يا أبت ـ توسلاً إليه واستعطافاً فقال له في الجواب **﴿أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنكَ واهجرني مَليًّا﴾** ألا ترى كيف أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ولم يقابل قول ـ يا أبت ـ بيا بني وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: **﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾** لأنه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والانكار لرغبة إبراهيم عن آلهته إن آلهته لا ينبغي أن يرغب أحد عنها. ومن هذا الباب قوله تعالى: **﴿وقال رجلٌ مُؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيناتِ من ربكم﴾** إلى قوله: **﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ**

كـذاب﴾ ألا ترى مـا أحسن مأخـذ هذا الكـلام والـطف مغـزاهُ فـإنـه أخـذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقـال لا يخلو هذا الـرجـل من أن يكون كـاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتخـطاه وإن كان صـادقاً فيصيبكم بعض الـذي بعدكم إنْ تعرضتم له. وفي هـذا الكلام من حسن الأدب والانصـاف ما أذكـره لك أيهـا المتأمل وأقول إنما قال يصبكم بعض الذي يعدكم وقد علم أنه نبي صادق وإن كل ما يعدهم به لا بد من أن يصيبهم لا بعضه ولأنه احتاج مع أدلة خصم موسى أن يسلك معهم طريق الانصاف والملاطفة في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه فقال وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقـابلة خصمه غير المشتط فيه وذلك حين وصفه الله بكونه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يقر به لكنه أردفه بقوله: ﴿يصبكم بعض الـذي يعدكم﴾ ليهضمـه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً من أن يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل وكذا قوله: ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذابٌ﴾ أي لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة ولا عضده بالبينات فتبين أيُّها المتأمل لهذه الدقائق اللطيفة الصنع تدل على التيقظ في صناعة التأليف.

* * *

القسم الحادي والثمانون

خذلان المخاطب

وهوالأمـر بعكس المراد ويدل ذلك على الاستهانة بـالمأمـور وقلة المبالاة بأمره أي أنا مقابلك على فعلك ومجازيك بحسبه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسانَ ضرٌّ دعا ربَّهُ منيباً لاإليـه ثم إذا خوَّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنّكَ من أصحاب النار﴾. فقوله ـ قل تمتع بكفرك ـ من باب الخذلان كأنه قال له إذ قد أبيت ما

أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن لا تؤمر به بعد ذلك ونأمرك بتركه. وهذا مبالغة في خذلانه لأن المبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على ضدّ ما أمر به. . ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قل الله أعبدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ فإن المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان على ما سبق ذكره. وفي هذا الكلام معنيان لطيفان. الأول أي أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره إنما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم فالله تعالى مستغن عن عبادتكم له. الثاني توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير تصريح بالوعيد وذلك أبلغ من الاصراح به لوقوع الموعود في حيرة من أمره وترامي وهمه عند ذلك إلى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة كقولك لمن عصاك افعل ما شئت أي أني مقابلك عليه. وهذا نوع من علم البيان شريف.

* * *

القسم الثاني والثمانون

التعليق والادماج

وهو أن يدمج مدحاً بمدح أو هجواً بهجو أو معنًى بمعنى كما قال المتنبي:

إلى كم تَردُّ الرُّسْلَ عما أتوا به ... كأنهم فيما وَهبتَ مَلاَمُ

أدمج رد الرسل برد اللوم وكلاهما مدح. . وقوله أيضاً:

حسَنٌ في وجوهِ أعدائهِ ... أقبحُ من ضيفهِ رأته السَّوَامُ

أدمج الحسن مع القبح وكلاهما مدح وصفه بالكرم لأن إبله إذا رأت ضيفه علمت أنه ينحرها له وقد سمى العسكري هذا النوع في كتاب الصناعتين له المضاعف وأنشد فيه:

وأسرعتُ نحوَكَ لما دعوْ ... ت كأني نوالك في سُرعتهْ

.. ومثله في وجيه الدولة:

وبـاتَ أسعـدَنـا حـظًّا بصـاحبـهِ   من كان في الحبِّ أشقانا بصاحبِهِ

وقاعدة هذا الباب أن يكون أحد المعنيين تلويحاً والآخر تصـريحاً. وفي القرآن العظيم من هذا النوع كثير.

القسم الثالث والثمانون

الاستخـــدام

وهو أن تكون الكلمة لها معنيانُ فيحتاج اليهما فيذكرها وحدها فيستخدم المعنيين كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لا تقرَبوا الصلاة وأنتم سُكارى**﴾ والصلاة ها هنا يحتمل أن تكون فعل الصلاة أو موضع الصـلاة فاستخـدم الصلاة بلفظ واحد لأنه قال سبحانه: ﴿**إلا عابري سبيلٍ**﴾ فدل على أنه أراد موضع الصلاة. وقـال تعالى: ﴿**حتى تعلمـوا ما تقـولون**﴾ فـدل على أنه أراد فعـل الصلاة.. وأنشدوا للبحتري:

فسقي الغضا والساكنيهِ وإن همُ   شبُّـوهُ بين جــوانـحٍ وقلوبِ

ـ الغضا ـ يحتمل أن يكون الموضع ويحتمل أن يكون الشجر فـاستخدم المعنيين به ـ والساكنيه ـ أراد المكان والشجر بقوله ـ وإن هم شبوه ـ ومن ذلك لبعض العرب:

إذا نــزلَ السمـاءُ بـأرْضِ قـوْمٍ   رَعينــاهُ وإنْ كــانــوا غِـضــابــا

ـ والسماء ـ يحتمل معنيين المطر والنبات فاستخدم المعنيين بقـوله ـ إذا نزل ـ يعني المطر ـ رعيناه ـ يعني النبات.. وكما قال الشيخ أبو العلاء:

وفقيــهٍ أفكــارُهُ شِــدْنَ للنعـ   ـمانِ ما لم يَشِـدْهُ شعرُ زيـادِ

يحتمل معنيين أحدهمـا أن يكون النعمـان بن المنذر الملك والآخـر أن يكون النعمان بن ثابت الفقيه فاستخدم المعنيين بلفظ واحد فقال ـ شدن للنعمان

ـ يعني أبا حنيفة رضي الله عنه وقال ـ شعر زياد ـ يعني النعمان بن المنذر لأن زياداً هو النابغة مدح النعمان. . وكما قال أبو تمام:

وإذا مشت تركتْ بصدْرِكَ ضعفَ ما   بحُليّها من شدَّةِ الوَسواسِ

لأن ـ الوسواس ـ يحتمل معنيين وهو بلابل الصدر وصوت الحليّ فاستخدم المعنيين بقوله ـ تركت بصدرك ـ يعني البلابل وبقوله ـ ضعف ما بحليها ـ يعني صوت الحلي. . ومنه:

اسمُ مَن مَلّني ومَن صدَّ عني   وجفاني لغير ذنبٍ وجُرْمِ
والذي ضنَّ بالوِصالِ علينا   مثلَ ما ضنَّ بالهوَى قلبُ نُعْمِ

هذا استخدام في الاعراب لأن قلب مرفوع بالخبر وفاعل ضن وهو أيضاً استخدام في المعنى لأنها بمعنى قلب من المقلوب لأن الاسم ـ معن ـ فهو معكوس ـ نعم ـ فاعرفه. ومنه في الكتاب العزيز كثير. من ذلك قوله تعالى: ﴿وكانَ وراءهمْ مَلِكٌ يأخذ كل سفينةٍ غَصباً﴾ يحتمل أن يكون أراد ـ وراءهم ـ أي في طلبهم ويحتمل أن يكون أراد أمامهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والمطلّقاتُ يَتَرَبّصنَ بأنفسِهنّ ثلاثةَ قرُوءٍ﴾ ـ والقرء ـ الحيض والقرء أيضاً الطهر واللفظ يحتمل المعنيين فاعرفه.

* * *

القسم الرابع والثمانون

التفقير

وهو أن يأتي في البيت ذكرُ نكتة أو بيت أو رسالة أو خطبة أو غير ذلك فيومىء إليها الشاعر أو الناثر مثل قوله تعالى: ﴿فيهنَّ قاصراتُ الطرْفِ﴾ فإن امرأ القيس أومأ إليه بقوله:

من القاصراتِ الطرْفِ لوْ دَبَّ مُحوِلٌ   من الذرِّ فوقَ الأنفِ منها لأثرا

.. ومنه قول الآخر:

ألـومُ زيــاداً في رَكــاكــةِ رأيــهِ وفي قـولـهِ أيّ الـرّجـالِ المهــذّبُ

وهـل يُحسِنُ التهذيبُ منـكَ خلائقـاً أرَقّ من الماءِ الزّلالِ وأطيبُ

* * *

الفن الثاني

ما يتعلق بالألفاظ من الفصاحة كما أن ما يتعلق بالمعاني من البلاغة ولهذا قيل معنى بليغ ولفظ فصيح يقال أفصح الأعجمي وفصح اللحان. وهذا الفن يسمى أيضاً البديع. والبديع علم يبحث فيه عن أحوال اللفظ المؤلف من حيث لا يمكن أن يؤتى به إلا بحسن النتظام وهو ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول

التهذيب

وهو تخليص الألفاظ من ثقل العجمية وهجنة الحوشية وفظاظة النبطية وأن يترك الكلام عذب المساق حسن الاتساق قريباً من فهم السامع عذب المساغ في اللهوات والمسامع يدخل الأذن بغير إذن ويتصور معناه في العقل بدقيق التدبر ولطيف التفكر. والقرآن العظيم كله من أوله إلى آخره على هذه المثابة غير ما فيه من المتشابه فإنه يحتاج إلى الامعان في التذكر وترديد التدبر وذلك أيضاً على غاية ما يكون من الحسن فكل في بابه قد استوفى بديع نصابه قد بسقت أشجاره وعذبت ثماره واتسقت ألفاظه واستحكمت معانيه وحسن رونقه وعظمت حلاوته وطلاوته لا تمله الأسماع مع كثرة ترداده ولا تنفر منه الطباع مع إبراقه وإرعاده بل هو الذي أحكمت آياته وفصلت وكملت معانيه في ألفاظه وحُصلت وأحكمت أحكامه وأصلت فهو كما قال الله تعالى: ﴿كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلتْ﴾ قد سلم من حوشي الألفاظ ورذلها وتخلص من فظاظة العجمة وثقلها وكل كلمة منه حلت محلها وقرنت بمثلها فهو كما قال البحتري:

وإذا دجتْ أقلامُهُ ثم انتحَتْ ... برقت مصابيحُ الدُّجى في كتبه

فاللفظُ يقربُ فهمهُ في بعده ... منّا ويبعدُ نيله في قربه

حِكم سحائبُها خِلالَ بَنانه ... هطالةٌ وقليبها في قلبه

كالروضِ مؤتلقاً بحمرةِ نَوْره وبياضِ زهرته وخضرةِ عشبه
وكأنها والسمعُ معقودٌ بها شخصُ الحبيب بدا لعين محبه

وهذه الأبياتُ من أحسن ما قيل في التهذيب وأبلغ ما نظم في التنقيح والترتيب ويتعين على كل ناظم وناثر أن لا يملي قصيدة أو رسالة أو خطبة حتى يتلمحها بعين بصيرته. ويقدح لها زناد فكرته وقريحته ويهذب ألفاظها ويحقق معانيها ويحسن مساغها ويؤسس مبانيها كما قيل:

لا تعرضنَّ على الرواةِ قصيدةً ما لم تبالغْ قبلُ في تهذيبها
فإذا عرضتَ الشعرَ غيرَ مهذبٍ عدُّوه مثلَ وَساوسٍ تَهْذي بها

* * *

القسم الثاني

الانسجام

وهو أن يأتي الكلام سهل المساق عذب المذاق حسن الاتساق منحدِراً في الأسماع كتحدر الماء المنسجم حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون موقعاً في النفوس وعذوبة في القلوب ما ليس لغيره مع بُعدهِ من التصنع وأكثر ما يقع غير مقصود كمثل الكلام الموزون الذي تأتي به الفُصاحة في ضمن النثر عفواً كانصاف أبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز وفي السنة. وقد وقع من ذلك كثير في الخطب والرسائل ومن[1] أن يكون بيتاً أو نصف بيت. وقد وقع في غير القرآن بيتان فصاعداً وليس بشعر وإن لم يقصد. . فأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك إلاّ مثلُ البيت الواحد أو النصف والبيت المفرد لا يسمى شعراً

(١) كذا في الأصل

وأيضاً فإن الشعر إنما سُمي شعراً لكونهم شعروا به أي فطنوا. وهذا إنما جاء عفواً في درج الكلام. . فمما ورد من ذلك في القرآن العزيز قوله تعالى: ﴿وجِفان كالجوابي وقدور راسياتٍ﴾ فوافق هذا في درج الكلام قول امرىء القيس:

امرؤ القيسِ رهينٌ مُولعٌ بالفتيات
مُكرمُ الضيفِ بلحمٍ وشحومِ البكَرَات
في جفانٍ كالجوابي وقدورٍ راسيات

. . وقد قال بعض أهل العلم بالعروض إن الذي في القرآن من ذلك ليس بمتزن ولا موافق لبحر بيت امرىء القيس وهو صحيح. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إنْ يَنتهوا يغفَرْ لهم ما قد سَلَف﴾. وقوله عز وجل: ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيم﴾. وقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفِقوا مما تحبون﴾ والتلاوة أيضاً لا تستقيم على الوزن إنما الوزن يكون على تحبوا دون النون كما قال بعض الشعراء:

لن تنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبوا

. . وقد جوّز الحذاق الماهرون بأوزان القريض العالمون بضروبه وأجزائه وتقطيعه هذه الأبيات فلم يجدوها موزونة بل مباينة لأوزان الشعر إما بزيادة أو نقصان ولولا خشية التطويل لبينت ذلك.

* * *

القسم الثالث

الاشتقـاق

ويسميه بعضهم الاقتضاب أيضاً وهو من بـاب التجنيس وإن عُدّ أصـلاً برأسه.

وهـو أن يجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة كقوله تعالى: ﴿**فأَقِمْ وَجهَكَ للدين القيّم**﴾.. وقول أبي تمام:

عممتَ الخلْقَ من نُعمـاكَ حـتى   غــدا الثقَــلاَنِ منهـا مُـثقَـلاَنِ

قال المصنف عفا الله عنه: هذا الباب أولى بأن يكون من أجناس التجنيس والآية التي استشهد بها هي من التجنيس المغاير والبيت الذي استشهـد به من التجنيس المماثل. وسنذكر أجناس التجنيس وأقسامه في فصل مفرد بعدُ إن شاء الله تعالى.. ومما يشبه هذا النوع وليس منه ويسمى المشابهة قوله تعالى: ﴿**إني لعملكم من القالين**﴾.. وقول البحتري:

وإذا مـا ريـاحُ جُـودِكَ هَبّتْ   صـار قـولُ العـداةِ فيهـا هَبـاء

ذكـره الزنجـاني في تكملته.. قـال ابن الأثيـر الاشتقـاق على قسمين. صغير. وكبير. فالصغير أن تأخذ أصـلاً من الأصول فتجمـع بيـن معانيـه وإن اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فإنك تأخذ معنى السلامة في تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم للديـغ أطلق عليه ذلـك تفاؤلاً بسـلامته. وعلى هـذا جاء غيـره من الأصول كقـولنا هشمتـك هاشم وحـاربـك محـارب وسالمك سالم وأصاب الأرض صيّبٌ لأن الصيب هو المطر الذي يشتد صـوته ووقعـه على الأرض. وأمثال ذلـك كثير.. ولهـذا الضرب من الكـلام رونق لا يخفى على العارف بهذه الصناعة.. فمما جاء منه قول بعضهم:

أمحَلّتيْ سَلمى بكاظمةَ اسلما

.. وكذلك قول الآخر وهو جرير بن عطية:

ومـا زالَ معقـولاً عِقـالٌ عن النـدا   ومـا زالَ محبوسـاً عن الخيرِ حـابِسُ

. . وقال غيره:

إنّ قومي لهمْ جِداذُ الجديدِ

وشُكي إلى بعض الخلفاء جور عامل له وسُئل أن يكتب إليه كتاباً فقال ما ترك فضة إلاّ فضها ولا ذهباً إلاّ أذهبه ولا غنيمة إلاّ غنمها ولا مالاً إلاّ مال عليه فـأي شيء بعدُ يكتب إليـه. وأمثال هـذا كثير فـاعرفهـا. . قال ابن الأثير وأما الاشتقاق الكبير فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنًى واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها وإن تباعد شيء من ذلـك رُدّ بلفظ الصيغة والتأويل اليها كما يفعل الاشتقاقيون. ولنضـرب لذلـك مثلاً فنقـول أن لفظه ق ر م من الثلاثي لها ستة تراكيب وهي قرم. قمر. رمق. رقم. مقر. مرق. فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة ـ والقرم ـ شدة شهوة اللحم ـ وقمر ـ الرجل إذا غلب من يقامره ـ والرقم ـ الداهية وهي الشـدة التي تلحق الانسان من أمره وعيش ـ مرمق ـ أي ضيق وذلك نوع من الشدة أيضـاً ـ والمقر ـ شبه الصبر يقال أمقر الشيء إذا أمرّ وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ـ ومرق ـ السهم إذا نفذ من الرمية وذلك لشدة مضائه وقوته. . اعلم أنه إذا سقط من تركيب الكلمة شيء فجائز ذلك في الاشتقاق لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تراكيب الكلمة بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرهـا أدّت إلى معنى واحد يجمعهـا. . فمثال مـا سقط من تركيب الثلاثي لفظة و س ق فإن لها خمسة تراكيب وهي و س ق. و ق س. س و ق. ق س و. ق و س. وسقط من جملة التركيب قسم واحد وهـو س ق و وجميع هذه الكلمة تـدل على القوة والشـدة ـ فالـوسق ـ من قولهم استـوسق الأمر أي اجتمع وقوي ـ والوقس ـ ابتداء الحرب وفي ذلك شدة على من يصيبه ـ والسوق ـ متابعة السير وفي هذا عناءٌ وشدة على السائق والمسوق ـ والقسوة ـ شدة القلب وغلظه ـ والقوس ـ معروف وفيه نوع من الشدة والقوة لسرعة السهم وإخراجه إلى ذلك الرمي المتباعد. . واعلم أنا لا ندعي أن هذا يطّرد في جميع اللغة بل قد

جاء شيء منها كذلك وهذا مما يدل على متانتها وحكمها لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب وهي مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من أعجب الأمور التي توجد في لغة العرب وأعذبها فاعرفه.

* * *

القسم الرابع
الجزالة والرذالة

أما الجزالة فقد تقدم الكلام عليها والقرآن العظيم من وجوه إعجازه جزالة ألفاظه وهو من أوله إلى آخره لابسٌ حُللَ الجزالة والفصاحة سالمٌ من الرذالة والفظاعة.. وأما الرذالة فهي في غير القرآن. فمنها في المنظوم والمنثور كثير.. أما المنظوم فمثل قول بعض العرب:

زيــاد بن عين عينه تحت حــاجبه ... وأسنــانه بيضٌ وقــد طرَّ شــاربــه

ومثله ما أنشد سيبويه في كتابه:

إذا مــا الـخبـزُ تـأدمــه بـلحم ... فـذاك أمــانــة الله الـثــريــدُ

.. ومثل قول أبي العتاهية:

مـاتَ الخليفَـةُ أيُّهـا الثقَـلان ... فكـأنني أفـطرتُ في رمضــان

وأما النثر فمثل قولهم ـ فلان لئيم الخيم كأنّ كفه ميم وكأن عقله جيم إن واصلته منع وإن أعطيته قطع ـ والقرآن العـظيم أجل وأعـظم من أن يكون فيـه شيء من ذلك أو يماثِله.

* * *

القسم الخامس

السهل الممتنع

وهو الذي يظن من سمعه لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه أنه قادر على الاتيان بمثله فإذا أراد الاتيان بمثله عزّ عليه مثاله وامتنع عن طالب معارضته فلا يناله والقرآن العظيم كله على هذا المنوال خلا ما فيه من المتشابه والحروف التي في أوائل السور فإذا فسرت كانت كذلك. ومنه في السنة كثير. من ذلك قوله ﷺ: «تنكح المرأة لجمالها ومالها وحسبها عليك بذات الدين تربت يداك». وقوله ﷺ: «إياكم وخضراء الدِّمنَ قالوا وما خضراءُ الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء». وقوله ﷺ: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وعودوا كل جسد ما اعتاد». وقوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ظهورها عز وبطونها كنز».

وأما في النثر والنظم فقليل. مثاله في النثر قول العماد الكاتب ـ ولو جعل الله حظه من الذهب كحظه من الأدب لاستجدى من سعته قارون واستعان بفصاحته هارون. . ومنه في الشعر مثل قول مروان بن أبي حفصة:

بَنو مَطرٍ يومَ اللقاءِ كأنهم ... أُسودٌ لها من غَيلِ خفانَ أشبُلُ

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنما ... لجارِهم بين السماكين منزل

همْ القوم إنْ قالوا أصابوا وإن دُعوا ... أجابوا وإنْ أعطوا أطابوا وأجزلوا

بها ليلُ في الاسلامِ سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهلية أول

ولا يستطيعُ الفاعلون فعالهم ... وإنْ أحسنوا في النائبات وأجملوا

ثلاثٌ بأمثال الجبال حُباهُمُ ... وأحلامهم منها لَدى الوزن أثقلُ

القسم السادس

الرشاقة والجهامة

فأما الرشاقة فقد ذكرناها آنفاً وفي القرآن العظيم منه كثير. . وأما الجهامة ليس في القرآن منها شيء فإن الجهامة لا تكون إلا عن غلظ طبع وشدة حصر ولٰكِن والقرآن العظيم منزه عن ذلك.

* * *

القسم السابع

الفك والسبك

أما الفك فهو أن يفصل المصراع الأول من المصراع الثاني أو الفقرة الأولى من الفقرة الثانية أو الجملة الأولى من الجملة الثانية ولا تتعلق الثانية بشيء من معنى الأولى مثل قول زهير:

حيٍّ الديارَ التي لم يعفها القدم   بلى وغيرها الأرواح والديم

. . ومن ذلك قول المتنبي:

جللاً كما بي فليكُ التبريح   أغِذاءُ الرَّشأ الاغن الشيح

. . وهذا النوع منه في القرآن كثير فإنه يأتي بجملة أثر جملة ليس لها تعلق بالتي قبلها والنحاةُ يسمون ذلك الجمل المعترضة. . وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره ولهذا قيل خير الكلام المسبوكُ المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض. والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه.

* * *

القسم الثامن

الحـل والعقـد

وهـو أن يأخـذ لفظاً منـظومـاً فينثـره أو منثـوراً فينـظمـه مـع الاتفـاق في المعنى. . . وهذا القسم يختص بالإنشاء معروف بالكتّاب البلغاء الفصحاء وهو من أجلّ ما يمتّون به وأعظم ما يترفعون بسببه. . وفي القرآن العـظيم من جنسه وهو ما ورد فيه من آية مجملة فسرتها آيـة أخرى أو مفسـرة أجملتها آيـة أخرى فأشبه ذلك الحل والعقد. . وأكثر ما يقع هـذا النوع في الشعـر والرسـائل فـإن الشعر معقود والنثـر يحلله والنثر محلول والشعـر يعقده وللمـاهرين في صنـاعة الانشاء من هذا كثير ليس هـذا موضع ذكره إذ ليس غرضنا في هذا الكتاب إلا إثبات ما وقع في الكتاب العزيز من فنون الفصاحة وعيون البلاغة وبدائع البديع أو ما يجري مجرى ذلك.

* * *

القسم التاسع

الازدواج

وهو أن يزاوج بين الكلمات أو الجمل بكلام عذب وألفاظ حلوة. . ومثاله من الكتاب العزيز قولـه تعالى: ﴿فمن اعتـدَى عليكم فاعتـدوا عليهِ بمثـلِ ما اعتدَى عليكم﴾. وقوله تعالى: ﴿وجزاءُ سيئة مثلُها﴾. وقوله تعالى: ﴿يخادِعونَ اللهَ والذين آمنوا ومـا يخادعـونَ إلا أنفسَهُمْ﴾. ومثله قولـه تعالى: ﴿وكـانَ اللهُ عليماً حكيماً﴾ وقد جاء في الكلام الفصيح وأشعار العرب وغيرها مؤتلفاً ومختلفاً ويكـون كلمـة وكلمتين. . ومنـه الحـديث: «إمـا محسنـاً فيـزداد وأمـا مسيئـاً فيستعتب». . ومنه قول الشاعر:

عـتبتُ عليـه فـمـا أعـتبـا   وعنـهُ اعتـذرْتُ وقـد أذنبـا

* * *

القسم العاشر

تضمين المزدوج

وهـو أن يقع في الفقـرات لفظان مسجعـان بعد مـراعاة حـدود الاسجاع والقوافي الأصلية كقوله تعالى: **﴿وتفقّدَ الطيرَ فقال ما ليَ لا أرى الهُدْهُدَ أمْ كانَ من الغائبين لأعذّبَنّهُ عذاباً شديداً أو لأذبَحَنّه أو لَيأتيَني بسلْطانٍ مبينٍ فمكث غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتُكَ من سَبإٍ بنبإٍ يقينٍ﴾** بعد مراعاة اللفظ في مقاطع الآي وهي - الغائبين ومبين -. . ومنه في الشعر والنثر كثير. فمن النثر قول بعض البلغاء فلان رفع دعامة الجِد والمجد بإحسـانه وبـرَّز بالجَـد والجد على أقرانه. . ومثاله من النظم قول الشاعر:

تعـوّدَ رسمَ الوَهبِ والنهْبِ في العُـلا وهــذانِ وقتَ اللطفِ والعُنْفِ دابُــهُ
ففي اللطفِ أرزاقُ العبــادِ هبــاتــهُ وفي العُنْفِ أعمــارُ العِـداة نهــابُــهُ

* * *

القسم الحادي عشر

التسجيع . والكلام عليه من وجوه

الأول في أقسامه. الثاني اختلاف العلماءِ في جواز استعماله وحـظره. . الثالث في شرطه وما ينبغي أن يكون فيه.

الأول: قد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة في التسجيع فقال قوم هو على ثلاثة أقسـام. المتوازي. والمتـطرف. والمستحسن. . أما المتـوازي فهو رعاية الكلمتين الأخيرتين في الوزن والرويّ. وذكر الرويّ في النثر تـوسعة في الـكـلام وإلاّ فـالـروي مـخـصـوص بـالـشـعـر. مـثـالـه من كتاب الله تعالى قوله عز وجل: **﴿فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضوعةٌ﴾**. . ومثاله من السنة النبوية قوله ﷺ: «اللهم اعط منفقاً خلفاً واعط ممسكاً تلفاً». . وأما المتطرف فهو أن تتفق الكلمتان الأخيرتان في الحرف الأخير دون الـوزن. مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى: **﴿ما لكم لا ترجـون لله وَقاراً وقـد خلقكم**

أطواراً﴾. . ومنه قول بعض البلغاء ـ جنابه محط الرحال ومَجثم الآمال ـ. . وأما المتوازن فمثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وآتيناهما الكتابَ المستبين وهدَيناهما الصراطَ المستقيم﴾. . وقال قوم هو على ثلاثة أقسام. قصير موجز. ومتوسط معجز. وطويل مفصح مبين للمعنى مبرز. . أما الأول وهو القصير فاعلم أن أقصر الفقرات القصار في السجع ما يكون من لفظين كقوله تعالى: ﴿والعادياتِ ضَبْحاً فالمورياتِ قدْحاً فالمغيراتِ صُبْحاً﴾. وقوله تعالى: ﴿والمرْسلاتِ عُرْفاً فالعاصفاتِ عَصْفاً﴾. وقوله تعالى: ﴿يا أيها المدَّثر قم فأنذرْ وربَّكَ فكبِّرْ وثيابَكَ فطهِّرْ﴾. . وأطول الفقرات القصار ما يكون من عشر لفظات وما بين هذين متوسط كقوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوَى ما ضلَّ صاحبُكم وما غَوَى وما يَنطِقُ عن الهوَى إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى﴾. وقوله تعالى: ﴿اقترَبتِ الساعةُ وانشقَّ القمر وإن يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سِحرٌ مستمر وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهم وكلُّ أمرٍ مُستقرٌّ﴾. . وأقصر الطوال ما يكون من أحد عشرَ لفظة وأطولها غير مضبوط وكلما طالت الفِقرُ زاد بيانها وأفصاحها. وقد وقع في الفقر المطوّلة ما هو من عشرين لفظة فما حولها مثل قوله تعالى: ﴿إذ يُريكهمُ اللهُ في منامِك قليلاً ولو أراكهمُ كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلَّمَ إنه عليمٌ بذات الصدورِ وإذْ يُريكموهُم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويُقلِّلكم في أعينهم ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً وإلى اللهِ ترجَعُ الأمورُ﴾. . ومثاله فيمُا دون ذلك قوله تعالى: ﴿ولئن أذَقنا الانسانَ منَّا رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليؤسٌ كفورٌ ولئن أذَقناهُ نَعماءَ بعد ضرّاءَ مسَّتْه ليقولَنّ ذهبَ السيئاتُ عني إنه لفرِحٌ فخورٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿لقد جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم عزيز عليه ما عَنتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤفٌ رحيم فإن تولَوْا فقلْ حَسبيَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العرْشِ العظيم﴾. . والفقرات المسجوعة إما أن تكون متساوية أوْ لا. . أما المتساوية ففي الأكثر إنما توجد في الفقرات القصار كما في قوله تعالى: ﴿فأما اليتيمَ فلا تَقهَر وأما السائلَ فلا تَنهَر﴾. .وأما المختلفة فاختلافها إما أن يكون في فقرتين أو أكثر. . أما المختلفة في فقرتين فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى ولا تزيد بقدر كثير كقوله تعالى: ﴿واعتدنا لمن كذَّبَ بالساعة سَعيراً إذا

رأتهم من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. وإذا ألقوا منها مكاناً مُقرنين دعوْا هنالك ثبوراً﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذَ الرحمنُ وَلداً لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السموات يَتفطرنَ منه وتنشقّ الأرضُ وتخر الجبال هدًّا﴾.. وأما المختلِفُ في أكثر من فقرتين فأحسنه أن تكون الفقرة الثالثة زائدة والأوليتان متساويتان أو الثانية منه أزيد يسيراً.. وأقل السجع حسناً ما يكون المتأخر من الفقرات أقل مما قبلها.

أما الثاني: فقد اختلف أرباب علم البيان فيه. فمنهم من قال باستحسان السجع وفضله على الاسترسال في الكلام ورجحه.. ومنهم من كره السجع واقبحه واحتج على ذلك بأمرين. أحدهما اشتماله على الكلفة. والثاني قوله عليه الصلاة والسلام - أسجعاً كسجع الجاهلية - وكلا الحجتين فاسدٌ.. أما الأولى فلأنه لم يخل شيءٌ من الكلام من تكلف ما.. وأما الثانية فلأن الانكار إنما كان لسجع مخصوص وهو ما قصد به إبطال حق أو تحقيق باطل ولو كان السجع قبيحاً لاستحال وروده في القرآن.. والتسجيع وعدمه أسلوبان جرت عليهما ألسنة فصحاء العرب وخطبائهم يأتون بذلك بغير تكلف ولا تعسف.. وورد في القرآن العظيم آياتٌ كثيرة خالية من السجع وآيات كثيرة مشحونة بالسجع حتى أن بعض السور شملها السجع من أولها إلى آخرها مثل اقتربت الساعة وسورة الضحى والكوثر فاعرفه.

الثالث: قال علماء علم البيان الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الاعجاز موقوفاً عليها لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ولا يتم ذلك إلّا بالوقف ألا ترى أنك لو وصلت قوله ما من عزّة إلا وإلى جنبها عزّة وقولهم ما أبعد ما فاتَ وما أقرب ما هو آت لم يكن بُدٌّ من إجراء كل الفقرات على ما يقتضيه حكم الاعراب فتكون قد عطلت عمل الساجع وقوة عزمه.. وإذا رأيتهم يخرجون الكلم عن أوضاعها من الازدواج فيقولون أتيتك بالغدايا والعشايا. وهناني الطعام ومراني. وأخذه ما حدث وما قدم. وانصرفن مأزورات

غير مأجورات. وقال عليه الصلاة والسلام انفق بلالْ ولا تخش من ذي العرش إقلال مع أن فيه ارتكاب ما يخالف اللغة فما ظنك بهم في ذلك.

* * *

القسم الثاني عشر

الترصيـع

وهو أن تكون ألفاظ الكلام مستوية الأوزان متفقة الاعجاز مثـل قولـه عز وجل: ﴿**إنّ الأبرارَ لفي نعيم وإنّ الفجارَ لفي جَحيم**﴾. وقوله تعالى: ﴿**إنّ إلينا إيابَهمْ ثم إن علينا حسابهم**﴾. وقوله تعالى: ﴿**فأثرنَ به نقعاً فوسطنَ به جمعاً**﴾ وهو في كتاب الله كثير. ومنه في النثر كثير منه قول الحريري وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.. وهو في الشعر كثير منه قول أبي فراس:

وأفعـالـهُ للرّاغِبينَ كـريمـةٌ ... وأمـوالُـهُ لـلطالبينَ نِـهـابُ

.. وقول آخر:

ثمـانيـةٌ لم تفتـرقْ مُـذ جمعتهـا ... فـلا افترقتْ مـا ذَبَّ عن ناظـر شُفـرُ

يَقينـكَ والتقـوى وجـودُكَ والغنى ... ولفـظُكَ والمعنى وحـربُـكَ والنصـرُ

.. ومنه قول أبي الورد:

يـروح إليهم عـازبُ الحمـدِ وافيـاً ... ويغـدو إليهم طـالبُ الـرفـدِ عـافيـا

.. وقد يجيء مع التجنيس كقـولهم إذا قلت الأنصار كلّتِ الأبصـارُ وما وراء الخلق الدّميم إلا الخُلُق الذميم.. وقول المطرزي:

وزنـدُ نـدا فـواضـله وَرِيٌّ ... ورنـدُ ربـا فضـائله نضيـرُ

ودرّ جَـلالـه أبـداً ثـميـنٌ ... وَدَرُّنـوا لـه أبـداً غـزيـرُ

* * *

القسم الثالث عشر

التسميط

وهو على قسمين:

الأول: أن يكون في صدر الكلام أو الرسالة أو البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ثم يجمعها قافية مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضي أو رسالة حتى تنتهي فتصير كالسمط الذي احتوى على جواهر متشاكلة. ومنه قوله تعالى: **﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ وإذا النجومُ انكدرتْ﴾** إلى قوله: **﴿علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ﴾** وقوله تعالى: **﴿فلا أقسمُ بالخنسِ الجوارِ الكُنَّسِ والليلِ إذا عسعَس والصبح إذا تنفس﴾**. وقوله تعالى: **﴿إذا السماء انفطرت﴾** إلى قوله: **﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾** وقوله تعالى: **﴿إذا السماءُ انشقّتْ وأذِنتْ لربها وحقّتْ﴾**. وقوله تعالى: **﴿الرّحمنُ عَلم القرآن خَلقَ الإنسان علمه البيان والشمس والقمر بحسبانٍ والنجمُ والشجرُ يسجدانِ﴾**. ومثله في القرآن كثير. ومنه قول امرىء القيس:

ومتسلم كشفتُ بالرمح ذيلهُ ... أقمتُ بعَضْبٍ ذي شقاشقُ ميله
فجعتُ به في مُتلقى الحربِ خيلُه ... تركتُ عِتاقَ الطير يحجُلنَ حولَهُ

كأنّ على سربالهِ نضحَ جِرْيالِ.

. . وكقول الآخر:

حلوٌ شمائلهُ تندى أنامله ... أن جاء سائله أغناه نائله

حتى يروحَ له ما شاء من مالِ

القسم الثاني: أن يصير كل بيت أربعة أقسام كقول جَنوب الهُذَلية:

وجُرْدٍ وَرَدْتَ وثغرٍ سدَدْتَ ... وعِلجٍ شدَدتَ عليه الحبالا
ومال حويتَ وخيلٍ حميتَ ... وضيفٍ قرَيتَ يخافُ الوَكالا

. . وقد أبدع الحريري في التوشيح بقصيدته التي أولها:

خـلِّ ادّكـارَ الأربُـعِ والمعهدِ المرْتبعِ والظاعنِ المودّعِ

وعدّ عنه ودَع

واندُبْ زماناً سلفاً سوّدْتَ فيهِ الصحفا

ولم يزَلْ مُعتكفـا على القبيحِ الشنِعِ

. . ومن بديع التسميط أيضاً قوله في قصيدته التي يقول فيها:

وإنْ لاحَ لـك النقش مـن الأصفـر تهـتـش وإنْ مـرّ بـكَ النـعش

تغاممتَ ولا غـمّ

ستذْرِي الدمّ لا الدّمع إذا عـايَنتَ لا جمع يقي في عـرصة الجمـع

ولا حال ولا عمّ

جعل قصيدته كلها على هذا المنوال.

القسم الرابع عشر

التجـزي

وهو أن يكون الكلام مجزأ ثلاثة أجزاء أو أربعة أجزاء. مثال الثلاثة أجزاء من الكتاب العزيز قوله تعالى: **﴿إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر إنّ شانئك هو الأبتر﴾** . . ومثال الأربعة قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعظ أباه بقوله: **﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتّبعني أهدكَ صراطاً سويًّا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمنِ عَصيًّا يا أبت إني أخـافُ أن يمسّك عـذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا﴾** وفي القرآن منه كثير. . ومنه قول ابن المعتز في الثلاثة:

عجباً لمنصلك المقلد كيف لم تسل الدماءُ عليكَ منه سُيولا
لـك حسنـه متقلداً وبهـاؤه متنكبـاً ومضـاؤه مسـلولا

.. ومثال الأربعة الأجزاء قول المتنبي:

فنحن في جذَلٍ والرومُ في وَجلٍ والبحرُ في خجلٍ والبرّ في شُغلِ

.. ومنه قول ابن المقرّي:

إذا صلَدُوا أوْرَى وإن عجّلوا ارتـأى وإن بخلوا أعـطى وإن غـدَرُوا وَفّى
فللجود مـا أبقى وللمجـد ما ابتنى وللنـاسِ مـا أبـدَى ولله مـا أخفى

* * *

القسم الخامس عشر
في التوشيح

التوشيه أن تكون ذيول الأبيات ذات قافيتين على بحرين أو ضربين من بحر واحد فعلى أي القافيتين وقفت كان شعراً مستقيماً كقوله:

اسلم ودُمتَ على الحوا دث ما رسا ركناً ثبير أو هِضـاب حـراءِ
ونَلِ المراد منهـا ممكنـاً على رغـم الـدهـور وفـز بـطـول بقـاء

قافيتهما على ثاني قافية من ثاني الكامل وعلى الأول من سادسه.. وأما ما هو من بحر واحد وقد يسمى هذا النوع المتلوّن وذكره الزنجاني وأنشد فيه:

أبنيّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير ولا الفقير البائس

وقال إن قيدته كان من سابع الكامل وإن أطلقته كان من سادسه. وهـذا النوع في القرآن العظيم ما يشبهـه وهو مـا ورد في الآيات من الـوقف الكافي والتمام إن وقفت على الوقف الكافي كان حسناً وإن وقفت على التمام كان أجود كقوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزلَ من قبلك وبالآخرة هم

يوقنون﴾ إن وقفت على ـ من قبلك ـ كان وقفاً حسناً وإن وقفت على ـ يوقنون ـ كان أحسن وهو تمام وكذلك كل ما أشبهه.

* * *

القسم السادس عشر

براعة المطلب وحسن التوسل

وهو أن تكون ألفاظ المطلب مهذبة مقترنة بتعظيم الممدوح كقوله تعالى: ﴿فتلقّى آدمُ من ربهِ كلماتٍ فتابَ عليه إنه هو التوّابُ الرحيمُ﴾. وكقوله تعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إنّ ابني من أهلي وإنّ وَعدَكَ الحقُّ وأنتَ أحكم الحاكمين﴾. وقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ربَّنا إني أسكنت﴾ إلى قوله: ﴿لعلهم يشكرون﴾. وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك﴾ إلى قوله: ﴿وألحقني بالصالحين﴾. وقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام: ﴿قالَ ابنَ أمَّ إنّ القومَ استضعفوني﴾ إلى قوله ﴿الظالمين﴾. وقوله تعالى حكاية عن يونس عليه الصلاة والسلام: ﴿فنادَى في الظلمات أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين﴾ وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذوني وأميَ إلهينِ من دونِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿فإنكَ أنتَ العزيزُ الحكيم﴾. وقوله تعالى فيما حكاه رسوله عليه الصلاة والسلام عن عباده المؤمنين ﴿إنّ في خلْقِ السمواتِ والأرضِ﴾ إلى قوله: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. وجاء من هذا النوع في الشعر كثير. منه قول المتنبي:

وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فطانةٌ سُكوتي بَيانٌ عندها وخطابُ

* * *

القسم السابع عشر

المخالـفـة

إعلم أن المخالفة هو الخروج عن مذهب الشعراء وترك الاقتداء بآثارهم مثل قول نصيب:

طـرَقَتْكَ صـائدة القلوبِ وليس ذا　　　وقتَ الـزيـارةِ فـارجعي بسـلام

وليس من المعهود رد المحبوب على عقبه إذا زار. .ومثل قول ابن عتيق:

جُعلَ الندُّ والألوَّةُ والمسـ　　　ـكُ أصيلاً لها على الكافور

. . ومعلوم أن الزنـج على نتن رائحتهم لـو تطيبـوا ببعض هذا الـطيب لطابت رائحتهم وإنما الحسن الجيد قول امرىء القيس:

ألم تـرَ أني كلمـا جئتُ نحـوَهـا　　　وجَـدْتُ بها طِيبـاً وإن لم تَـطيَّبِ

. . ومن ذلك قول امرىء القيس:

أغــرَّكِ مـني أنّ حُبّـكِ قـاتلي　　　وأنكِ مهما تـأمُري القلبَ يَفعـلِ

وهـذا مخـالف للمعتـاد لأن فيـه تـوعـداً للمحبـوب والمحب لا يتـوعـد محبوبه. . وكذلك قوله:

وإنْ تـكُ قد سـاءَتكِ مني خليقـةٌ　　　فسُلّي ثيـابي من ثيـابـكِ تَنسلي

. . والقرآن العظيم كله مخالف لأساليب الشعر وقوانين النظم والنثر التي يستعملها الناظمون والناثرون. ولهذا قال الغفاري لقد عرضته على إقراء الشعر فلم يلتئم فإنه ليس بالشعر.

* * *

القسم الثامن عشر

لزوم ما لا يلزم

ويسمى التضييق والتشديد والاعنات وهو التزام أن يكون ما قبل القافية حرفاً معيناً كما في قوله تعالى: ﴿إقرَأْ باسم ربِّكَ الذي خَلق خَلقَ الإنسانَ من علقٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿والطور وكتابٍ مسطورٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فذكر فما أنتَ بنعمة ربك بكاهن ولا مجنونٍ أم يقولون شاعرٌ نتَربصُ به ريبَ المنونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿في سِدْرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ﴾ وهو في القرآن كثير. . وجاءَ في الحماسة:

إنّ الـتي زَعـمـتْ فـؤادَكَ مَـلّهـا	خُلقت هَـواك كما خُلقتَ هـوى الها
بيضـاءُ بـاكـرهـا النعيمُ فَصـاغها	بِـلبـاقـةٍ فـأدقـهـا وأجـلّهـا
حَجَبَتْ تحيتـهـا فقلتُ لصـاحبي	مـا كـانَ أكـثـرهـا لنـا وأقـلّهـا
وإذا وَجَـدتُ لـهـا وَسـاوسَ سلوة	شفـعَ الضميـرُ إلى الفؤادِ فسـلّهـا

. . وكذلك قول كثير عَزّة في أبيات له:

خليليَّ هـذا رَسمُ عَـزَّةَ فـاعْقِـلا	قلوصَيكمـا ثـم انـزلا حيثُ حَلت
فكـانـت لقـطعِ الحبل بيني وبينَها	كـنـاذرةٍ نَـذراً فـأوفـتْ وحَـلّتِ

. . وقول المعري:

لا تـطْلُبـنّ بـغيـر جَـدٌ حـاجـة	قـلم البـليـغ بغيـر جـدٌ مِغـزَلُ
سَكـنَ الشِمـا كان السمـاءَ كـلاهـا	هـذا لـه رُمـحٌ وهـذا أعـزلُ

. . وفي هذا القرآن العظيم من هذا النوع كثير. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وجاءَت سكرةُ الموتِ بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يومُ الوعيد﴾ لزم الياء والدال في أكثر هذه السورة. وقوله تعالى: ﴿هلْ أتى على الإنسانِ حينٌ من الدّهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً﴾. إلى قوله: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ التزم قافية توافق قافية. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أم أنا خيرٌ من هذا

الـذي هو مَهين ولا يكـادُ يبين فلولا ألقى عليه أسـاورَةٌ من ذهب أو جـاءَ معـه الملائكة مُقرَّنين﴾ والقرآن مشحون بهذا. . وهذا النوع أتى في القرآن عفواً من غير قصد وربما وقع في أقوال فصحاء العرب من غير قصد والمتأخرون يقصدون ذلك ويتكلفون في استعماله:

ليس التكحـل في العينيـن كالكَحَـل

القسم التاسع عشر
التفويـف

والمفوف عند أرباب هذه الصناعة فيه قولان. الأول أن تكون ألفاظه سهلة المخارج عليها رونق الفصـاحة وبهجـة الطلاوة وعـذوبة الحـلاوة مع الخلو من البشاعة ملطفة عند الطلب والسؤال مفخمة عند الفخار والنزال. . وإن كان شعراً فليكن شعـره سهل العـروض وقوافيـه عذبـة المخارج سهلة الحـروف ومعانيـه مـواجهة للغـرض المطلوب ظـاهرة منـه حيث لا تحتاج إلى إعمـال الفكـر في استنباط معانيه فإذا كان كذلك سمي مفوَّفاً بما تنوع من ألفاظه ومعانيه فأشبه البُرْدَ المفوَّف الذي فيه ألوان مختلفة وألوان متقابلة. . وأصل التفويف بياض يكـون على الأظفار. الثاني المفوف من الكلام والشعر هو الذي يكون فيـه التزامـات لا تلزم تكتب باصباغ مختلفة حتى يفطن للالتزامات التي جعلت عليه وعلى كلا القولين فالقرآن العزيـز كله كذلـك فإن كـان التفويف بـأصباغ مختلفـة الألوان فتفويف القرآن العظيم مقاطع آياته وفواتحها وتحزيبه وتعشيره وأرباعه وأخماسه وأسباعه فإن العلماءَ رضي الله عنهم رخصوا بأن يكون ذلك بالحمرة أو الخضرة أو الصفرة أو بألوان مخالفة للون الحبر والمداد حتى يعلم أنها ليست من نفس القرآن فاستحبوا ذلك فإذا صار على هذه الصفة أشبـه البرد المفـوف بل أجـل وأحسن وأبهى وألطـفُ وإن كان التفويف القول الأول فالقرآن العظيم كله كذلك أيضاً فاعرف ذلك.

* * *

القسم الموفي عشرين

التطـريـز

قال علماء البيان التطريز هو أن تأتي قبل القافية بسجعات متناسبـة فيبقى في الأبيات أواخر الكلام كالطراز في الثوب. . ومنه قول الشاعر:

أمسي وأصبحُ من هُجرانكم دنَفـاً ... يَـرْثي ليَ المُشفقـانِ الأهـلُ والـولـدُ
قـدْ خددَّ الـدّمعُ خـدّي من تذكـركم ... وهـدّني المضنيـانِ الشـوقُ والكمـدُ
كـأنمـا مُهجتي شلْـوٌ بمـسبعـة ... ينتـابهـا الضـاريـانِ الـذئبُ والأسـدُ
لم يبقَ غيرُ خفي الروحِ من جسدي ... فـداً لـك الفـانيـان الـروحُ والجسـدُ
إني لأحسـدُ في العشـاقِ مُصـطبـراً ... وحَسبـكَ القـاتِـلانِ الحبّ والحسـدُ

قال المصنف عفى الله عنه: هذا النوع استخـرجه المتـأخرون وليس في شعر القدماء شيء منه ولا في كلامهم وقد استقريته من الكتاب العزيـز وأشعار المولدين فوجدته على ثلاثة أقسام. الأول ما له عَلَمـان علم من أوله وعلم من آخره. الثاني ما له علم من أوله. الثالث مـا له علم من آخـره. فأمـا الذي لـه عَلَمان فكقولـه تعالى: **﴿ومن آيـاته أنْ خلقَ لكم من أنفسكم أزواجـاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم موَدّةً ورحمةً إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خَلقُ السمواتِ والأرض واختلافُ ألسنتكم وألـوانكم إنّ في ذلك لآيـات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليلِ والنهارِ وابتغـاؤكم من فضله إن في ذلك لآيـات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزلُ من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**. . . ومنـه في الشعر قـول بعضهم من أبيات:

والمسعـدانِ عليها الصبـر والجلدُ ... أفناهما الخاذلانِ الوجد والكمدُ
والعـاذلان عليهـا ردَّ عـذلهمـا ... في حُبها العاذرانِ الحسنُ والجَيَدُ
والبـاقيـانِ هـواهـا والغـرامُ بهـا ... فداهما الـذاهبان الـروحُ والجسدُ

. . ومنـه قولـه تعالى: **﴿أمَّنْ خلقَ السمـوات والأرض وأنـزل لكم من**

السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل همْ قومٌ يعدلون أمّنْ جعل الأرضَ قراراً وجعلَ خِلالها أنهاراً وجَعلَ لها رَواسِيَ وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمَّنْ يجِيب المضْطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السوءَ ويجعلكم خلفاء الأرضِ أإلهٌ مع الله قليلاً ما تَذَكرونَ أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسلُ الرياحَ نُشراً بين يديْ رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمَّنْ يَبدأ الخلق ثم يعيدُهُ ومن يرْزقكم منَ السماءِ والأرضِ أإلهٌ مع الله قلْ هاتوا بُرهانكم إنْ كنتم صادقين﴾. وأما الذي طرازه من أوله. فمنه في القرآن كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلهَ إلاّ هوَ عالم الغيبِ والشهادة هو الرّحمنُ الرّحيمُ هُوَ الله الذي لا إله إلاّ هو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحان الله عما يشركونَ هو اللهُ الخالقُ البارىءُ المصوّر لهُ الأسماءُ الحسنى يسبّحُ له ما في السموات والأرض وهوَ العزيزُ الحكيم﴾. . وهذا النوع قد ورد فيه من أشعار المتقدمين والمتأخرين فمن ذلك قول البحتري:

تعلوْا الوفودَ ثلاثةٌ في أرضه	إفضالُهُ وجدَاهُ والأنعامُ
وثلاثة تغشاك مهما زرْته	إرفادُهُ والمنُّ والإكرامُ
وثلاثة قد جانبت أخلاقهُ	قولُ البَذا والزورُ والآثام
وثلاثة في الغرّ مِن أفعاله	تدبيره والنقض والابرامُ

. . وأما الذي علمه من آخره ففي القرآن منه كثير. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿خلق الانسان من صَلصال كالفخارِ وخلقَ الجانَّ من مارجٍ منْ نار فبأي آلاءِ ربِّكما تكذبان رب المشرقينِ وَرَب المغربين فبأي آلاء ربِّكما تكذبانِ﴾ إلى آخر السورة. ومنه قوله تعالى: ﴿فكيفَ كانَ عَذابي ونذرِ إنا أرسلنا عليهمْ ريحاً صَرْصراً﴾ إلى آخر السورة. . ومن ذلك في المرسلات قوله تعالى: ﴿وَيلٌ يَوْمئذٍ لِلمكذِّبينَ﴾ إلى آخر السورة.

* * *

القسم الحادي والعشرون
ما يقرأ من الجهتين

مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿كل في فلك يسبحونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وربّكَ فكبِّر﴾ وأرباب علم البيان يسمون هذا النوع العكس والتقليب وهو عندهم على أربعة أنواع. الأول قلب البعض وهو أن تقلب حروف الكلمة وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ استرْ عوراتنا وآمن روعاتنا». ومنه قول الحريري:

لجَوْبُ البلاد مع المتَربه أحبّ إليّ من المرتبهْ

الثاني مقلوب الكل كقولهم ـ كفهُ بحر وجنابه رحب. الثالث المجنّحُ وهو أن يقع مقلوب الكل في جناح البيت أو جناحي المصراع كقوله:

لاحَ أنوار الذي من كفه في كلّ حال

.. الرابع المسوى وهو أن يقرأ طرداً وعكساً من الجهتين. ومنه الكلمتان في الآيتين المتقدمتين. ومنه قول الحريري:

أسْ أرملا إذا عرا وارع إذا المرءُ أسا

الأبيات.. ومنه قول الآخر:

أراهنّ نادمنه ليل لهو وهل ليلهن مدان نهارا

.. ومن أنواع هذا الباب ما إذا انعكست الكلمات يخرج منها كلام صحيح كالرسالة المشتملة على مائتي كلمة للحريري في المقامةالقهقرية التي أولها الانسان صنيعة الاحسان إلى أن ختم بقوله الأحرار عند الأسرار.. ومن هذا النوع أيضاً ما تقلب فيه الألفاظ بطريق العكس لتفيد معنى آخر كقولهم كلام الملوك ملوك الكلام وعادات الأشراف أشراف العادات.

* * *

القسم الثاني والعشرون

رد العجز على الصدر. ويسمى التصدير

وهو أيضاً من ضروب البيان وفنون التلعب باللسان. ومنه قوله تعالى: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾.. ومنه قولهم القتل أنفى للقتل.. ومنه قول بعض البلغاء الحيلة ترك الحيلة.. ومنه قول الشاعر:

تسيرُ النجومُ الدائراتُ بحكمهِ   وذاك إذا عُدَّتْ عُلاهُ يَسيرُ

.. وقول الآخر:

لقد حاز أنواعَ الفضائلِ كلها   وأمسى وَحيداً في فنونِ الفضائل

.. وقول الآخر:

سألتُ صُروفَ الدّهرِ حظّ مُملّكٍ   فشَحَّتْ وجادَتْ لي بحظّ أديب

فصل

ومن هذا الضرب التجنيس وهو عند أكثر علماء علم البيان على قسمين. تجنيس حقيقي. ومشبه بالتجنيس.. أما التجنيس الحقيقي فهو أن تأتي بكلمتين كل واحدة منهما موافقة للأخرى في الحروف مغايرة لها في المعنى ولم يرد ذلك في الكتاب العزيز إلّا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسمُ المجرِمون ما لبثوا غير ساعةٍ﴾.. وأما المشبه بالتجنيس فكثير وقد احتوى الكتاب العزيز منها على اللباب وأتى منها بالعجب العجاب وهو على ضروب: :

الأول: التجنيس المماثل وهو أن يكون من اسمين أو فعلين مثل قوله تعالى: ﴿يا أسفي على يوسف وابيضّتْ عيناهُ من الحزن فهو كظيم﴾. وقوله تعالى: ﴿الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثونَ للخبيثات والطيباتُ للطيبين والطيبون للطيبات﴾. وقوله تعالى: ﴿ولو جعلناهُ ملَكاً لجعلناه رَجلاً وللبسنا عليهم ما يَلبِسونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ما هذا إلّا بَشرٌ مثلكم يأكلُ مما تأكلون منه ويشرَبُ مما تشرَبون﴾.

الثاني: التجنيس المغاير وهو يكون من اسم وفعل. ومنه قوله تعالى: ﴿**وأسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين**﴾. وقوله تعال: ﴿**أزِفتِ الآزفةُ**﴾. وقوله تعالى: ﴿**فطاف عليها طائفٌ من ربكَ**﴾ وفي القرآن منه كثير.. وقد جمع بعض الشعراء في أبيات نذكرها في آخر هذا الفصل فيه أجناس من التجنيس.

الثالث: تجنيس التصحيف وهو أن يكون اللفظ فرقاً بين الكلمتين. ومنه قوله تعالى: ﴿**وهم يحسبون أنهم يُحسنونَ صُنعاً**﴾. ومنه قول الشاعر:

القابِضون على العليا بكفّهمُ ... والقابضون من الدنيا بأطرافِ
المحسبون إذا جَدَّ الفَخارُ بهم ... والمحسنون إذا سيلوا بالحافِ

الرابع: تجنيس التحريف وهو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين.. ومنه قوله تعالى: ﴿**وهم يَنهوْنَ عنه ويَنأوْنَ عنه**﴾. وقوله تعالى: ﴿**فلا أقسمُ بالخنَّسِ الجوار الكنسِ**﴾.

الخامس: تجنيس التشكيل وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين. ومنه قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا فيهم منذِرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ألم يكُ نطفةً من منيّ يُمنى ثم كان عَلقةً فخلَقَ فسوَّى**﴾.. ومنه قول بعضهم:

أأنتمْ زعمتمْ أني غيرُ عاشق ... وأني لا أعبا ببين مُفَارقي
فلمْ قرَحت يومَ الوَداع مَدامعي . ... ولمْ شاب من هولِ الفراق مَفارقي

وهذه أبيات جمعت فيها أجناس من التجنيس التي تقدم ذكرها وهي:

رُبَّ خَوْذٍ عرِفتُ في عَرَفاتِ ... سَلَبتني بحسنها حَسناتي
ورَمتْ بالجمارِ حبَّةَ قلبي ... أيُّ قلب يَقوَى على الجمراتِ
وأفاضتْ مع الحجيج ففاضتْ ... من دموعي سوابقُ العَبراتِ
حرَّمتْ حين أحرمت نومَ عيني ... واستباحتْ حِمايَ باللحظاتِ
لم أنل في مِنى مني النفْس لكنْ ... خِفتُ بالخيفِ أن تكون وفاتي

فقوله ـ عَرفت في عرفات ـ تجنيس مغاير وقوله ـ سلبتني بحسنها حسناتي ـ مما ثل وكذلك ـ وأفاضت ففاضت ـ وكذلك ـ حرّمت وأحرمت ـ وكذلك ـ بالجمار والجمرات ـ وقوله ـ ولم أنل في منى منى النفس ـ تجنيس التشكيل وقوله ـ خفت بالخيف ـ تجنيس مغاير.

السادس: تجنيس العكس وهو أن تكون حروف الكلمتين غير مرتبة. مثاله من القرآن قوله تعالى: **﴿إني أخاف أن تقول فرقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾** وقد جاء في الشعر أن يقدّم حرفاً في كلمة ويؤخره في أخرى.. ومنه قول حسان في مدح النبي ﷺ:

تحملهُ النـاقـةُ الأدمـاءُ مُعتـجـراً   بـالبُرْدِ كـالبـدْرِ غَشّى نـورُهُ الظُّلَما

السابع: تجنيس التركيب وهو أن يجمع بين اسمين أو اسم وفعل ثم يجعلهما كالكلمة الواحدة مثال الاسم مع الاسم ـ بعل بك. ومعدي كرب ـ ومثال الفعل مع الاسم حضر موت. ورام هُرمز. وقد جاء في القرآن العظيم: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ إرَمَ ذات العماد﴾**. .وفي الشعر كثير. من ذلك قول بعضهم:

إنّ أسيـافنـا الغضـابَ الـدّوامي   جعلتْ مُلكنـا مـديـدَ الـدّوام
بـاقتسامِ الأمـوالِ من وقتِ سـام   واقتحـام الأهـوالِ من وقت حـاء

.. ومنه:

بـأبي غـزالٌ نـام عن وَصبي بـهِ   وسُجومِ دمعي في الهوى وصبيبهِ

.. ومنه قول المتنبي:

وشـادنٍ قـلتُ لـه   هـلْ لـك في المنـادَمـهْ
فـقـال كـم مـن عـاشقٍ   سَـفـكـتُ بـالـمـنـى دَمهْ

ومنه في الشعر كثير.

الثامن: تجنيس التصريف وهو أن تنفرد إحدى الكلمتين عن الأخرى بحرف مثل قوله تعالى: **﴿ذلكم بما كنتم.تفرحون في الأرض بغير الحق وبما**

كنتم تمرحون﴾. ومثل قوله تعالى: ﴿وهم ينهوْن عنه وينأون عنه﴾. ومثل قوله :﴿لنكونن أهدى من إحدى الأمم﴾. ومنه قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير».. ومنه قول الأعشى:

ورأيتُ أنّ الشيبَ خا ... نتهُ البشاشةُ والبشاره

التاسع: تجنيس الترجيع وهو أن ترجع الكلمة بذاتها كما قال الله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا رُسلَنا بالبينات﴾. ومنه قوله عز وجل: ﴿إنّ ربَّهمْ بهم يومئذٍ لخبيرٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿ولكنّا كنّا مرسلين﴾.. ومنه قول الشاعر:

ومــا مُنعـتْ دار ولا عــزَّ أهلُهــا ... من النــاسِ إلا بـالقنـا والقنـابِـلِ

..وقال المخبل:

فـأتتْ عليـهِ ومـالـهُ من مـالـهِ ... مـمـا أفـاءَ ولا أفـادَ عنـاقُ

..وقال آخر:

عـذيـري من دهـرٍ مُـوارٍ مُـوارِبِ ... لـه حسـنـاتٌ كـلهـنّ ذُنـوبُ

..ولأبي تمام:

يَمــدُّونَ من أيـدٍ عَـواصٍ عواصـمٍ ... تصـولُ بـأسيـافٍ قـواضٍ قـواضبِ

* * *

القسم الثالث والعشرون

التسهيـل

وهو أن يكون في القافية ما يدل على الكلام أو في أول الكلام ما يدل على القافية كقول أبي حية:

إذا مـا تقـاضى المـرءُ يـومٌ وليلةٌ ... تقـاضـاه دهـرٌ لا يملّ التقـاضيـا

..ومثله:

فليس الــذي حلّلْتَـهُ بمحلّلٍ ... وليس الـذي حرَّمتَـهُ بمحـرَّمِ

. . ومثلـه:

هي الـدّرُّ منثـوراً إذا مـا تكلّمتْ وكـالـدّرّ منـظومـاً إذا لم تكلّم

* * *

القسم الرابع والعشرون

الاتفاق والاطراد

وهو أن يوفق شيئاً لا يتفق عاجلاً مثل قول أبي تمام في الغزل

لِسَلمى سُلامانٍ وعمرَة عـامـرٍ وهنـد بني هندٍ وسعـد بني سعـدِ

. . وقوله أيضاً يصف حصاناً:

بحـوافـرٍ حُفـرٍ وصُلبٍ صُلّبٍ ومشـاعـرٍ شُعـرٍ وخَلقٍ أخلقِ

. . ومن ذلك أيضاً:

حَمدان حَمـدونٍ وحمدانُ حارثٍ ولقمـانُ لقمان ولقمـان راشـد

وهذه كلها تعسفات ليس في القرآن العظيم منها شيء:

فصـــل

وقد كان ينبغي أن يكون مقدمـاً في أول الكتاب ذكر ما اشتق منه القرآن والسورة والآية والكلمة والحرف وبيان معانيها. . أما القرآن فاشتقاقه فيه قولان. أحدهما التتبع والجمع من قولهم قرأت الماء في الحوض إذا تتبعته وجمعته فيه فهو جامع لما في كتب الأولين المنزّلة على سائر النبيين. والثاني أنه مشتق من الاظهار والبيان لأنه أظهر سائر العلوم المحتاج اليها في أمر الدين والدنيا وجمع بينها وكلاهما حسن والأول أظهر وقد يأتي القرآن بمعنى الصلاة في مثـل قولـه تعالى: ﴿وقرآنَ الفجر﴾ أي وصلاة الفجر وبمعنى القراءة. . وفي مرثية عثمان رضي الله عنه:

ضحَّـوْا بـأشمطَ عنـوانُ السّجـودِ بـه   يُقَــطِّعُ الليــلَ تـسبيحـاً وقــرآنــا

. . وأما السورة ففيها أربعة أقوال. الأول أنها سميت بذلك لعظمها وع وّ شأنها من قولهم فلان سورة من المجد. الثاني سميت بذلك لكرمها وتمامها. من قولهم لفـلان سورة من الأهل أي أقوام كرام. الثالث أنها قطعة مـن القرآن واشتقاقها من السؤر الـذي يفضل من الشـارب وعلى هذا يكـون أصلها الهمـز وإنما ترك لانضمام ما قبله فأبدلوا منه واواً.. الرابع سميت سورة لأن قارئها ينتقل من منزلة في الأجر إلى منزلة أعلا منها. . قال الشاعر:

ألـم تــر أنّ اللهَ أعــطاكَ سُــورةً   تـرى كـلّ مَلْكٍ دونهـا يتـذَبـذَبُ
كـأنـك شمسٌ والملوكُ كــواكبٌ   إذا طلَعتْ لم يبــدُ منهنّ كـوكبُ

ومعناه أعطاك منزلة فوق منازل الملوك وهو قول حسن. . وأما الآية ففيها أربعة أقوال. الأول أنها اشتقت من العلامة والآية علامة لانقطاع الكلام الـذي قبلها. الثاني أنها سميت بذلك لأنها كلمات مجتمعة من القرآن من قولهم خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم. الثالث الآية الرسالة والقصد. . قال الشاعر:

ألا أبـلغـا هــذا الـمــعــرْض آيــةً   أيقـظان قـال القـولَ إذ قـال أمْ حلمُ

معناه بلغاه رسالة والآية رسالة من الله إلى نبيه وخلقه. الرابع إنما سميت بذلك لأنهـا عجب لأنها تشبـه كلام البشـر ولا يقدرون على الإتيـان بمثلها من قولهم فلان آية من الآيات أي عجب وهو قول حسن. .

وأما الكلمة فهي اللفظة الدالة على المعنى المفرد أو على معنيين أحدهما حقيقة والآخر مجاز وهي في كتاب الله تعالى تطلق ويراد بها معان سبعة. أحدها كلمة التوحيد وهي لا إله إلّا الله. الثاني تطلق ويراد بها الشرك قال الله تعالى: ﴿**وجعل كلمة الذين كفروا السفلى**﴾ يعني الشرك ﴿**وكلمة الله هي العليا**﴾ يعني كلمة الاخلاص والتوحيد. ومنه قوله تعـالى: ﴿**وجعلها كلمة باقيـة في عقبه**﴾ قال مجاهد والسدّي هي قول لا إله إلا الله. الثالث تطلق ويراد بها الوعد. ومنه قوله تعـالى: ﴿**ولولا كلمـة سبقتْ من ربكَ**﴾ يعني وعـدهم الساعـة. قال الله

تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ .الرابع تطلق ويراد بها دعاء الله الخلق اليه. ومنه قوله تعالى: ﴿إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلاّ اللّه﴾ الآية. الخامس تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام. ومنه قوله تعالى: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه﴾ سماه كلمة لأنه أوجده بالكلمة وهي قوله: ﴿كن﴾. السادس تطلق ويراد بها القصة والقصيدة والعرب يقولون كلمة امرىء القيس يريدون قصيدته ويقولون خبرنا كلمة فلان يريدون قصته. وفي الحديث: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» يعني النساء كأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان﴾. السابع تطلق ويراد بها الكلمة الواحدة المفردة التي جمعها كلمات. والكلمات في كتاب الله تعالى تأتي على ستة معان. الأول تطلق ويراد بها علم الله سبحانه وتعالى. ومنه قوله تعالى: ﴿لنفدَ البحر قبلَ أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدَداً﴾. الثاني يراد بها مواعيده سبحانه وتعالى. ومنه قوله تعالى: ﴿لا تبديلَ لكلمات الله﴾ أي لا خُلف لما وعد. الثالث تطلق ويراد بها الخصال ومنه قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربُّه بكلمات فأتمهنّ﴾ أي بعشر خصال من الطهارة معروفة. الرابع تطلق ويراد بها الاعتراف وطلب المغفرة. ومنه قوله تعالى: ﴿فتلقّى آدمُ من ربه كلمات﴾ وهي قوله تعالى: ﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفِرْ لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾. الخامس تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام قاله الهروي في قوله تعالى: ﴿وصدَّقتْ بكلماتِ ربها﴾. السادس تطلق ويراد بها القرآن. ومنه الحديث: «أعوذ بكلمات الله التامات» يعني القرآن قاله الهروي أيضاً وغيره. . وأما الحرف فله في كتاب الله تعالى ولسان العرب محامل. أحدها اللغة يقال هذا حرف بني فلان أي لغتهم. الثاني يطلق ويراد به معنًى من المعاني. ومنه الحديث ـ نزل القرآن على سبعة أحرف ـ أي على سبعة معان. الثالث يطلق ويراد به أحد القراآت وعليه حمل بعضهم قوله ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف». الرابع يطلق ويراد به الآية. ومنه الحديث: «لكل حرف ظهر وبطن وحَدّ ومطلع» وفي رواية ـ ولكل آية منه ظهر وبطن وحد ومطلع ـ. الخامس يطلق ويراد به الشك. ومنه قول هتعالى: ﴿ومن الناسِ من يَعبُدُ الله

على حرفٍ﴾ أي على شك. وقال ابن‌عرفة معناه على غير طمأنينة. السادس يطلق ويراد به الجانب. ومنه قول ابن عباس ـ أهل الكتاب لا يأتون النساء إلاّ على حرف ـ أي جنب. ومنه حرف الجبل جانبه. السابع الحرف الناقة.. ومنه قول كعب بن زهير:

حرْفٌ أخوها أبوها من مُهجنَّةٍ   وعمُها خالها قَوْداءُ شِمليلُ

.. الثامن يطلق ويراد به أحد حروف الهجاء التي يجمعها أبجد.

فصل

في ذكر إعجاز القرآن العظيم

قد تكلم العلماء في ذلك فقال قوم إعجازه من جهة إيجازه واحتواء لفظه القليل على المعاني الكثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إذ فزعوا فلا فوتَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فكلاًّ أخذنا بذنبه﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فاصدعْ بما تؤمر﴾. وقوله تعالى: ﴿وإما تخافنَّ من قومٍ خِيانةً فانبذ إليهم على سَواءٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا﴾. وقوله تعالى: ﴿ومن يُطع اللهَ ورسولَه ويخشَ الله ويتّقِهِ فأولئكَ هُمُ الفائزون﴾. وقوله تعالى: ﴿لله الأمر من قَبل ومن بعدُ﴾. وقوله تعالى: ﴿ألا لهُ الخلقُ والأمر﴾ الآية وأشباهها كثير إذا تأملت الكتاب العزيز وجدت فيه من هذا كثير.. وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد في السنة وكلام العرب ما لفظه قليل ومعناه كثير مثل قوله ﷺ: «الأعمال بالنيات والمجالس بالأمانات». وأشباهه كثير..

وقال قوم إعجازه من جهة حسن تركيبه وبديع ترتيب ألفاظه وعذوبة مساقها وجزالتها وفخامتها وفصل خطابها.

وقال قوم إعجازه من غرابة أسلوبه العجيب واتساقه الغريب الذي خرج

عن أعاريض النظم وقوانين النثر وأساجيع الخطب وأنماط الأراجيز وضروب السجع . .

وقد اعترض على هذا القول من وجوه. الأول لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً. الثاني أن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الاتيان بمثله. الثالث أن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماقة في معارضة ﴿إنا أعطيناكَ الكوْثَر﴾ والطاحنات طحناً ـ هو أسلوب في غاية الفظاعة والركاكة وكان مبتدئاً به ولم يُعد ذلك معجزاً، بل عَدّ سُخفاً وحُمقاً. الرابع لما فاضلنا بين قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاصِ حياةٌ يا أولي الألباب﴾ وبين قولهم ـ القتل أنفى للقتل ـ لم تكن المفاضلة بسبب الوزن وإنما تعلق الاعجاز بما ظهرت به الفضيلة. الخامس أنّ وصف العرب القرآن بأنّ له لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة لا يليق بالاسلوب. . وقال قوم إعجازه بمجموع هذه الوجود الثلاثة وهذا الكلام يحتاج إلى نظر لأن مجموع هذه الأقسام الثلاثة إنما تكون معجزة في حق العرب خاصة لأن الفصاحة والبلاغة فيهم جبلة وخلقة وهم فرسانها أصحاب قصبات السبق فيها إلى الأمد لا يباريهم فيها أحد ولا يجاريهم في مضمارها جواد ولا يماريهم في التفرد بها ممار ذو عناد قد ألقت الأمم اليهم فيها مقاليد الاذعان وخفضوا لهم جناح الذل بما حصل لهم عندهم من العرفان فثبتَ لديهم أن أحداً لا يجاريهم في هذا المضمار ولا يدانيهم في إظهار ولا إضمار فجاءهم هذا الكتاب العزيز بقاصمة الظهر وفادحة القهر ودعوا إلى المعارضة فلم يقدموا ونـدبوا الى المساجلة والمجاراة فأمسكوا وأحجموا وقرِّعوا بقوارع التوبيخ والتقريع فركبوا خُيول العجز واستلأموا فقامت الحجة عليهم بذلك وصحت المعجزة لديهم لحصول التحدي والعجز عن الاتيان بمثله . .

وأما الأعاجم ومن يجري مجراهم فلا تقوم عليهم بذلك حجة ولا تصح فيهم بذلك معجزة لأنهم معترفون أن الفصاحة ليست من شأنهم ولا مضمارها من حلبات ميدانهم والله سبحانه أرسل محمداً ﷺ إلى الخلق كافة أحمرهم وأسودهم قال الله تعالى: ﴿قلْ يـا أيها النـاسُ إني رَسولُ اللهِ اليكم جميعاً﴾.

أظوقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلّا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ ولا يثبت إعجازه على الكافة إلّا بما يعزب على الكافة الاتيان بمثله مع اعترافهم بأن في مقدورهم من جنسه ولو جاء موسى لقومه بالفصاحة وعيسى لبني اسرائيل بالبراعة لما قامت لهما على قومهما بذلك حجة.

وقال قوم إنما وقع إعجازه بما فيه من المعاني الخفية والجلية وفنون العلوم النقلية والعقلية..

وأصحاب هذا القول لهم في ذلك خمسة مذاهب منهم من قال إعجازه فيما جاء فيه من أخبار القرون السالفة في الأزمنة الخالية والأعصر الماضية في الأماكن القاصية والدانية وقصص الأنبياء مع أممها مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف وقصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام وخال ذي القرنين ومما لم يسألوه عنه من قصص بقية الأنبياء صلوات الله عليهم أجميعن مع تحققهم أنه أمي لا يحسن الكتابة ولا تقدمت منه دراسة ولا سبقت منه رحلة ولا انتهت اليه نحلة ولم يكن بأرضه من يعلم الأخبار ويقتفي الآثار سوى أهل الكتاب الذين صرح بسبهم وأطلق لسانه في ثلبهم وضلل عقولهم وهجن طريقهم وأظهر معائبهم ولو كان أحد منهم أطلعه على شيء ذلك أو أعلمه به لقابلوه بالافصاح في الرد عليه ولملؤا الأرض بالتشنيع والتقريع وحيث لم ينقل ذلك علم أنه لم يعلمه بشر وليس ذلك إلا من جهة الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد مع أنه قد تعرض جماعة من سفهائهم فقالوا ما أخبر الله عنهم ﴿إنما يعلمه بشر﴾ وكانوا يقولون إنه سلمان الفارسي وغيره فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسانٌ عربيٌّ مبينٌ﴾. وقد اعترض على هذا القول بأنّ بعض سور القرآن ليس فيها شيء من ذكر القرون الماضية والأعصر الخالية وتلك السورة معجزة قد تحداهم الله بالإتيان بمثلها فلم يقدروا.

ومنهم من قال إعجازه بما فيه من الأخبار بما يكون وما كان مما وقع على

حكم ما أخبر به مثل قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله﴾ إلى آخرها وقوله: ﴿لتدخلنّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين﴾. وقوله تعالى: ﴿آلم غلبتِ الروم﴾ الآية وقوله: ﴿ليظهرهُ على الدّين كله ولو كره الكافرون﴾. وقوله ﴿وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية. وقوله: ﴿قلْ إنْ كانت لكم الدار الآخرة﴾ الآيتان. وقوله: ﴿فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا﴾. وقوله: ﴿إنّا نحنُ نزلنا الذكرَ﴾ الآية. وقوله: ﴿سَيهزَمُ الجمعُ ويولون الدبرَ﴾. وقوله: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ الآية. وقوله: ﴿هو الله الذي أرسلَ رسولهُ بالهدى ودين الحقّ﴾. وقوله: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾. وقوله: ﴿من الذينَ هادُوا سماعونَ للكذبِ﴾. وقوله: ﴿يخفون في أنفسهم﴾. وقوله: ﴿ويقولون في أنفسهم﴾. وقوله: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾. وقوله: ﴿يعدُكم الله إحدى الطائفتين﴾. وقوله: ﴿إنّا كفيناك المستهزئين﴾. وقوله: ﴿والله يعصمكَ من الناس﴾ إلى غير ذلك مما كشف به أخبار المارقين وأسرار المنافقين وكان جميعه كما أخبر وصدق الله ورسوله. وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شيء من الأخبار بالمغيبات وتلك السور معجزة قد تحداهم الله بالاتيان بمثلها فلم يقدروا على ذلك وضاقت عليهم مع فصاحتهم المسالك..

ومنهم من قال إعجازه بما احتوى عليه من العلوم التي لم يسبق اليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت اليها فطن العرب ولا غيرهم من الأمم..

وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد في السنة وكلام العرب مثل هذا ولم يُعد معجزة.. ومنهم من قال إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية اليه وإقبالها بوجه المودة عليه واستحلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليها من مبشراته المبهجة ومحذراته المزعجة وآياته المقلقة وأخباره المونقة مع كثرة قرعه للأسماع وصدعه بما يخالف الطباع ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره راغبة في تكراره شجية عند سماع مزماره يجد ذلك

منهم البر والفاجر والمؤمن والكافر قال الله تبارك وتعالى: ﴿الله نـزّلَ أحسن الحديث﴾ الآية..

وروي أن نصرانياً مرّ بقارىء فوقف يبكي فقيل له مم بكاؤك قال الشجا والنظم..

وفي الحديث الذي وصف به النبي ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه هو الفصل ليس بالهزل لا تشبع منه العلماء ولا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إنّا سمعنا قرآناً سجياً﴾ الآيات.

وقد اعترض على هذا القول بأنه قد يوجد في السنة وكلام فصحاء العرب وأشعار فحول الشعراء ما يحسن موقعه وتشرئب النفوس إلى سماعه ولا تمله على تكراره. ومنهم من قال إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحقها من الخشية سواءٌ كانت فاهمةً لمعانيه أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أو مؤمنة ولذلك قال ﷺ: «القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم فهذه الغيبة لم تزل تعتري من سمعه».

وقد اعترت جماعة من الصحابة قبل الإسلام وبعده فمات منهم خلق كثير من المؤمنين وسلبت به عقول كثير من الموقنين وتدلهت به ألباب جماعة من المحسنين. وقد صح أن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أمْ خُلقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقون﴾. إلى قوله تعالى المسيطرُوْنَ كاد قلبي أن يطير. وفي رواية أول ما وقر الايمان في قلبي.

وروي أن عتبة بن ربيعة كلمْه رسول الله ﷺ في ما جاءَ به من خلاف قومه فتلا عليهم: ﴿حم فصِّلت﴾. إلى قوله: ﴿صاعَقَة مثلَ صاعِقَة عادٍ وثمودَ﴾ فأمسكَ عتبة علي في رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية فجعل

النبي ﷺ يقرأ وعتبة مُصغ مُلق بيده خلف ظهره معتمداً عليهـا حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يـدري بما يـراجعه ورجـع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر اليهم وقال لقد كلمني كلاماً ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له ومثل هذا كثير . .

وأما من مات عند سماع تلاوة القرآن من المؤمنين وزال عقله وتـدله من المحبين وراجع الأمر من المـذنبين العاصين فكثيـر لا يمكن حصره ولا يسعنـا ها هنا ذكره فكتب الرقائق فيها من ذلك كثير . .

وقد اعترض هذا القول بأن جماعة من أرباب القلوب وذوي الاستغـراق في بديع أوصاف المحبوب حصل له من سمـاع بعض الأشعار مـا أخرجـه عن طوره وربما مات على فوره . .

وقال قوم إعجازه حفظ آياته من التبديل وصون كلماته من النقل والتحويل ولا يستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً ولا يزيده شكلاً ولا نقـطاً ولا يدخـل فيه كلمة من غيره ولا يخرج منه أخرى ولا يبدل حرفاً بحرف وذلك من آياته الكبرى وكم جهد أهل العناد في ذلك فما قدروا له وما استطاعوا وكم قصـدوا تحريفـه فأبى الله ذلك فأذعنوا له وأطاعوا . .

روي أنّ يهوديًا تكلم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام وناظر فعلم أنه من جملة الاعـلام وناضـل فتحققوا أنـه مسـدد السهـام فـدعـاه المتـوكـل إلى الإسلام فأبى وأقام لفرط الاباء على مذهب الآباءِ بعد أن بذل له المتوكل ضروباً من الأنعام وصنوفاً من الرفعة والاكرام وراجعه في ذلك مرة بعد أخرى فلم يزدهُ ذلك إلّا طغياناً وكفراً فغاب عنه مـدة ثم دخل إلى مجلسـه وهو يعلن الإسـلام ويدين دينه فقال له المتوكل: أسلمت؟ قـال: نعم. قال: مـا سبب إسلامـك؟ فقال: لما قطعت من عنقي قلادة التقليد وصرت من رتبة الاجتهاد إلى مرتقى ما عليه مزيد نظرت في الأديان وطلبت الحق حيث كان فأخذت التوراة فنظرت فيها وتدبرت معانيها وكتبتها بخطي وزدت فيهـا ونقصت ودخلت بها السـوق وبعتها

فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً، وأخذت الانجيل وزدت فيه ونقصت ودخلت به السوق وبعثه فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً، وأخذت القرآن وقرأته وتأملته فإذا: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون﴾ فكتبت وزدت فيه ونقصت ودخلت به السوق وبعته فنظر فيه المسلمون فعرفوا المواضع التي زدت فيها ونقصت وردوا كل كلمة إلى موضعها وكل حرف إلى مكانه فعلمت أنه الحق لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بَين يدَيهِ ولا مِنْ خلفهِ تَنزيلٌ من حَكيمٍ حَميد فآمنت به وصدّقت ما جاءَ به.

فصــل

اختار القاضي عياض وجماعة أن الاعجاز الظاهر المتحقق إنما هو في الأربعة الأول حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادات العرب. الثاني صورة نظمه العجيب الاسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب. الثالث ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما أخبر. الرابع ما أتى به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة وما عدى هذه الأربعة وما دلت عليه خصائص تفرّد بها ومآثر يستأثر بحصولها..

وقال قوم وجوه إعجازه ثمانية وقد قدّمناها في الفصل الذي قبل هذا الفصل وزاد بعضهم على هذا ونقص آخرون..

وقال قوم إعجازه في خروج الإتيان بمثله عن مقدور البشر..

وقال قوم إعجازه صرف الله خلقه عن القدرة على الاتيان بمثله ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم..

وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة. الأول أن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل أن الله تعالى عجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحته بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم

بعد أن كان مقدوراً لهم كما أن نبياً لو قال معجزتي أني أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم ويكون الأمر كما زعم لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه بل من تعذر ذلك عليهم ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرف. الثاني لو كان كلامهم مقارباً في الفاصحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل ذلك. الثالث أن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدي فبطل أن يكون الاعجاز بالصرف بل الاعجاز ليس بالصرف..

وكل واحد من هذه الأقوال يحتمل أن يكون معجزة إذا تحدّى بها الرسول ﷺ وعجزوا عن الاتيان بمثل ما تحدى به وسمي هذا القول معجزة لتعجيزه من رام معارضته والاتيان بمثله لأنها اسم فاعل من أعجزت يقال أعجزت هذه القصة فهي معجزة..

والذي يتعين اعتقاده أن القرآن بجملة ألفاظه ومعانيه وبعضه وكله معجزة إما لسلب قدرتهم عن الاتيان بمثله وإما لصرفهم عنه لأن النبي ﷺ تحدى به وعرض عليهم الاتيان بمثله فعجزوا عن ذلك ولأن الله سبحانه أخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً أو عشر سوَر من مثله فعجزوا عن ذلك أو سورة منه أو آية لتحديه ﷺ بها وعجزهم عن الآيتان بمثل هذا الذي وقع عليه تصريح الكتاب وصريح الخطاب ولا مرية في ذلك ولا خلاف.

فإن قال قائل أن سورة من القرآن معجزة ومع هذا أنها لم تحتو على جميع ما أودع القرآن من الإيجاز وضروب البيان وعذوبة المساق وغرابة الأسلوب والأخبار عن القرون السالفة في الأعصر الماضية إلى غير ذلك مما تقدم ذكره.

فالجواب عنه أن السورة من القرآن جامعة لجميع ما ذكرناه إما منطوق به أو مشار اليه ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**فأتوا بسورة من مثله وادعوا من**

استطعتم من دون الله﴾ فما وقع التحدي إلا بسورة منكرة أيّ سورة كانت فهذا دليل على أن القرآن العظيم قد احتوت أقصر سورة فيه من المعاني البديعة والفصاحة التي تسدّ بها عن معارضته الذريعة ونضرب لك مثالاً ليتحقق عندك ما ذكرناه فنقول سورة الكوثر أقصر سورة وفيها من الألفاظ البديعة الرائقة التي اقتضت بها أن تكون مبهجة والمعاني المنيعة الفائقة التي اقتضت بها أن تكون معجزة أحد وعشرون ثمانية في قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ وثمانية في قوله: ﴿فصلّ لربك وانحر﴾ وخمسة في قوله: ﴿إنّ شانئكَ هو الأبتر﴾. أما الثمانية التي في قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فالأول أن قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثـر﴾ دلّ على عطية كثيرة مسندة إلى معط كبير ومن كان كذلك كانت النعمة عظيمة عنده وأراد بالكوثر الخير الكثير ومن ذلك الخير الكثير ينال أولاده إلى يوم القيامة من أمته. جاء في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم ـ ومن الخير الذي وعد به ما أعطاه الله في الدارين من مزايا التعظيم والتقديم والثواب ما لم يعرفه إلا الله. وقيل أن الكوثر ما اختص به من النهر الذي ماؤه أحلى من كل شيء وعلى حافاته أواني الذهب والفضة كالنجوم أو كعدد النجوم.. الثانية أنه جمع ضمير المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية.. الثالثة أنه بنى الفعل على المبتدأ فدل على خصوصية وتحقيق على ما بينا في باب التقديم والتأخير.. الرابعة أنه صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم.. الخامسة أنه أورد الفعل بلفظ الماضي دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ودلالة على أن المتوقع من سيب الكريم في حكم الواقع.. السادسة جاء بالكوثر محذوف الموصوف لأن المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإيهام والشياع والتناول على طريق الاتساع.. السابعة اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة.. الثامنة أتى بهذه الصفة مصدرة باللام المعروف بالاستغراق لتكون لما يوصف بها شاملة وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة.. وأما الثمانية التي في قوله: ﴿فصلّ لربك وانحر﴾ فالأول فاء التعقيب ها هنا مستفادة من معنى التسبب لمعنيين. أحدهما جعل الأنعام الكثيرة سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادته. الثانية جعله لترك المبالاة بقول

العدوّ فإن سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال أن محمداً صنبورٌ ـ والصنبور ـ الذي لا عقب له فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه السورة. الثالثة قصده بالأمر التعريض بذكر العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله وتثبيت قدمي رسول الله ﷺ على الصراط المستقيم وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم. الرابعة أشار بهاتين العبادتين إلى نوعي العبادات أعني الأعمال البدنية التي الصلاة قوامها والمالية التي نحر الابل سنامها للتنبيه على ما لرسول الله ﷺ من الاختصاص في الصلاة التي جُعلت فيها قرة عينه ونحر الابل التي همته فيه قوية. رُوي عنه ﷺ أنه أهدى مائة بدنة فيها جمل في أنفه بُرَةٌ من ذهب. الخامسة حذف اللام الأخرى لدلالة الأولى عليها. السادسة مراعاة حق السجع الذي هو من جملة صنعة البديع إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً ولم يكن متكلفاً. السابعة قوله: ﴿لربك﴾ فيه حسنان. وروده على طريق الالتفات التي هي أم من الأمهات. وصرف الكلام عن لفظ المضمر الى لفظ المظهر وفيه إظهار لكبرياء شأنه وإثباته لعز سلطانه ومنه أخذ الخلفاء ـ يأمرك أمير المؤمنين بكذا ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خطب الأزدية إلى أهلها فقال خطب اليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم. الثامنة علَّم بهذا أن من حقوق الله التي تعبد العباد بها أنه ربهم ومالكهم وعرّض بترك التماس العطاء من عبد مربوب ترك عبادة ربه. . وأما قوله جل جلاله: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ ففيه خمس فوائد. الأولى أنه علل الأمر بالاقبال على شأنه وترك الاحتفال بشانيه على سبيل الاستئناف الذي هو حسنٌ حسنُ الموقع وقد كثرت في التنزيل مواقعه. الثانية ويتجه أن نجعلها جملة الاعتراض مرسلة إرسال الحكمة الخاتمة الأغراض كقوله تعالى: ﴿إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾ وعني بالشانىء العاص بن وائل. الثالثة إنما لم يسمه باسمه ليتناول كل من كان في مثل حاله. الرابعة صدّر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم وعبر عنه بالاسم الذي فيه دلالة على أنه لم يتوجه بقلبه إلى الصدق ولم يقصد بلسانه الافصاح عن الحق بل نطق بالشنآن الذي هو قرين البغي والحسد وعين البغضاء والحرد ولذلك وسمه بما ينبىء عن الحقد. الخامسة اعل الخبر معرفة وهو الأبتر

والشانىء حتى كأنه الجمهور الذي يقال له الصنبور. ثم هـذه السورة مـع علو مطلعها وتمـام مقطعهـا واتصافهـا بما هـو طراز الأمـر كله من مجيئها مشحـونة بالنكث الجلائل مكتنزة بالمحاسن غير القلائل فهي خالية عن تصنع من يتناول التنكيت ويعمل بعمل من يتعاطى بمجاجته التبكيت.

قال المصنف عفا الله عنه: والأقرب من هذه الأقاويل إلى الصواب قـول من قال أن إعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان فإنه ليس عليه ايراد ولا مطعن.

وقال بعض العلماء: إن إعجازه إنما وقع بكون المتكلم به عالمـاً بمراده من كل كلمة وما يليق بها وما ينبغي أن يلائمها من الكلام وما يناسبها في المعنى لا يختفي عنه مادق من ذلك وما جل ولا مصرف كل كلمة ولا مـآلها وغيـر الله تعالى لا يقدر على ذلك لأنه أحاط بكل شيء علماً وأحصي كل شيء عدداً وهذا القول من الأقوال التي لا مطعن عليها.

وقد عدد العلمـاء وجوهـاً من اعجازه غيـر ما ذكـرناه الأوْلى أن تعـد من خصائصه.

وقال قوم: إعجازه من جهة أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات وأن العرب إذا تحدوا بالتماس معارضتهم له والاتيان بمثله أو بمثل بعضه كلفوا ما لا يطاق. ومن هذه الجهة وقع عجزهم. وهذا القول أيضاً حسن الله أعلم.

فصـــل

فيما احتوى عليه هذا الكتاب العزيز من تلوين الخطاب ومعدوله وفنـون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبـدائع البـديع ومحـاسن الحكم والأمثـال مفصـلاً ومجمـلاً خـاطب العـرب بلسـانهم لتقـوم بـه الحجـة عليهم والخطاب الوارد عليهم ينقسم الى قسمين بـاق على أصل مـدلولـه وموضـوعه

ومعدول به عن حقيقته إلى مسموعه والمجموع ما عدل وما لم يعدل مائة وعشرون قسماً.

الأول: خطاب عام وهو ما أريد به جميع من يعقل مثل قوله تعالى: ﴿**واتقوا الذي خلقكم والجبلةَ الأولين**﴾ وقوله: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾. الثاني: خطاب خاص بلفظ عام كقوله تعالى: ﴿**أكفرتم بعد أيمانكم**﴾ وقوله تعالى: ﴿**هذا ما كنزتم لأنفسكم**﴾. الثالث: خطاب الجنس مثل قوله تعالى: ﴿**ياأيها الناس**﴾. الرابع: خطاب النوع مثل قوله تعالى: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عندَ كل مسجدٍ**﴾ ويريد بني آدم من صلبه خاصة وقوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل**﴾. الخامس: خطاب العين كقوله تعالى: ﴿**يا آدم اسكن أنتَ وزوجُك الجنة. يا نوح اهبطْ بسلام مَنّا. يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا**﴾. السادس: خطاب المدح مثل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾. السابع: خطاب الذم كقوله: ﴿**يا أيها الذين كفروا**﴾. الثامن: خطاب الكرامة كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الرّسولُ بلّغْ**﴾. التاسع: خطاب الاهانة كقوله تعالى: ﴿**إنّكَ رجيم**﴾. العاشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الانسان ما غرك بربّك الكريم**﴾. الحادي عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع كقوله تعالى: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين**﴾ خاطب بذلك النبي ﷺ بدليل قوله: ﴿**واصبر وما صبرك إلّا بالله**﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفرَ اللهُ لكم والله غفورٌ رحيمٌ**﴾ خاطب بذلك أبا بكر رضي الله عنه حين حرم مسطحاً رِفدره حين تكلم في حديث الافك. الثاني عشر: خطاب الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى: ﴿**ألقيا في جهنمَ كلَّ كفار عنيدٍ**﴾ والخطاب لمالكٍ خازنِ النار تقديره ألق ألق وقد سمع عن بعض العرب يا حَرَسي اضربا عُنقه ـ وقد عمل بعض الأئمة قول امرىء القيس:

قفا نبكِ منْ ذكرى حَبيبٍ ومنزلِ

على هذا المحمل. الثالث عشر: خطاب العين والمراد به الغير كقوله

تعالى يخاطب به النبي ﷺ: ﴿لئن أشركتَ ليحبطنّ عملكَ﴾ والمراد بـه أمته. الرابع عشر: الخروج بخطاب الحضرة إلى الغيبة مثل قوله تعـالى: ﴿حتى إذا كنتمْ في الفلك وجرين بهم﴾. الخامس عشر: الخروج من الغيبة الى الحضور كقوله تعالى: ﴿فأمـا الذين اسودّتْ وُجوههم أكفـرتم بعدَ إيمـانكم﴾. وقولـه تعـالى: ﴿وسقاهمْ ربهم شـراباً طهـوراً إنّ هذا كـان لكم جزاءً وكـان سَعيكم مَشكوراً﴾. السادس عشر: خطاب التحنن مثل قوله تعالى: ﴿يا عباديَ الـذين أسرَفوا على أنفسهمْ لا تقنطوا من رَحمة الله﴾ إلى قوله: ﴿تشعرون﴾. السابع عشـر: إطـلاق اسم العلم على المعلوم. الثـامن عشـر: إطـلاق المعلوم على العلم. التـاسع عشـر: إطلاق القـدرة على المقدور. العشـرون: إطلاق اسم الارادة على المـراد. الحـادي والعشـرون: إطـلاق اسم المـراد على الارادة. الثاني والعشرون: إطلاق اسم الفعل على أول جزءٍ منه وعلى آخر جزء منـه. الثالث والعشرون: إطلاق اسم الأمل على المأمول. الرابع والعشرون: إطلاق اسم الـوعد والـوعيد على المـوعود. الخـامس والعشرون: إطـلاق اسم العقد والعهـد على الملتزم بهمـا. السادس والعشـرون: إطلاق اسـم البُشـرى على المبشـر به. السـابـع والعشـرون: إطـلاق اسم القـول على المقـول. الثـامن والعشرون: إطلاق اسم النبأ على المنبأ به. التاسع والعشرون: إطـلاق الاسم على المسمى. الثـلاثـون: إطـلاق اسم الكلمـة على المتكلم. الحـادي والثلاثون: إطلاق اسم اليمين على المحلوف عليه. الثاني والثلاثـون: إطلاق اسم الحكم على المحكوم به. الثالث والثلاثون: إطلاق العـزم على المعزوم عليه. الرابع والثلاثون: إطلاق اسم الهوى على المهوي. الخامس والثلاثون: إطلاق اسم الخشية على المخشي. السادس والثلاثـون: إطلاق المخب على المحبـوب. السابـع والثلاثـون: إطـلاق اسم الـظـن على المـظنـون. الثـامن والثلاثون: اليقين على المتيقن. التاسع والثـلاثون: إطـلاق اسم الشهوة على المشتهي. الأربعون: إطلاق اسم الحاجة على المحتاج. الحادي والأربعون: إطلاق اسم السبب على المسبب. الثاني والأربعون: إطلاق اسم الكتابة على الحفظ. الثالث والأربعون: إطلاق اسم السمع على القبول. الرابع والأربعون:

إطلاق اسم الإيمان على ما نشأ عنه. الخامس والأربعون: إطلاق اسم المسبب علي السبب. السادس والأربعون: إطلاق اسم العقوبة على الاساءة. السابع والأربعون: إطلاق اسم الأكل على الأخد. الثامن والأربعون: إطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التي هي سبب عنها. التاسع والأربعون: إطلاق اسم الرِّجز والرجس على عبادة الأصنام. الخمسون: إطلاق اسم المغفرة على التوبة. الحادي والخمسون: إطلاق اسم الكبرياء على الملك. الثاني والخمسون: إطلاق اسم القوة على السلاح. الثالث والخمسون: إطلاق اسم الاعطاء والإيتاء على الالتزام. الرابع والخمسون: إطلاق اسم الفعل على غير فاعله. الخامس والخمسون: إطلاق اسم الفعل على سببه. السادس والخمسون: إطلاق اسم الفعل على الأمر به. السابع والخمسون: إطلاق اسم البعض على الكل. الثامن والخمسون: إطلاق اسم الكل على البعض. التاسع والخمسون: إطلاق اسم القيام على الصلاة. الستون: إطلاق اسم الركوع عليها. الحادي والستون: إطلاق اسم السجود عليها. الثاني والستون: إطلاق اسم القراءة عليها. الثالث والستون: إطلاق اسم التسبيح عليها. الرابع والستون: إطلاق اسم الذكر عليها. الخامس والستون: إطلاق اسم الاستغفار عليها. السادس والستون: إطلاق اسم الذقن على الوجه. السابع والستون: إطلاق اسم الأنف على الوجه. الثامن والستون: إطلاق اسم الرقبة على الجملة. التاسع والستون: إطلاق اسم اليدين على الجملة. السبعون: إطلاق اسم اليمين على الجملة. الحادي والسبعون: إطلاق اسم العضد على الجملة. الثاني والسبعون: إطلاق اسم الأصابع على الأرجل. الثالث والسبعون: إطلاق اسم الوجه على الجملة. الرابع والسبعون: إطلاق اسم بعض الرأس على الرأس. الخامس والسبعون: إطلاق اسم بعض الأذن على الأذن. السادس والسبعون: وصف الوجه بالخشوع والخشوع إنما يكون في القلوب. السابع والسبعون: وصفها بالرضى. الثامن والسبعون: وصف الجميع بما هو وصف البعض. التاسع والسبعون: إطلاق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه. الثمانون: إطلاق اسم الفعل على ما كان عليه. الحادي والثمانون: إطلاق اسم الشيء على ما

يؤل اليه. الثاني والثمانون: إطلاق اسم المتوهم على المتحقق. الثالث والثمانون: إطلاق اسم الشيء على ما يظنه الناظر وهو على خلافه. الرابع والثمانون: التعبير بالاذن عن المشيئة. الخامس والثمانون: إطلاق اسم الشيء على ما لازمه. السادس والثمانون: إطلاق اسم الحال على المحل. السابع والثمانون: إطلاق اسم الأفواه على الألسن. الثامن والثمانون: التعبير بالألسنة عن اللغات. التاسع والثمانون: إطلاق ترك الكلام على الغضب. التسعون: التعبير بالاياس عن العلم. الحادي والتسعون: التعبير بالدخول عن الوطء. الثاني والتسعون: إطلاق اسم الأسد على الشجاع. الثالث والتسعون: إطلاق اسم الفوز والحياة على الإيمان. الرابع والتسعون: إطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل. الخامس والتسعون: إطلاق اسم السراج والنور على الهادي. السادس والتسعون: إطلاق اسم الحطب على النميمة. السابع والتسعون: إطلاق اسم الإنسان على تمثاله. الثامن والتسعون: التجوز بالماضي عن المستقبل. التاسع والتسعون: التجوز عن الماضي بالمستقبل. المائة: إطلاق اسم الخبر عن النهي. الحادي بعد المائة: إطلاق لفظ الخبر عن الدعاء. الثاني بعد المائة: إطلاق الأمر على الخبر. الثالث بعد المائة: توكيد الخبر. الرابع بعد المائة: التجوز بجواب الشرط عن الأمر. الخامس بعد المائة: التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي وإنما يراد بها ما يقاربها ويلازمها. السادس بعد المائة: التجوز بالنهي لمن لا يصح نهيه وإنما المراد به من يصح نهيه. السابع بعد المائة التجوز بنهي من يصح نهيه والمنهي في الحقيقة غيره. الثامن بعد المائة التجوز بهل عن الأمر والنهي والتقرير. التاسع بعد المائة: التجوز بهمزة الاستفهام عن الأمر والإيجاب والتقرير والتوبيخ. العاشر بعد المائة: التجوز بفي ويتجوز بها في مواضع قد تقدم ذكرها في فصل المجاز. الحادي عشر بعد المائة: التجوز بعلى ويتجوز بها في موضع مضى ذكرها في باب المجاز عن عن وهي حقيقة مجاوزة جرم عن جرم ويتجوز بها في المعاني وقد تقدم ذكره. الثاني عشر بعد المائة: التجوز بمن وهي حقيقة في ابتداء الغاية في الأمكنة ويتجوز بها عن ابتداء الغاية في الأزمنة. الثالث عشر بعد المائة: حرف ثم وتستعمل حقيقة في التراخي

المعنوي ومجازاً في التراخي الزماني. الرابع عشر بعد المائة: حرف ـ ما ـ قال سيبويه هي للأصناف والأخلاط وهي حقيقة في الإجرام وتجوّز في المعاني. الخامس عشر بعد المائة: حرفا ـ لعل وعسى ـ وحقيقتهما الترجي والتوقع ويتجوز بهما في الإيجاب.

فهذه مائة وخمسة عشر قسماً إذا حررت بتفاصيلها جاوزت المائة وعشرين نوعاً بل أكثر من ذلك وقد ذكرناها مفصلة معينة بشواهدها من الكتاب العزيز والكلام الفصيح وأشعار العرب والمخضرمين والمتأخرين ونسأل الله العون والصون والتوفيق إلى ما يقربنا إليه ويزلفنا لديه والله الموفق لا رب غيره ولا يستعان بسواه.

* * *

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى (وبعد) فقد تم بعون الله وحسن توفيقه طبع كتاب (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) لمؤلفه شيخ الإسلام على التحقيق ناصر السنة قامع البدع شمس الدين أبي عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية وهو كما ترى لم يؤلف في بلاغة القرآن مؤلف على مثاله ولم تنسج يد ناسج على منواله. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ما تعاقبت الأوقات.

فهرست كتاب

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان

الموضوع | صفحة

الموضوع	صفحة

(الكلام على ما يختص بالمعاني وينقسم إلى عدة أقسام)

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الفن الثاني

صفحة